
المنصف المرزوقي
الرحلة
الأهالي
Bibliotheca Alexandrina
0197690

الرحلـــــة

• الرحلـة ـ العالم
• المنصف المرزوقي
• الطبعة الأولى ١٩٩٨

• **الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع**
سورية ـ دمشق ـ ص. ب: ٩٥٠٣ ـ هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦
• التوزيع في جميع أنحاء العالم:
• **الأهالي للتوزيع**
سورية ـ دمشق ـ ص. ب: ٩٢٢٣ ـ هاتف: ٢٢١٣٩٦٢
فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

• الغلاف: «الرجل الماشي» نحت على البرونز
للفنان الإيطالي ألبرتو جاكومتي ١٩٦٠

١ ـ ٨١٣٫٣٠ م ر ز ر   ٢ ـ ٨١٣٫٠٠٩٦١١ م ر ز ر
٣ ـ العنوان   ٤ ـ المرزوقي   مكتبة الأسد

المنصف المرزوقي

الرحلة

« العالم »

الأهالي

أنا في الزمان كموجة في زاخر
أنا فيه إن يزبد وإن لم يزبد

مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي
أو مخرجي منه ولا بمبدّدي

إيليا أبو ماضي

«بنو سفر عابرون على جسر»

وبخصوص انطلاق الكتابة من قول عابر سبيل «اللّهم أتمّ هذه الرحلة على خير» وكيف أنّ هذا التشبيه أوحى له بتصوّر ساذج أن كلّ حياة رحلة في العالم قال الرّاوي:

هل فتحت ليلة من ليالي الصيف مذياعا تدير قرصه بمنتهى البطء لا تبحث عن إذاعة محدّدة وإنما تعبّ ساعات طويلة من لّغات ولّكنات لا تفهم منها إلا أقلّ من القليل مصيخا السمع بشغف حتّى لصفير الإلكترونات.

هل شعرت مثلي بالانبهار أمام كل هذه الخطابات وهي تتدافع وتتزاحم على أمواج الأثير تحمل ثرثرة إنسانية عصبية المزاج.

وسّع مجال مخيّلتك تنصت إلى دردشة العصافير في السماء إلى صراخ الحيتان في قاع المحيطات. لا تقف عند هذا الحدّ فللأشجار نفسها على ما يبدو ثرثرتها الصامتة.

ها هو صخب الكائنات بتعدّدها وتعقيدها بنشازها وتناغمها وهي الأخرى على مايبدو تتبادل شكلا أو آخر من التعليق على الحياة وقد يكون فيه أيضا النداء العامّ الذي يصرخ به كل حيّ:

أنا هنا موجود ومنكم فابسطوا حمايتكم عليّ ودلّوني على الطّريق الأضمن.

نتعلّم كلّنا باكرا ضرورة الإصغاء إلى الهمس والوشوشة.. إلى الإشاعة وصريح الخطاب إلى الصراخ والزعيق الذي يحفّ بنا منذ نأتي أو يأتينا الموجود. لابدّ لكلّ واحد منّا أن يتكلّم.. أن يحاول الردّ... أن يشارك في عملية تبادل آخر الأخبار.

والإشاعات عن الثنايا السّالكة.. عن الأحوال الجويّة.. عن قطّاع الطّريق عن آخر المذابح وعن أهداف الأقدار التي رمت بنا في هذه المسالك الوعرة نمشي قدما أحببنا أو كرهنا نحو أهداف ليست بالضرورة أهدافنا.

قلّ من لاتثيره غرابة العالم ولو مرّة.

منّا من يقرّر انه لا جدوى من الصّراخ في أذن أطرش وانك تضيّع وقتا ثمينا في محاولة تنطيق أبكم مصرّ على صمته وقد تبقى مثلي تحلم أو تحاول فكّ أسرارّ الكتابة وأسرار الكاتب وأسرار القصّة.

انّه لمن مفارقات الحياة ومن مبتذلاتها أن تدخل الموجود من باب اليقين وأن تخرج منه من باب الحيرة والشكّ أن تستهلّها وأنت ملآن حقائق وأن تصل آخرها وقد تبخّرت كلّ الإجابات ولم تبق سوى الأسئلة.

نعود بعد الدوران في الحلقات المفرغة إلى نقطة البداية لنتساءل ما هو السؤال الذي كان علينا أن نطرحه على أبي الهول.

لقد سمعت الكثير من هذه الأسئلة.

لماذا يوجد شيء بدلا من العدم ومن خلق الكون وماهو الشّكل «الحقيقي» له وماهي القوانين «الموضوعيّة» التي تسيّره وكيف نستطيع السّطو عليها لنتحكم فيه وما الغرض من وجودنا وهل لآلامنا من وظيفة وتبرير وهل لآمالنا من قيمة وجدوى الخ.. إلخ.

وسمعت أيضا أكثر من شاعر يتحسّر على أنّه لا يعرف من هو، إنّه أتى لا يعلم من أين وإنّه أبصر طريقا قدّامه فمشى نحو المجهول وسمعت من ردّ عليه ساخرا ليهرب من الحيرة العامّة إنّه «ايفان» وإنّه أتى من داره وإنّه ذاهب إلى خمّارة الحيّ.

تختلط كلّ الأسئلة التي سمعتها من المسافرين يطرحونها على أبي الهول وهو مغرق في الصمت.

يخطر ببالي أنني لو خيّرت لألقي عليه سؤالا واحدا لما تردّدت لحظة: لماذا يستعصي الموجود دوما على الإدراك.

ألا يثيرك انّه يتسربل بكلّ هذه الغرابة أنّ يختفي وراء كلّ هذه العتمة.

لماذا يبدو مشرقا مكشوفا وهو سرّ داخل لغز غموض داخل إبهام.

لماذا تبدو لنا ساطعة نشير إليها ونتمتم إنّها الشمس ونظلّ ننسج حولها الآراء والصور ليأتي بعدنا من يحوّر ويضيف ويكذّب وهكذا بلا نهاية ماهذا الذي أرى وأسمع وأستنشق لماذا أتقدّم في دروب الموجود كالأعمى في نفق لماذا أنا تائه في دروبه لماذا أتخبّط في الأوهام والخدع التي أنا خالقها كالعنكبوت تتخبّط في الشّبكة التي نسجت.

لماذا حكم عليّ أن أجهل من أنا وأجهل من أنت وأن أسكن جسدي فلا أعرفه وأن تكون لي روح أنا غريب عنها لماذا أعرف كيف أتنفّس ولا أعرف كيف أتنفّس لماذا أحرّك أطرافي يحرّكني علم أين منه أي علم وأبقى محروماً منه وهو علمي لماذا أنا منفيّ داخل ذاتي ولماذا أنا منفيّ خارجها.

لماذا أرى الأشياء ولا أراها لماذا أسمع الكائنات ولا أفهم ما تقول لماذا لا أعرف منها إلاّ أطيافها لماذا أحبّ الموسيقى ولا أعرف ما هذا الذي أحبّ.

لماذا يجب أن يتجمّع العميان على مرّ العصور ليخلقوا بصيصا خافتا من النور يشقّون به العتمة وهي تتكثّف أمامهم ووراءهم.

لماذا نتقدّم في ربوع الموجود ونحن نوسّع دائرة النور ولا نهاية للعتمة الميحطة بنا لماذا نعتقد أننا قد عرفنا ماهية الموجود في هذه الدائرة التي أضأناها والحال أننا لم نملأها إلاّ بأوهامنا واسقاطاتنا لماذا نعاني كلّنا من صعوبة الوصول وصعوبة العيش في الأرض وصعوبة الرحيل عنها لماذا يبقى أبو الهول صامتا لا ينطق عبر الدهور ولماذا نصرّ نحن على أن ننطقه ولا نظفرمنه إلاّ بصدى صوتنا.

لماذا حكم عليّ أن ألقي مثل هذه الأسئلة والحال أنني أشكّ في صوابها وفي مثل هذه الحالة أين هي الأسئلة الصّائبة ولماذا أنا عاجز عن طرحها.

لا نهاية لمظاهر مقاومة الموجود واستعصائه على الفهم.

لانهاية للعراقيل التي يضعها أمامنا.. التي هي منه كالطفرة والكثرة والامتلاء والتعقيد والمبالغة في كلّ صوب واتّجاه عدم الثبات على حال، التي هي منّا كقصر المدّة المحدّدة ومحدوديّة طاقة الفكر في استوعاب الطفرة والتعقيد والتغيّر وطبيعة اللّغة كحجاب واستشراء العنف لفرض الرأي في محاولة يائسة للهروب من صمت ابي الهول. أرفض أن أخرج من الحياة خاوي الوفاض معترفا بفشلي وليس في فمي إلاّ طعم المرارة. يتصلّب الفكر الآدمي أمام مقاومة الموجود على الفهم كما تتصلب العضلة أمام مقاومة الأهرام على الزحزحة. تتعالى الأصوات آتية من كلّ زمان ومكان في إطار نقاش صاخب لايفتر لحظة ولن يعرف نهايته إلاّ يوم إختفاء كلّ من حبته الطّبيعة بنعمة ونقمة اللّغة. ما أكثر ما أرهبتني تلك الأطنان من الرّوايات المتضاربة التي تتناول الألغاز من هذه الزاوية أو من ذاك الركن. يصاب المرء بالتخمة حتى قبل أن يجلس إلى مائدة الطعام. لكلّ رأيه ولكلّ حكايته عن الأسباب والأهداف ولكلّ روايته وكلّها لا تخرج عن دائرة القيل والقال.

القاعدة الاختلاف عند المتكلّمين والضياع عند السّامعين.

يتعالى الصّراخ واللّغط من كلّ مكان وعلى كلّ المستويات. تعمّ البلبلة.

تتعمّق الحيرة وتفقد الأمل في إمكانية الخروج منها يوما وقد تقنع نفسك انّه لاطائل من تعذيب نفسك بأسئلة بدون جواب إلى أن تأتيك يوما ممّن لا تتوقع وأين لا تتوقع وحين لا تتوقع أفكار لا تقذف بنور «الحقيقة» في صدرك وإنّما تعيد صياغة الرّؤيا بكيفيّة تخرجك من دائرة أسئلة كانت دوما بداية المشاكل وليست بداية أيّ حلّ.

* * *

وممّا قرأته لحكماء آسيا دون أن أفهم أنها حالة خاصّة جدّا وفريدة جدّا وأنّها كخروجك

من ضباب طال تخبّطك فيه. حذاري أن تتصوّر أنها التجربة التي يبحث عنها نوع آخر من حكماء الشّرق والغرب: اللّحظة التي يزال فيها النقاب عن وجه «الحقيقة» الساطع. هم يسمّونها «الساتوريّ» وتعني في أذهانهم أشياء صعبة الإدراك. هم وصفوها بصعوبة من لا يملك مصطلحات الإعجاز للحديث عن المعجزة.

ومنهم من يقضّي حياته في البحث عنها ولا يصل وطوبى لمن عرفها لأنه يكون قد عبر الخطّ.

ما الذي يجرّبه في هذه اللّحظة الفريدة هؤلاء المسافرون المحظوظون وما هذه المشاعر أو الأفكار التي تعيد في لحظة تشكيل ذاتهم فإذا بهم كأنّهم ولدوا من جديد.

الغريب في الأمر حسب قولهم، أن الإكتشاف إذا كان لهذا المصطلح معنى هو في متناول أقل المسافرين حظا من علم أو ذكاء وانّه اكتشاف فارغ أو اكتشاف الفراغ.

تتحقّق الحالة دون سابق إنذار وأنت تنصت إلى ضحكة طفل أو تشارك في شجار مع عابري سبيل أو تقوم بعمل مملّ.

فجأة تفهم دون أن تفهم. تشعر دون أن تستطيع التعبير. تصبح آخر وأنت دوما نفس الشخص.

أهذا ما عرفته ذلك اليوم.

* * *

كان عجوزا على قاب قوسين أو أدنى من «الموت» ولم يكن لي أو له أمل كبير في شفاء ومّما أذكره خاصّة عنه أنّه تنهّد ذلك اليوم وهو يرتدي ثيابه على مهل بعد أن انتهى الفحص الطبّي قائلا وكأنّه أيقن من اقتراب السّاعة: «اللّهم أتمم هذه الرحلة على خير.».

نبش الرجل وهو لايعلم من أعماق الذّاكرة مقطعا من بيت لشاعركان لي دوما قدوة ورفيقا.

أذكر أنّني توقّفت عن كتابة الوصفة وأنّني نظرت إليه بانتباه متجدّد. بداهة لم يكن الرّجل من النّوع الذي يقرأ فمابالك لـ «المعرّي». كان الأمر مجرّد تلاقي تجربتين متباعدتين زمانا ومكانا لذاتين اتفقتا على نفس الصّورة وكم رأيتها تتردّد في أكثر من موضع عند فيلسوف الشعراء الناطقين بلغة الضّاد ومن ذلك قوله:

وهوّن ما نلقى من البؤس أنّنا ... بنو سفر أو عابرون على جسر.

وقوله

غدوت مع الأحياء مذ حان مولدي ... إلى اليوم ما ننفكّ في دأب سفرا.

وقوله

أنا بالليالي والحوادث أخبر سفر يجدّ بنا وجسر يعبر.

وقوله

وردنا بلا وفر ديار حياتنا ونترك فيها يوم نرتحل الوفرا.

وقوله

إنّ الحياة كجسر بين موتين أوّل وثان وفقد الشخص أن يعبر الجسر.

وقوله

عشنا وجسر الموت قدّامنا فشمّر الآن لكي تعبره.

تستبطن الصورة الذّات سنوات وسنوات ومن الصور ما يسكنك كما تسكنك الجراثيم وخلايا السرطان ومنها ما تدخلك كما تدخل بذور الحبق أرضا خصبة.

«اللّهم أتمم هذه الرّحلة على خير»....

الحياة والرّحلة! الرحلة والحياة! الحياة كرحلة بنو سافر عابرون على جسر!!!

ينتشل الرّجل الموشك على الرّحيل الصّورة من أعماق النّسيان. تقفز الكلمة من اللاّوعي كما تقفز سمكة فضّية إلى سطح البحر لتعيد في سرعة البرق ترتيب البيت.

* * *

نحن لا نتعامل مع الإشكاليات التي نطرحها على أنفسنا إلاّ عبر صور وتشابيه لهذا الرّاوي أو ذاك وقد نعي أو لانعي أنها تماثلات وإسقاطات وأنها قد تكون إحدى أهمّ أسباب مانعاني منه من اضطراب التّفكير.

هكذا قيل لي ولك إن الحياة لغز للفكّ.... إنّها ساحة وغى.... إنّها وادي دموع ومحتشد كوني لتعذيب الكائنات... إنّها حانة وماخور... إنّها امتحان... أنها عبث محض. تقدّم لي ولك هذه الصّور إلى اليوم على أنها جدّ و«حقيقة» وان عليك أن تتبنّى وان تلتزم بإحداها لا غير.

ها أنا أضعها كلّها أمامي كما أضع صور مسابقة لمصوّرين هواة حكما عادلا.

وذوّاقة محنّكا لأمنح الجائزة الأولى لأحسن عمل فنّي.

أقرّر أن لاأفضل من تشبيه وصورة ذلك الرّجل الأمّي المريض لأنّه قادر على احتواء كلّ الصور وكلّ التشابيه الممكنة.

هل من تشبيه أفضل وقد استحالت المعرفة المطلقة لم لا تكون الحياة الرحلة الكبرى.

ألا تنزل من بين فخذي امرأة وكأنّك تنزل من صاروخ عابر للمجرّات.

تجد نفسك فجأة كمسافر في مطار ضخم جالسا على كرسي وحقيبتك الخفيفة بجانبك. تهاجمك الألوان والروائح. يتملكك الدهش والجوع والعطش. يصرخ في أذنك الحمّال وبائع الجرائد ويسلّم عليك مجهول بحرارة.

يتصاعد الصخب من صاروخ لافظ وصاروخ مبتلع رائح. يدفعك أحدهم لكي تنهض ولا تعرف ما تفعل برجليك. يدهشك أنّك تمشي وأنّك تقرأ وأنّك تفهم ما تعنيه اللاّفتة.

«أنت الذي عبرت باب الزمان آتيا ومبارحا قاعدا ومغادرا قديما متجدّدا جديدا متقادما صامتا متكلّما جاهلا متعلّما معذّبا ومعذّبا ساذجا متوهمّا خاملا ومغامرا إعلم أنّك وصلت عالم الرحلة».

ها أنت الآن أمام باب المحطّة الخارجي تجرّ حقيبتك.. تفتحها. تكتشف أنّها فارغة وأنّ الساحة ملآنة أشياء وكائنات وأنّ أحدا أو شيئا يدفعك دوما إلى الأمام لكي تدخل حلبة الرقص.

يحملك الطوفان.

نرمى في عالم لا يترك متّسعا للتوقّف والتأمّل... نبحر على متن قوى هائلة مجهولة تداهمنا الأخطار ونبقى نصارع كلّ لحظة قوى هائلة مجهولة. تتابع الصور عن الموجود الذي ندخل ونعبر نحو باب الخروج وكأنّ همّ هذه القوى المخيفة رمينا ما وراء باب «الموت» بأسرع وقت ممكن.

نصل أغلب الحالات إلى باب الدخول والخروج وقد امتلأ جراب الذّاكرة بالصور المشّوشة المضطربة وقد تداخلت وتضاربت وقلّما تسمح بتكوين صورة منسجمة مهيكلة عن هذا الذي زرناه وزارنا.

نبقى نتخبّط في الأفراح والأتراح إلى أن ندخل تابوتا يودع في الأرض كسفينة تبحر على محيط اسمه المجهول. نفتح أعيننا على روائع الدنيا ويغلقها الأهل والأحباب ونحن لم نشبع. يغادر البعض الركب وفي النفس حسرة ومرارة ويغادرها البعض كما يغادر المحكوم عليه بالأشغال الشاقّة سجنه الحزين.

أليست إذا «سياحة» عبر المناظر الحسيّة والشعورية والفكرية التي يوفّرها العالم.

أليس أوفرنا حظا من ينهي رحلته وقد ملأ جرابه بأكبر قدر ممكن من المشاعر والأحاسيس والتجارب يؤوب إلى صمت المجهول بنفسيّة السائح الذي اغتنم كل فرص المتعة ولم تغشّه وكالة الأسفار.

أليس أتعسنا مصيرا من يعبر السنوات المحدّدة له دون أن يشعر بغرابة الموجود دون أن يستثيره سرّ جمال الموسيقى وسرّجمال المرأة وسرّ جمال ليالي الصيف وسرّ ضرورة الموت

دون أن تنطلق من أعماقه صرخات الإنبهار والرعب.

وبالتّالي أليست الحياة الرّحلة التي تحتوي وتنظم وتمنح المعنى لكل الرحلات.... داخل الموجود... داخل الذات.. مع الآخر وداخله.

* * *

تغزو صورة قديمة وتشبيه مبتذل ذهنا هيّأته لاستقبالها ظروف الزمان والمكان ذلك أنني حللت زمانا ومكانا كان السّفر شغله الشّاغل وهاجسه الأوّل، والإنسان لايبني من قديم الزّمان بيته وتصوّره للعالم إلاّ بما يوفّره محيطه من موادّ.

تأتي الكتابات كالبنايات شاهدا ودليلا على زمن ومكان ولم يكن بوسعي أن أشذ عن القاعدة.

إنّ السفر حقّا ظاهرة عامّة أزليّة وقدر الكلّ.. قدر جحافل الحيتان المرتحلة في طوابير عملاقة من قطب إلى آخر... قدر قوافل شتّى أنواع الطيور عابرة القارات ذهابا وإيابا بحثا عن الدفء والطعام... قدر قطعان الغزال البرّي تركض عبر سهول إفريقيا نحو أنياب التماسيح والمراعي الخصبة والماء الوفير.. قدر ما لا يحصى من كائنات لا تتوقّف عن ركض أو سباحة أو طيران تذرع إلى ما لانهاية ساحة عالم بلا حدود واضحة.

إلاّ أنني وصلت العالم وقد اتّخذ في ظاهرته الآدمية صبغة لم يعهدها طوال تاريخه.

لقد حللت في الوقت الذي تضافرت جهود الآدميين أمواتا وأحياء لتهيئ أكثر من وسيلة تمكّن من الوصول إلى أبعد نقط المكان.

رأيتهم وكان ذلك في بداية عهدهم بهذه الأشياء يركبون كائنات ميكانيكية من المادة البكماء يعبرون بها الماء والهواء بسرعة لم يكن يحلم بها أو يتصوّرها أجدادنا هم الذين كانوا لا يعرفون إلاّ ركوب ظهور بعض الكائنات الحيّة الأسيرة أو في أحسن الحالات خشبة طافية على سطح الماء.

هكذا أصبحت الحركة أكثر كثافة وأتساعا وتناسقا وانفتحت مساحات العالم كما لم تنفتح يوما وهكذا طفقت الأمواج الآدمية تتدافع شمالا جنوبا وشرقا وغربا إلى الفوق وإلى التحت وهكذا أصبح عالمنا معبرا وممرا وساحة تنقل مضطرب لم يشهده طوال تاريخه.

هكذا أمكن للآدميّين أن يركضوا مع كلّ من يركض أن يطيروا مع كلّ من يطير أن يمخروا عباب الماء مع كلّ أصناف الحيتان أن يغوصوا في أعماق البحار وكأنّهم خلقوا أسماكا وكانت سرعة تنقلهم عبر دروب عالمهم ترتفع من جيل إلى آخر لا همّ لهم إلاّ الوصول إلى أبعد مكان ممكن والغوص إلى أعمق ما يمكن والصعود إلى أعلى نقطة في قمّة الموجود.

هكذا لم يحكم عليّ مثل أجدادي أن أعبر مناطقه محمولا على ظهر كائن حزين أسير

من لحم ودم وإنّما طوّفت في أنحاء المعمورة في بطن كائنات قدّت من حديد حملتني إلى هذا المكان القصيّ أوذاك من الأرض وحملتني أخرى نحو أعالي السماء وعبرت بشكل ثالث منها البحار المهولة الإتّساع.

بتصادف خاصّة أنّني أتيت الحياة في زمن فتحت في المكان رغم الحراسة المشدّدة بوابات ودروب ومسالك بعدد أكبر من كلّ زمن مضى.

ورغم أنّ الحدود والتضاريس والأسلاك الشائكة التي كانت تقسم العالم إلى ألف قطعة وقطعة لم تنهر فإنّه تيّسر أكثر من أيّ وقت مضى تبادل أجزاء عالم زاخر غنيّ دون أن يلغي هذا لا بالنسبة للآدمي ولا بالنسبة للحوت والطير والغزال البري أخطارا هي جزء من رسوم دخول الموجود والسياحة فيه.

تواصل طبعا تنقّل الجحافل الضخمة المدجّجة بالسّلاح لمعارك شهد عصري أضخمها وأكثرها سفكا للدّماء لكنّني رأيت البشر في فترة تحسب بعشرات السنين فقط يذرعون عالمهم بالملايين ولا سلاح بين أيديهم.

نعم شاهدت منهم الآلاف المؤلّفة يدخلون سلميّا هذا المكان من الجزء الأقصى من الشمال الشرقي للساحل الإفريقي الذي شاءت الأقدار أن يكون مسقط الرّأس وكان ذلك حدثا جديدا هامّا.

كانوا أحفاد أولئك الرحّالة الغزاة الذين طالما روّعوا هذه الشواطئ وأهليها وكانوا أحفاد أولئك الفلاّحين والصيّادين الذين طالما روّع أجدادي الرحّالة المسلّحون شواطئهم بغزواتهم الخاطفة.

لقد رأيتهم بأمّ عينيّ ينزلون من بواخرهم أو من تلك الطيور المعدنية التي تشبه حوتا مجنّحا لايحملون حرابا أو بنادق وإنّما آلات لا تجرح ولا تقتل يسرقون داخلها صورا من عالمي.. ثم هم كانوا يرحلون بعد مدّة لا يأخذون سوى هذه الأشباح داخل آلاتهم وبعض الذكريات التي دفعوا ثمنها ولم يغتصبوها كالعادة عنوة ليتتابع غيرهم وكانت تلك الظاهرة العجيبة ـ ظاهرة الغزاة الخالين من السلاح ـ إحدى خصائص ومميّزات المكان والزّمان الذين أتيت الموجود فيه وكنت ولا أزال أحمد كاتب كلّ السيناريوهات لأنني وصلت في مثل هذه الظروف التي قد لا تدوم.

تتحرّك قوافل المرتحلين الجدد في كلّ اتّجاه وليس بين أيديهم أيّ أداة للقتل. تستقبلها القبائل المغزوّة دون مقاومة. يتبادل الآدميون العالم. يقايضون جزءا بجزء وكان نزع السّلاح عن الرّحلة هو الشرط الضروري لتبادل أجزاء الموجود.. يكتشف أهل الصحاري روعة بياض الثلج وينعم أهل بياض الثلج بروعة الغروب على هضاب الرمل المتموّج.

هكذا أصبح التواعد واللّقاء في مختلف أصقاع الموجود ذريعة وعادة وضرورة تهبّ إليه

جحافل المرتحلين لسبب أو بدونه وكأنّ لا همّ لها إلاّ ذرع المكان طولا وعرضا.

هكذا اختلط الحابل بالنابل وتشابكت الطرق وامتلأ البرّ والبحر وأعالي السماء بالقوافل المنطلقة بسرعة مجنونة تبحث عن ذاتها عبر بحثها عن مكان تتجلّى فيها هذه الذّات. يتكثّف التّنقل المضطرب طوال الحياة لا هدف له سوى أن يحمل البصر والسّمع والذّوق واللّمس والشمّ إلى ألف مكان ومكان حيث يختبئ ويتكشّف العالم وتدخل مثل كلّ بني سفر الحركة المحمومة تستكشف مجاهل ذاتك عبر استكشاف مجاهله.

كان من الطبيعي أن يحملني الطوفان الطالع والطوفان النازل أن تطوّح بي الحركة الهوجاء في مشارق البسيطة ومغاربها أن تذروني الرّياح العاصفة مع كلّ ما كانت تذرو وأن أجد نفسي قشّة طافية يحملها التيّار إلى مستقرّ غير معروف.

أغمض عينيّ أفتّش داخل الذّاكرة عمّا حفظته من كل ذلك الجري المضطرب في أرجاء عالم أفقت يوما حيّا فيه.

ثمّ إنني مثلت بين يديه طفلا وهو كثبان رمل ناعم أتسلقها ممتطيا مطهّم سعف النخل ألوح بسيفي الخشبي أغزو وراء كلّ أكمة قبيلة شديدة البأس.

ثم أنني وقفت بين يديه خاشعا حاسر الرأس أرمقه من أعلى قمم الجبال وقد غطّاها ثلجا يتلألأ كالفضّة أتأمّل قوافل السحب جاثمة عند سفحها كأنّها تؤدّي فروض الطّاعة طالبة الإذن بمواصلة الطريق وفي تلك الأعالي الشاهقة التي لا تصلها إلاّ بعد أن تتكلّف من العناء أقصاه ترفع اليد وليس بينك وبين القرص الذهبي إلاّ الزرقة اللاّمتناهية وكأنّك تريد أن تلامس وجه اللّه. تبقى اليد معلّقة تداعب الفراغ.

ثم أنني توغلت في تلك الصحاري البيضاء التي تغطّي أقاصي شمال البسيطة أبحث عن الهنود الحمر الذين غذّت قصص بطولاتهم ومآسيهم طفولتي فلم أجد على حافة بحيرة جليدية كندية أبطالا وإنّما أشلاء وبقايا لإنسانية دمّرها الآدميون أنفسهم.

ومما أذكره أيضا أن الصدفة قادت خطاي إلى تلك الغابات الاستوائية حيث يتصبّب الكلّ عرقا تحت سماء حزينة بلون الرماد وأن غابات «سومترا» كانت تلك ألسنة تحترق وأنّ دخانها كان يخنق أنفاس سكّان «كوالالمبور».

ثم أنني وجدت طريقي إلى جزيرة سحرية وفي حديقة «بامبلمبوس» حيث يعجز المرء عن إحصاء كلّ أنواع شجرة جوز الهند قال لي مرافقي ضاحكا: لمّا أراد اللّه خلق الجنّة نظر إلى «موريس» ثم سرق كلّ الأفكار.

ثمّ أنني رأيت مدنا من القصدير حيث تتكدّس إنسانية انتهت بها الرّحلة إلى أنفاق مسدودة وفي «بومباي» و«نيويورك» و«دلهي» و«نايروبي» رأيت جماهير الآدميّين رمى بهم طوفان الحياة على قارعة الطريق معلما من معالم القبح والفظاعة ثمّ إنّني رأيت أيضا مدنا

جميلة ورأيت أجملها على الإطلاق ويسمّونها مراكش وكم تأملتها مسحورا وجدرانها الحمر تختبيء بين باقات نخيل ترفع بكبرياء هاماتها في وجه جبال شاهقة مكلّلة ببياض الثلج أيام الربيع. ثمّ أنني وجدت نفسي في سهل من سهول «كينيا» أملأ الحواس من روائح إفريقيا ومذاق إفريقيا وألوان إفريقيا وفي لحظة عابرة كلمح البصر خلت أنني دخلت عالما آخر عالما بلا آدميين.

وهناك في مكان قصيّ من اللّوحة رأيت السهول الصهباء تمتد إلى الأفق يملؤها الإتّساع الفارغ وأرهبتني قطعان الثيران الوحشية وهي متلاحمة متراصفة تنذر أن لا تقترب أيها الآدمي. وفي تلك الفضاءات العذراء رأيت زرافتين تتبادلان الغزل ورأيت غزلانا تثب برشاقة راقصات البالية ورأيت حيوانات سوداء لزجة ضخمة لم ينجح آدمي في امتطاء ظهرها وإلباسها سرجا ولجاما وتحويل وجهتها ليتحدّى بها تلك الأسود الكسولة الرابضة تحت ظلال أشجار عجفاء.

نعم لقد رأيت يومها صورة الموجود قبل أن ينتشر فيه الآدميون كما تنتشر خلايا السرطان وكنت أوّل إنسان يتأمّله وهو لا زال رضيعا يحبو أو كنت أوّل رضيع مشدوه يتلقفه عالم عجوز بخاتل ويتدلّع وكان مجرّد وهم و«نايروبي» من وراء الظّهر تطلّ بعماراتها على أسراب الغزلان والأسود وكلّ الكائنات الأخرى التي تموت وتحي في ظلّ أسر لا تدرك له كنها أو حارسا.

وفي مكان آخر من أعلى قمّة هضبة تواعدت فيها كلّ رياح البحار رأيت الأمواج تضرب بصخب عنيف تلك الشواطئ التي كان البحّارة يسمّونها لسبب أجهله «رأس الرجاء الصالح» وهناك شاهدت تلاقي محيطين عملاقين وخيّل لي إنّهما يتصارعان ويتدافعان كلّ لمدّ نفوذه ليحيط وحده بقارتي المنكوبة بالحرب والمرض والفقر والجهل.

ثمّ إنني وقفت على أحجار سور الصين الأعظم أتأمّل هذه المبالغة المعمارية وكانت محاولة مجنونة لتسييج الفضاء ووقف موجات الزمن على أعتابه ولم تكن أوّل ولا آخر محاولة.

ثم إنني تبعت جحافل الحجّاج إلى «بنارس» ورأيت الآدميين يتدافعون نحو الماء وزكمت أنفي روائح الأجساد والنار تلتهمها قبل أن ترمى بقاياها في النّهر المقدّس ولم يكن آنذاك بوسعي أن افهم أن المطلوب ليس الفهم وإنّما تذوّق اللّوحة الفنّية وكانت في منتهى الروعة.

ثمّ إنني شعرت رغم حلّ وترحال لايفتر إنني وصلت الموجود متأخّرا بعد أن استوفت الرّحلة ـ المغامرة كل مجاهل الفضاء الخطرة.. بعد أن أصبحت الرّحلة ـ الحجّ زيارة سياحية للأماكن المقدسة.

هكذا تعلّمت ان أسافر على طريقة الأرستقراطيين البريطانيين في القرن الثامن عشر وهم يشدّون الرّحال إلى الوجهة الإجبارية في ذلك العصر لبني طبقتهم: بلد دانت وميكالنج.

وفي مثل هذه السّفرة ليس الهدف ولوج مجاهل العالم وتحدّي أسراره ومخاطره أو الغوص في غموضه والضياع في اتّساعه وعمقه وإنّما التوقف أمام تمظهراته السّحريّة كما يتوقّف زائر مثقّف ذوّاقة أمام أجمل اللّوحات.

لا يبقى على المسافر إلاّ أن يتأمّل أن يكحّل عينيه أن يتلمّظ بكلّ حواسه اللّحظة والتجلّي. تصبح الرّحلة استعراض لوحة البحر الهائج ولوحة الجبال المكلّلة بالبياض ولوحة العاصفة ولوحة الطفل ولوحة المرأة ولوحة الحبّ ولوحة الموت ولوحة الفنّان وهو ينظر إلى اللّوحة.

وهكذا رأيت العالم متحفا حيّا يعبره أحفاد المغامرين يتتابعون على أماكن جعلوا منها معالم إجبارية لكل من يريد أن يدلي بدلوه في حلقة السمر.

يصاب الجسم بالكلل من غزارة الأماكن وتباعدها. تدرك مهما طال بك الطّريق انّك لا تنال من العالم إلاّ أقلّه.

تصاب الروح دوريّا بنوع من الفتور من البلادة لكثرة ما تواجه من الروائع والمعجزات وهي تألف حتّى المألوف وتتعب فيها حاسّة التعجّب.

ومع ذلك! يا ما ترى ممّا يعجز عن وصفه كلّ كلام حتّى وأنت قابع في مكانك لا تغادره لأنّه عالم يعرض روعته من أين تأتيه وتنظر إليه.

* * *

تحضرني الذّكريات كما يقال أنّها تتسارع كلّها والمرء على وشك إطلاق آخر نفس.

ها أنا أناجي نفسي ما دامت لي نفس أناجيها أستعرض حصيلة هرج السنين. أتصوّر ملامح التقريرالذي يمكن أن يطالبني به أحد أو أطالب به نفسي عن «المهمّة» عن «الجولة التفقّدية» عن «المغامرة» عن «الغزوة» عن «الحجة» وبقيّة الصّور والتّشابيه اتركها لمخيّلتك.

نعم لقد زرت ذلك المكان من الكون وعلى سطحه رأيت من الخوارق والمعجزات ما لا قبل لأحد بوصفه.

لقد رأيت قرصا من نور يثب فجأة من أعماق الماء ومن وراء التلال. رأيته يتسلّق سقف السماء ولا من يحرّكه.. يتصدّر كبده ساطعا براقا ولا شيء أو أحد يحمل ثقله. رأيته يعود للبحر يختفي في مياهه وقد خضّب ما حواليه بحمرة داكنة ورأيته يعود يوما بعد يوم ويختفي يوما بعد يوم والجهل بالسبب قائم أبدا. رأيت السواد يتسلّل ويمحو ألوان عالم مزركش كالطاووس أيام الغزل. رأيته يلفّ الكائنات بردائه الفضفاض تتلحّف به تختفي

في ثناياه كأنها لم تكن ولم توجد. رأيت ثقوبا من نور مترامية البعد ترصّع هذا الرداء الداكن. رأيت السواد كموج الماء بين مدّ وجزر وذهاب وإياب لاينتهي.

ورأيت الماء... ذلك المداد الذي كتبت به كلّ الكائنات. رأيته سهولا مترامية الأطراف يحدّها من هنا عناقها للأرض ومن هناك عناقها للسّماء. رأيته أشكالا وألوانا. رأيته ينهمر مدرارا من فوق. رأيته يتساقط برقّة متناهية قطنا سماويا. رأيته ضبابا كثيفا نقابا وضعه العالم على وجهه. رأيته أمواجا متلاطمة. رأيته مرآة صافية. رأيته جدولا رقراقا يشقّ له طريقا في قلب الصخر وفي قلب تلال الرمل وفي خضمّ الخضرة الخانقة ورأيته هادئا لطيفا طالما طربت لخريره. رأيته ساخطا غاضبا مدمّرا ينقضّ على الصخور الصامتة الصامدة يحمل الموت للكائنات مدادا يمحو مدادا.

لقد رأيت أيضا قنديلا مكوّرا يخرج من اللاّشيء ليضيء الأرض وقد هجرها القرص الذهبي إلى مضجعه المجهول.

نعم رأيت بدر الدجى يغسل أشعّته في سهول البحر المترامية الأطراف. رأيت هذه الأخيرة تبتلع القرص الذهبي ورأيت بعضا من أغرب أشكال الحياة تختبئ في براريها رأيت الماء ذكرا يعانق الأنثى يلج رحم الأرض ليخصبها.. ليولدها جميع الكائنات.

رأيت الأرض التي تحمل كل الأثقال صابرة صامتة صامدة لا تنوء بحمل الجبال الشاهقة تحمل أجسام الأحياء توسّع لهم صدرها بصبر الأم يطؤونها ويتوسّدونها ويفترشونها ويحرثونها ويهشّمونها ويدخلون أحشاءها فلا تشكو ولا تتأفّف.

رأيتها غادة لعوبا تلبس أحلى الفساتين وككلّ غادة رأيتها لا تثبت على شكل أو لون. لكم كنت أستنشق بلذّة ما بعدها لذّة روائحها وهي بين الأبيض الناصع أيام عرسها مع الثلج وصفرة الذهب أو شتّى أنواع الأخضر توشّحه بقع من كل ألوان الزهور. رأيتها أيضا غاضبة تلفظ حممها وكأنّ صبرها نفذ وبدت لي آنذاك جبّارة أصابها الصرع تلفظ الشياطين التي فوقها وداخلها.

لكم رأيت على ظهرها من كائنات وهي تتابع تستكشف مجاهل الدّنيا وأخطارها تجاهد من أجل البقاء..

نعم لقد رأيت من أشكالها وأنماطها وألوانها ما يعجّز كلّ لغة ويخرس كلّ لسان وأتضح لي أمام كلّ هذه الوفرة والطفرة والكثرة أمام السيل العرمرم والطوفان استعصاء الواقع على الكلام.

رأيتها تملؤها الحركة ورأيتها هامدة لا تتحرك.

رأيت منها من يطير في السماء ومن يغوص في أعماق الماء من يمشي على طرفين ومن يزحف على بطنه وتعلّمت أن أكثرها لا تراه العين ولا تدركه حاسّة آدميّة.

رأيت كائنات تتكلم أو تصدر أصواتا كالحفيف والرنين والزعيق والهرير وأخرى لا قبل لي بوصف ما تحدثه من أصوات. رأيت من الكائنات ما يبقى شاخصا إلى السماء لا يتحرّك قيد أنملة لا يردّ على تحية أو سلام إلا إذا داعبته الريح فإذا به يصدر همسا رقيقا. رأيت كائنات قدّت من كل حالات المادة واتخذت لها كلّ الأشكال. رأيتها تتجاور وتتدافع وتتزاحم وتتقاتل وتتآلف ورأيت تتابعها على المسرح الأزلي أفواجا تتلاطم على شاطئ الحياة تلاطم الأمواج على شاطئ صخري... لتتبخّر هي الأخرى وكأنها لم تلد ولم تولد. أمّا عن مجاهل وروائع وأخطار الكائنات التي لاتترك ركنا في هذا العالم إلاّ واستملكته فحدّث ولا تسل.

نعم ورأيت الأرض رحما تخرج منه الكائنات تتدافع إلى النور من مغارة سحرية.... ضرعا حلوبا يقتات من حليبها المتدفّق كل الأحياء. رأيتها مقبرة تنغلق على أولادها تقضم لحمهم... تمتصّ دمهم.. ترحي عظامهم.. تسترجع باليمنى ما منحته باليسرى تعيد عجن الكائنات وتشكيلها.. تخلق الحياة من الموت والموت من الحياة.

لكم رأيت من بني جنسي ولكم عايشت معهم من المآسي والمهازل امثّل دورا في إحدى ملايين المسرحيات التي تتابع منذ القديم على ركح عالم مكتظّ ملآن بالممثّلين والمسرحيّات والنظّارة.

لكم كانت هذه الحياة رحلة رائعة ورهيبة.

* * *

ومن ترتّبات قبولك بان احسن صورة ممكنة للحياة هي الرّحلة أن تأتيك يوما فكرة التدوين خاصّة إذا كنت مثلي من هواة أدب الرّحلات وممّن قضوا أمتع الأوقات يقرؤون لـ «إبن بطوطة» و«إبن جبير» و«القلصادي» و«ماركوبولو».

ها أنا أحلم سنوات عديدة بكتاب لايكون سردا لوقائع وأحداث لا تعني إلا سواي أو حفنة من النّاس، سيرة ذاتية تضاف إلى أطنان الورق التي حبّرت في مثل هذا الموضوع وإنّما رواية لرحلتي في الموجود أضمّنه كيف نصل وفي أيّ ظروف ندخله ونخرج منه وأملأه وصفا للمكان وللزمان للكائنات التي عرفتها أو سمعت عنها للآدميّين وأخبارهم وقصصهم ومنجزاتهم وأوهامهم وجرائمهم وأحلامهم الخ....

تستهويني الفكرة واقرّر نسيانها باعتبارها غير قابلة للتّحقيق.

فجأة يتصاعد لأسباب طارئة وبصفة مفجعة خطورة عالم متقلّب. يحتدّ الشّعور باقتراب الآجال المحتومة. يصبح كلّ يوم أشهد بروز شمسه وغروبها نعمة أشعر بها.

يتجدّد في آنذاك كالكثيرين من قبلي طموح الانتصار على الفناء بالحرف وأبدأ أمني

التّفس بكتابات تترك للأجيال الصّاعدة فيها نظريّات ثاقبة الرّؤية حول السّبل النّهائية لإصلاح الإنسان والمجتمع وأشياء من هذا القبيل.

أدير وجهي في اتجاه آخر فأنا لا أكتب الوصايا ثمّ أنني تعلّمت انّه لاأخطر على العالم ممّن يرومون إصلاحه.

تعود الفكرة القديمة إلى السّطح ويتواصل الأخذ والردّ داخل الذّات أغالب تردّدا يفرضه ضخامة المشروع وغموض كيفيّة تجسيده.

حقا إنه عالم مخيف في تعقيده وغموضه. لكن أليس هذا هو السّبب الذي يضطرّنا لأن نتبادل أجيالا بعد أجيال كلّ ما نعرف عنه.

أليس كلّ زائر جديد بحاجة إلى دليل أليس كلّ مرتحل بحاجة إلى خارطة أليس كلّ حاجّ بحاجة إلى قصص من سبقوه من الحجّاج ليتبصّر ويتروّى.

لِمَ لا أترك أنا أيضا لمن سيأتي بعدي من الأشباح خرائط وعلامات وأدلّة... كي لا تضلّ الطريق... كي لا تدخل الأنفاق... كي لا تمرّ مرّ الكرام أمام منظر يمكن أن يمتّعها.

ألم أتعلّم الكثير والهامّ ممّن حدّثوني عن الاستراحات عن أحسنها وأرخصها ثمنا عن أجمل المناظر التي تعترض الطريق وعن أبشعها عن اللّصوص وقطّاع الرقاب عن الخرائط الفاسدة عن الآلات المعطبة عن الآليات العاجزة عن الطرق التي قطعتها فجأة الأمطار الطوفانية عن العفاريت والأشباح التي تملأ الجوّ عن المناطق المجهولة والطرق الفرعية عن الوصفات التي يتناقلها البعض في الاستراحات الطويلة عن الروايات والإشاعات التي تنطلق هنا وهناك حول أسرار الموجود وغرائبه عن الهدف الذي يسير إليه الكلّ عن أجمل ربوة وأفسح سهل وأعلى هضبة وأكبر محيط عن الرّمال المتحرّكة وخاصّة عن الطّرق الأكثر أمنا والأقلّ مشقّة..

ألم أجد بين يدي العديد الكثير من الخرائط والأدلّة والعلامات المرسومة فكان طريقي المتخبّط في طول وعرض بفضلها أقلّ اضطرابا ألم أجد في ما خطّه لي كبار الرحّالة والمسافرين من تقنيات الملاّحة ما أبعد عنّي ألف خطر وخطر ووفّر عليّ ألف مشقّة ومشقّة أليس مطلوبا من كلّ واحد منّا أن يحسّن من الخرائط والأدلّة وفاءا بدين متخلّد بذمّته.

ها أنا أخطّط وأحلم بأن تجد أنت وكلّ الآخرين في روايتي إشارات وعلامات تسهّل عليك شيئا من الطّريق الصّعب الطّويل رائدي ومحرّكي طّموح لا ينطفئ له لهب هاجسه الأوحد أن تذكر رحلتي بعد أن أكون عبرت الجسر.

يداهمني الإحباط وأنا لم أبدأ بعد رواية أولى البدايات.

ماذا تراني سأضيف من هامّ أو جديد إلى كلّ القيل والقال وإلى أيّ مدى قد أزيد في فوضى لا حدود لها.

ها أنا أبحث عن الحجج والأعذار والقرار أخذ في صمت الأعماق المبهمة لأسباب غير التي كنت بصدد التشبّث بها.

تتسلّل يبطء شديد إلى الوعي فكرة تنتصر على تردّد عجز الطّموح المجرّد عن تطويقه.

وقد تكون مثلي أترعت ألما ونلت حظّك من الأوجاع وشبعت خصاما ونضالا وقد تكون مثلي غارقا إلى الأذنين في مشاكل الحياة أتفهها كأعظمها خطرا وقد تكون مثلي قد نسيت أن أهمّ الأشياء أبسطها وأن أغربها أوضحها وقد تكون شعرت والعمر يتقاضى بسرعة مذهلة أن عليك أن تتوقّف... أن تسترجع الأنفاس. أن تستجمع أشلاء ذاتك.. أن تنتبه إلى ما لم تعد تعطيه اهتمامك.. أن حواليك روائع مذهلة نسمّيها الشّمس والبحر والقمر أن الكائنات ليست ما تظنّ وما تتوهّم وانّك لم تأخذ وقتا كافيا لتنظر إليها وقد رفعت عن عينيك غشاء الاستعمال والمنفعة.

يتّضح لي يوما انّه إن كان لا بدّ من تّدوين «الرّحلة» فليكن لضرورة التقاط الأنفاس لوقفة تأمّل لاستعادة التعجّب لتذكّرالأهم للتباعد والتطهّر لمرحلة هامّة من الرّحلة قد تكون ذروتها.

تنطلق المغامرة لا ادري لها مصيرا تحرّكني كما تحرّكك قوى مبهمة.

ها أنا أطلق العنان للقلم أكتب لي ولك أدوّن رحلة رحال واحد.. عامّة في خصوصيتها خاصّة في عموميتها محكوم عليها أن تغرف من واقعي ومن خيالي أن تعكس ما أعرف وما أجهل أن تكون بالضرورة رؤيا وتصور طموحها أن تروي سيرة ذات وسيرة كلّ ذات.

* * *

الجزء الأوّل

طول اعدادهم لمتطلبات الرحلة بروزهم من الضباب وارتطامهم بالعالم.

١ ـ وبخصوص البداية الغامضة وصمت الذاكرة المطبق عن ظروف وأسباب انطلاق الرحلة وفي ضرورة الاستجاد بالمشاهدة والخيال لتصوّر الأحداث الأولى قال الراوي:

لكلّ رحلة بداية واضحة ونهاية واضحة وبطل محدّد الاسم والملامح لكنّ دخولك الموجود كخروجك منه بروز شبح من الضباب واختفاء فيه.

يتضافر فضول كلّ الآدميين الّذين تبخّروا موجة بعد موجة كالذين يسعون على الأرض لحلّ الأحاجي والألغاز ومنها قصّة الوصول إلاّ أنك لن تجد في ما يروى إلاّ الكثير من التفاصيل المتضاربة ولا شيء هام أو أكيد.

تتوحّد قوانا لكسر حاجز النسيان. عبثا. لقد محيت من الذاكرة كل إشارة إلى حالة متقدّمة ورحلة سابقة ومن ثمّة كثرة القيل والقال وتناقض الروايات.

تصل وكفى.

تدخل الموجود من أضيق باب ثم يمشي بك الطريق. تصل يوما بابا كتب عليه: خروج. تقطع المساحة الفاصلة ما بين النقطتين تحفّ بك الخوارق والمعجزات.

تحاول نبش أعماق الذاكرة تريد الشيء ونقيضه. تجهد نفسك بلا جدوى. تبقى الذاكرة صامتة خالية من كل أثر عن اللحظات الأولى وإن جادت فببعض الضباب.

لا بدّ لسدّ فراغ لا يطاق من قصّه وروايته للأحداث كالتّالي.

لا تدخل عالمنا هذا إلاّ بكرا أكنت وليد اللّحظة أم وليد الدّهر.

لا شكّ أن هناك ضرورة لكي تدخل خالي الوفاض وخالي الذاكرة أن تصل العالم كتابا لم يخطّ فيه حرف شريطا لم تسجل عليه نغمة أرضا بكرا لم تطأها قدم مرآة لامعة مصقولة لم ينعكس عليها أوّل شعاع.

أنت لا تدخله محمّلا بآلام قديمة وثارات مستميتة وعادات مستحكمة. أنت لا تدخله بأفكار وأحكام وظنون وشبهات واحترازات ومواقف وأشياء أخرى لا تهمّ إلاّ ما قبله أو خارجه.

أنت لا تأتيه بما ليس منه وليس فيه فالجمارك لا تسمح لك ولو على سبيل الاحتفاظ ببعض الذكريات البريئة بتهريب بصيص من فكرة وذرّة من رأي أو قبس من شعور لعالم آخر ولدور آخر قد تكون لعبته من قبل الوصول على خشبات هذا المسرح.

يجب أن لا تختلط الأشياء ويجب أن يكون الحدّ فاصلا والحاجز غير قابل للتخطي.

نعم يجب أن تكون جديدا كأوّل مطر بعد الجفاف كالسيف لتوّه من النار جديدا كأوّل حبّ.

تنتشل قوى النّسيان من ذاكرتك ظروف الوصول نفسها لمزيد الحيطة والتحفّظ والحذر.

تتكوّن لديك فكرة مبهمة بالتجربة والملاحظة عمّا محاه بكل عناية صاحب وكالة الأسفار المخفي.

تبقى تحاول دوما استعادة شيء من الذاكرة المحرّمة وهذا أمر لا مفرّ منه لأن الحنين إلى الأصول فيك غريزي وقد تكتفي بأقوال المقرّبين وقد تركب جناح الخيال وقد تقبل أن هناك حكمة في غموض الوصول فلا تبحث عن هتك الأسرار وقد تحملك يوما قدماك إلى الوقوف بباب المحطة لكي ترى بعينيك كيف وصلت كيف يصل كلّ الحجاج.

تفهم مبكّرا أنّك واحد يتولّد من الاثنين وأنك جئت محمولا داخل أحشاء كائن وأن السفينة التي نقلتك من شاطئ العدم إلى هذا الموجود قدّت من لحم ودم.

يأتي بك آدميان يفتحان لك عالما ويغلقان أمامك ألف ألف عالم.

قد تتساءل يوما هل اخترتهما أم هل اختاروك أم هل كان الخيار بيد إله إسمه «القدر» أو عدوّه ونقيضه ذلك المسمّى في بعض القصص التي سمعتها «الصّدفة».

يداهمك في يوم من الأيّام شعور مرهف شفّاف لا تدري له اسما أو نعتا أنّك قد دعيت إلى هذا الموجود برغم أنف عدد هائل من الإستحالات فكم يجب من معجزة ليتلاقى الحالمان ويتّحد حلمهما.

تتشابه قصّة كل رحلة في ثبات التشابه في الأصل وفي ثبات التباين في التفاصيل..

أصاب بالدوران وأنا أحاول تصوّر العدد المهول للصّدف أو للأقدار التي كانت وراء مجيئك ومجيئي.

قالت ورأسي في حجرها طفلا مرهقا يسأل دون كلل ولا ينتظر الردّ:

- كان غريبا وأذكر أن الشيخ ذهب ليفتّش عن طالب ليكون مؤدّبا لأطفال القرية وتطوّع هو لا أدري لماذا. هكذا شاءت الأقدار.

وكانت تتحرك داخل قصّة لا يكون فيها إلاّ ما أراده ممثّل رئيس اسمه «الله» سطّر لكّل قدره.

كانت الأمور في قصّتها مبرمجة منذ البداية ولكم كان عالم الاسم - أمي بسيطا مرتّبا.

لم يفعل شيخ القرية إذن إلاّ أن يتحرّك في الإبان، أن يتّخذ طريقا مرسوما منذ الأزل أن يتوجّه لذلك الطالب البدوي النازح من قريته الصحراوية هو دون غيره.

كان مكتوبا في سجّل القصّة الأزلية أن تزوّج القرية هذه البنت بالذّات لذلك الرجل بالذّات لكي أدخل وأسافر وأكون تجربة المجرّب الذي لا تستنفذه تجربة ولحظة من لحظات تجلّيه. تعطي القصّة الأخرى سيناريو أكثر إثارة وتشويقا والقاعدة في هذا الموجود انّك لا تجد شيئا أو رأيا إلاّ ووجدت نقيضه.

أي سلسلة من الصدف جعلت ذلك الذي يلدني يولد وبأيّ ضربة حظّ نجا أجداده تباعا من هول الصحراء من وقع الحسام من امتداد المكان من ألف خطر وخطر.

ما الذي كان يحدث لو واصلت القبائل الغازية الآتية من الشرق طريقها إلى الغرب أو لو بقيت في ما وراء حدود اليوم

لقد كان ظهور كلّ حلقة من السلسلة وبقاؤها على قيد الحياة وتواصلها عبر تلك السلسلة بالذّات أمرا احتماله أقلّ من القليل ومع ذلك وقع اللاّ محتمل وحصل اللاّمتوقع.

تحملني المخيلة إلى كلّ تلك الاحتمالات التي كان بإمكانها أن تقع ولم تقع.... أن فرسان سليم الذين سبّهم الأخطل هاجروا نحو فارس وليس نحو إفريقيا... أنّ الخليفة الفاطمي لم يطردهم مع بني عمومتهم من الهلاليين... إنّهم خسروا معركة واحدة مع الأمازيغ. تتطاير حبة الرمل هنا وهناك حسب أهواء الرّيح آتية من عمق الصحراء قدرها كلّ لحظة أن تضلّ الطريق أن تسقط أن تترسّب أن تتراجع القهقرى.

تصل مع ذلك إلى المرفأ بصفة تتحدّى منطق كل علم الإحصائيات.

أحاول أن أتصوّر بمخيّلتي القاصرة سلسة الحوادث التي جاءت بالاسم - أمّي إلى هذا المكان الذي لحقه فيها الاسم - والدي.

ما الذي كان يحدث لو انتصرت قرطاج على روما.

لماذا هذا المكان بالضبط وليس القرية المجاورة وبأي قدرة قدير لم تمت تلك الجدّة أو ذلك الجدّ الذي جاءوا به عبدا عبر الصحراء وما الذي كان يحدث لو لم يقتنصه أو يقتنصها النخّاسون لتمزج دمها أو دمه بدم العرب والأمازيغ ترى أيّ اتجاه كانت الموجة العاتية تتّخذه لو أتت المجاعة ذلك العام الذي سمّي عام القنطرة على إحدى حلقات السلسلة..... لو لم يؤدّ الطاعون الذاهب الراجع طوال قرون بجزء كامل منها لو.. لو لو...

تتعطّل أدوات الخيال والتفكير وأنا أفتح مجالات لو.. إلى الأعلى فالأعلى إلى قدوم بني آدم إلى هذه الربوع إلى خروج القرد الأوّل من الغابة إلى تفرّع الشجرة الحاملة

للأجناس.. إلى الطريق الذي كانت تتّخذه الأمور لو لم تضرب تلك الحجرة الضخمة الأرض منذ ستين مليون سنة فتقضي على جنس الديناصور إلى تردّد الخلية الأوّل وهي تجاهد لكي تلتئم وتتماسك وتكون شيئا قائم الذّات.

جاء شيخ القرية ذلك اليوم إذا بحثا عن مؤدّب لأطفال فقراء الفلاّحين. هو وصل في الإبّان وكان يمكن أن يضيّع الطريق. هو اختار ذلك الذي سيكون الاسم ـ والدي وكان بإمكانه أن يختار شابّا آخر.

ترى هل تردّد لحظة هل أرهبته أم أعجبته تلك الجرأة التي كانت تطبع حركات وسكنات الطّالب الطموح هل شدّه ذلك الذكاء الوقّاد الذي كان يستهوي حتى ألدّ أعدائه أم هل لأنّه كان جميلا.

أعدّد كلّ الظروف التي تضافرت لكي يكون موجودا ذلك اليوم. هو لم يكن في مظاهرة أو قابعا في زنزانة رطبة لم يكن يبحث عن آخر مهرّب للسلاح ولم يكن مريضا ولم يكن يتآمر ولم يكن يحلم ويخطّط ولم يكن على الطريق بين المدينة وبين الصحراء التي لم يكن يطيق البقاء بعيدا عنها طويلا.

هكذا جئت وجئنا هكذا هو يجيء بنا وعبرنا نحن شوارد أفكاره يتبلور داخل ما لا يحصى من ضروب الاستحالات.

لقد كان الرّجل القنطرة ذلك اليوم موجودا بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفاته وكان موجودا على طريق الشيخ. ها قد تغلّب على تردّده. أرتجف فرقا وأنا أتابع لقاء الرجلين من وراء أستار المستقبل لأن ذلك الذي سيحملني إلى الوجود بصدد التردّد أم أتراني أتوهّم... يخيّل لي لحظة أنه يتساءل ما الذي يجعلني أذهب إلى تلك القرية الغارقة في الوحل شتاءا مستسلمة صيفا للغبار ولأنني أعرفه مليّا فإنني أراه يغالب تلك العنجهية البدوية الغريزية وذلك الاحتقار التاريخي لأهله لكلّ الماشين وراء أذناب البقر.

يحتدم بيننا النقاش وكان بالنسبة إليّ وإليه كالعادة اختبار قوّة.

ـ ماذا ـ أنا الذي......

ـ نعم أنت أيها الطالب النازح الفقير الذي لا تملك ما تسدّ به الرمق.

ـ أنا الذي أشرّف الاسم الذي أحمله.. أنا الذي...

ـ أنت الذي لم يقرأ لك إلى الآن أعمى أدبا أنت الذي لم تختصم الخلق ولم تسهّر حول قوافيه القبائل. اذهب يا رجل.

ـ أنا الذي عقرت أمّي بعد ولادتي لأنّه لم يكن من اللاّئق أن يتخبّط غيري في رحمها أذهب إلى ذلك المنفى.

كان كبرياؤه كجماله... كجرأته خارجا عن المألوف كان لا يرى نفسه إلاّ حاكما للبلد بالسيف والقلم.

ـ نعم... خذ بيد الشيخ واتبعه حتّى تأكل اليوم وربّما غدا.

كأنّني به لا زال يتردّد. إنّه ما زال واقفا عند آخر مفترقات الطرق ويا ما أكثرها منذ تلك اللحظة التي خرج منها الشيخ ليبحث عن ضالّته المنشودة.

يدفعه أخيرا الجوع واليأس وأمرّ على كلّ الطرقات المتقاطعة وكلّ مفترقات الطرق التي كان بالإمكان أن تجذبه في اتّجاه ينهي عالمي قبل أن يبدأ... إنّه الآن وجها لوجه مع تلك المرأة التي سأسميّها أمي والتي ستحملني من الغيبوبة إلى اليقظة داخل أحشائها كما يحمل الصاروخ مسافرا عابرا للمجرّات والأزمان.

لا زال كعادته متردّدا. لا زالت مفترقات الطريق تتابع بصورة مفزعة والنتيجة ما زالت في غياهب كلّ الاحتمالات ولا زال الممكن غير ممكن ولا زال اللاّممكن ممكنا.

أيرضى بفلاّحة مطلّقة تحمل على كاهلها ابنا بأربع سنوات لا تقول الشعر ولا تحفظه هو الذي لم يرَ نفسه إلاّ قرين ابنة عمّ عربية قحّة تخدمها سبايا بنات الزنج وبنات الصقالبة هو الذي لا يرى نفسه إلاّ غازيا عربيا جديدا لمملكة قراصنة التّرك الذين استملكوا البلد في غفلة منه هو الذي عاب على زنّوبيا أنّها أتت الموجود قبله هو الذي رثى لشجرة الدرّ لأنّها لم تعرفه بعلا وسخط على الخنساء لأنّها لو عرفته لقالت فيه وحده الشعر وليس في ذلك المدعّو صخر.

وهي.. هل تردّدت ولكن من أين لها أن تتردّد أمام شاب بمثل هذه الوسامة وهذه القوّة التي كانت تنضح بها كلّ حركاته وفي هذه اللّحظة وأنا أراقب المشهد من وراء ستار الزمان أراني في تقاطع طريق رئيسي ولا أفهم من أين ينتابني هذا القلــق وأنا أعلم أنّني لولم أدخل الموجود لما كانت تنتابني مثل هذه الهواجس والمخاوف المضحكة. أبقى أتخبّط داخل قصّة أكتبها لنفسي بين هزل وجدّ. ألا يكفي أن يتفوّه بكلمة ما أن تقوم هي بحركة ما أن يبرز شيطان ما أحاربه ويحاربني على امتداد الزمان متسلّلا من بين ثقوب ألف عالم وعالم ليسرّ في أذنه بفكرة ويسرّ في أذنها بنفسها فيحمله طريق الحياة في اتجاه ويحملها هي في اتجاه معاكس.

تفشل خطّة الشيطان إذ أرى تردّده قد زال ولا أريد أن يكون ذلك لأنّه ملّ الجوع والوحدة ولا أريد أن يكون تردّدها قد زال لأنّها أرادت أن تملأ به فراغا لا يطاق.

كلاّ إنه اتّخذ الطريق الذي أريد لأنّ ابتسامتها الوديعة أذابت فيه كلّ غلظة البدو وشدّتهم.

أتراه اكتشف وراء العينين السوداوين ذكاء حادّا أعجبه. كأنّني بالتردّد يعاوده لحظة. إنّه من قوم لا يبحثون عن الذّكاء عند النّساء أم هل تراءت له بعض من تلك المعارك التي كان

يعود منها يجرّ أذيال الفشل والسلاح الوحيد بينهما الكلمة.

كان اصطدام الذكاء بالذكاء وكان يولّد شرارا أوجعني وبهرني أكثر من مرّة وكم من مرّة تلاطمت بينهما الكلمات كما تتكسّر النصال على النصال.

ها قد رفعت أخيرا كلّ الحواجز ليرجع الشيطان مدحورا ليتلاقى الاثنان ليكون الواحد ولا يبقى عليّ إلاّ أن أسير بنفسي على الطّريق أن أقف أمام ألف مفترق ولا من علامة أو سهم يشير إلى الطريق الصحيح فلا أتردّد ولا أخطئ الخيار.

أدخلت كفكرة تبلورت في ذهن الكاتب في آخر لحظة ووجدت طريقها إلى التّجسّد احتمالا من بين ألف ألف احتمال أم دخلت بعد أن وقفت في الطّابور مخلوقا من الأزل تنتظر أن يفتح لك باب مكان واحد وزمان واحد لتمثّل دورا محدّد التفاصيل.

تقرأ الاسم - أمّي قصّة الأحداث فلا ترى ربحا خياليا لمقامرة مجنونة وإنّما يدا تدفع وتحرّك في اتّجاه واحد ولامردّ لإرادتها.

قد لا تكون مثلي من عشّاق هذه القصّة فأنا لا أحبّ هذا الموجود من الدمى المتحرّكة وأفضّل أن أولد من تسلسل شبه استحالات داخل ما لا يحصى من المعجزات على أن ينادى عليّ فأخرج من كشف كدليل الهاتف.

تصل وأصل إذا عبر قصّتين مختلفتين والاختلاف في الموقع الذي يتّخذه الرّاوي لينظر إلى تدفّق الأحداث التي تكوّن تفاصيل كلّ القصص.

كانت تلك المسافرة التي سميتها أمّي تنظر إلى شلاّل الزمان من تحت وكنت ولا أزال أحبّ أن أنظر إليه من فوق.

أتصوّرها تناجي نفسها يوما تهدئ من روعها وأنا أمام مفترق طريق خطير آخر:

كان بإمكانه أن لا يصل بتاتا لكنّ ذلك لم يحصل. كان بإمكانه أن يولد مشوّها لكن ذلك لم يحصل. كان بإمكان الموت أن يحمله بتلك الحصبة اللّعينة لكن ذلك لم يحصل كان بإمكان الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصّيف المشئوم لكن ذلك لم يحصل.

لا غرابة أن تعتقد أن هناك قوّة قاهرة فرضت على قطرة الماء النّازلة من أعلى شلاّل الزّمان اتجاها مرسوما أوصلها إلى شفتيها بالرّغم من تقاطع ألف طريق مع ألف طريق وأنّ مابقي لي من طريق مرسوم مسطّر منذ البداية هو الآخر.

ها أنا على العكس أنظر إلي القطرة من فوق الشلاّل أتابع تدحرجها المضطرب من الأعلى إلى التّحت. إنّها قادرة في كلّ لحظة على أن تتوجّه يمينا وشمالا على أن تتطاير بخارا على أن تتجمّد قطعة ثلج على أن تدخل أعماق الشلال وتختفي فيه على أن يدفعها الريح إلى فوق وهي تريد النزول.

ها قد وصلت أخيرا إلى مستقرّها في إناء عابرة سبيل يخيّل لها أنّه لم يكن للقطرة من هدف آخر غير أن تصلها هي لاغير والحال أنّها كانت إلي آخر لحظة لاتدري لها مستقرّا.

قلت إنّني لن أدخل في إشكاليّة «الحقيقة» فلهذا النّوع من القصص ورواته ومختصوه. لن أتوقّف عند الإشكالية ولك أن تختار أيّ الإمكانيتين أقرب إلى ذوقك. يكفي أنّ معالم الطّريق إلى باب الدّخول قد رسمت.

ها قد آن الأوان لكي تتبلور الفكرة في مخيّلة الشّاعر القصّاص.

* * *

تساهم بدورك في إسدال الأستار وإضاعة الأثر وكأن على السرّ أن يبقى سّرا.

أنت لا تفكّر في تلك اللحظة إلاوتستدعي النسيان وكأن التفكير فيها تدنيس لمقدّس لا يشاهد لا ببصر العين ولا ببصر الخيال.

وفي تلك العتمة وفي خضمّ تلك النشوة وفي أوج تلك المواجهة الصّامتة وفي غرابة ذلك التلاقي بين مسافرين رمى بهما الطوفان وجها لوجه يرمي النرد ويتقرّر المصير وفي تلك اللحظة الأزلية وأنت بين عدم وخلود يصاب الموجود بالحمى والهيجان.

تهاجمه الرغبة والشهوة ويعاوده حنينه الأزلي للتعجّب. يتملكه إصرار لا يقاوم على أن يعيد الكرّة دون كلل. يتأتى له فجأة أن تكوّنه ويكوّنك أن يخلعك لتلبسه لتنفصل عنه لتحمله كلّه داخلك مكرها غير مخيّر.

يسترخي الجسدان. يدخلهما الهدوء والصمت. يلّفهما الظلام ويحملهما النوم إلى عوالم أخرى سفرة داخل سفرة مغامرة داخل مغامرة وبينما هما يجوبان تلك الأصقاع الغريبة تتسلّل كالطيف مسافرا ثالثا بين ثنايا كلّ هذه السفرات المتداخلة.

وقد ترتسم آنذاك على الوجهين ابتسامة عابرة وقد تتسارع دقّات القلبين وقد تبحث اليد عن اليد وقد تكثف الخشوع وقد تأتي النائمان ذكريات مبهمة عن تلك اللّحظة التي عبرا فيها بدورهما وقد يسارعان إلى نسيانها لأنّها بضائع مهرّبة ممنوعة في هذا الموجود.

يبقى السؤال مبهما لا تفصح عنه سنوات من الحياء الصّامت: هل رغبت هل رغبا هل أتيت لأنّهما أرادا لأنني كنت ضرورة... لأنني كنت الأمل.

ومن تلك الحقبة لا أتذكّر شيئا ولم أسألهما لأنّهما لا يبوحان بمثل هذه الأسرار وإنّما أذكر ما قاله لي يوما ذلك الآدمي الذي فتح لي بوّابة الموجود على مصراعيه:

- وضعت يدي على البطن وقد انتفخ وأصبحت أكثر احتمالا لأباركك.

وقالت في لحظة من لحظات السعادة الجارفة:

ـ صلّيت لأن تكون عالما بارعا باللسّانين العربي والإفرنجي.

هكذا دخلت الموجود مباركا مرّتين وكان ذلك أقلّ ما يمكن من قبل مغامرين رميا بي في عالم كهذا.

ولا شكّ أنّهما تمتما كذلك دعاءا لك ولا شكّ أن أياديهما باركتك ولا شكّ أنّهما تألّما وتأمّلا وغمر قلبيهما الأمل بأن تأتي لتجدد عالمهما لتجدّد الموجود.

وإنّها لنفس الطبعة تتكرّر دون نهاية لقصّة لا تختلف إلاّ في تفاصيل التفاصيل.

تتواصل الأحلام وتختلط. تدخلها صامتا مترقبا. تأتيك من النائمين أولى الإشارات أن لا تفزع ولا تخف أن احتضن الحلم وادخل الرؤيا أن تشبّث بالقبس الذي سلّم إلينا أمانة محفوظة نودعها الآن بين يديك.

تدخل العالم في قصّتي بدعوة ودعاء ولا تدخله ملفوظا من رحم الصّدفة العمياء. تدخله بإرادتك مدفوعا بفضول لا متناه وشهوة جامحة. هكذا ستراك تتعلق وتتشبّث بتلك الأحشاء الدافئة تتغذّى بها فلا ترفض لك جوعا ولا عطشا.

تنمحي رويدا رويدا الظلمة. ينحسر اللاّموجود وتأتيك من الموجود الغامض المبهم إشارات رقيقة وأوامر مهموسة أن انفصل عن الحلم الآن.

تنفصل عن الحلم لأنه لا مردّ لمثل هذا الأمر.

تنفصل عن حلم الكون ولا بدّ للفكرة أن تتبلور.

ها قد بدأت تتسلّل برفق إلى وعي الموجود فكرة مبهمة غامضة لم تتبلور بعد في شكل واضح وإرادة لها معنى.

يبدأ إعدادك لأهوال الرحلة وغرابتها وأنت في نهاية صدمة الغيبوبة. تتراقص حول بدايتك المبهمة أيادٍ خفية تكدّس الحطب توقد النّار تنفخ على اللّهب تمزج الطين والصلصال تنحت هنا وهناك.

تتابع الأوامر الصامتة في نسق محموم أن اصنعوا وقيسوا وشذّبوا ولا تغفلوا عن مراجعة تلك الأسس والآن لا بدّ من... انتهت مأمورية الفرقة الأولى... أطلقوا تلك القوى من عقالها... شيء من المراجعة في ذلك الشّكل. قفوا... واصلوا... جدّدوا تجدّدوا... الآن... إلى اليمين... كلّ الطاقة في ذلك الاتجاه.

تتشكّل الصورة شيئا فشيئا في فكر فنّان هو في آن واحد الرّيشة والألوان والعضلات التي تحرّك يد الرّسام المبدع. تتبلور الفكرة رويدا رويدا... تنحسر الغيبوبة كما ينحسر الظلام عن مدينة نائمة... لكنك ما زلت في بداية الإنضاج.

إنّك الآن تمثال ينحت لوحة بصدد التلوين النغمات الأولى لسمفونية لم تستقم

مقاطعها... أنت ما زلت أحرفا أولى لقصيدة ملحمية لقصّة مشوّقة تضاف إلى مكتبة المكتبات.

إنّ أغرب ما في وصولك إلى الموجود كلّ هذا العلم الذي تظهره أنت الذي لم تتعلّم بعد شيئا.

إنّك في هذه اللّحظة النحّات المجهول والفكرة المبهمة والمادّة الصمّاء.. الموسيقار وتأتآت المقطوعة أنت المبتدئ الذي لا يعرف نوطة موسيقيّة تقود بمهارة الاوركسترا الفخم. إنّك الشاعر والبيت واللّغة الآمر والأمر والمأمور.

والأمر أن استعدّ لعالم خطير والخطر بالأخطار التي تملؤه والتي ستعطي للتجربة نكهتها ولذّتها والخطر بالأهمية التي تكتسبها الرحلة بالنسبة لهذا الذي لا يشبع من الحلّ والترحال هذا الذي يشكّل كل الزمان وكلّ المكان مسرحا لمغامراته هذا الذي تقمّصك وتقمّص كلّ الكائنات لأن لا شيء يطفئ عطشه المحموم إلى الحياة..

لا بدّ من أسنان للقضم ولسان للتذوّق وأذن لتسمع الأنفاس الساخنة وعينا لترى بريق الشهوة. لابدّ من ذراعين للضمّ ومن أظافر لتنشب في جسم الموجود الطريدة ولا بدّ من رجلين للجري هربا من براثن الحبيب الصيّاد ولابدّ من إسدال ستائر النسيان على كل ما مضى ليتجدّد دوما كلّ قديم.

لا بدّ من فضول يعذّب ولا بدّ من فكر ثاقب يكون أعجز من فضح الأسرار المكنونة. لا بدّ من حيل ماهرة ومن أبواب تستعصي على كلّ أنواع الأقفال.

لا بدّ أن تعدّ لك الأيادي الخفية المخيّلة لكي تحلم بما وراء الأبواب الموصدة إلى الأبد.

لا بدّ من عقل قادر غير قادر عاجز غير عاجز ضعيف في قوّته قويّ في ضعفه لكي تتواصل اللعبة شيّقة مثيرة ولأنك نهم عطشان إلى كلّ المشاعر والأحاسيس التي ستجتاحك وأنت في عناق وصراع مع الموجود فلا بدّ من أعداء لتجيد العبّ من كلّ ألم وّ لذّة لتتلمّظ رعبك طفلا يحاصره الظلام لتتذوّق متعتك الصامتة وأنت محتم مختبئ بين نهدين لتتشبّع بشعور اسمه اليأس وقد ضاعت معالم الطريق لتتمتّع بالمفاجأة بالرهبة بالعجب بالإعجاب وأنت تغمس عينيك ويديك ولسانك وأنفك وفكرك في جسد الموجود.

لا بدّ لك من الوهم ولا بدّ من الحماس ولا بدّ من الّصبر ولابدّ من الملل ومن ألف حالة وحالة ولا بدّ أن يحسب الصانع الفنّان لكلّ حالة ما يلزمها.

يتواصل انتظارك. تراقب بنفاذ صبر متصاعد أن تنتهي الأشباح من القصّ والتركيب والقيس والوزن والأخذ والردّ.. تواصل الأيادي لا تعير نفاذ صبرك أدنى اهتمام إعداد ما تسمّيه اللّغة الدّاخل في نفس الوقت الذي تواصل فيه فرق أخرى من الأيادي وقد تكون نفسها تهيئة ما تسمّيه اللّغة خارجا.

ولأنّك ستجرّب في هذا الموجود كما أردت ذلك كلّ ألوان التعب والإرهاق فلا بدّ لك من مخبأ تجدّد فيه قواك. تجهّز لك الأيادي الخفية ذلك المخبأ الذي تعود فيه دوريا إلى عتمة اللاّوعي... إلى مستودع كلّ الأسرار إلى تلك المناطق القاحلة التي تتفجّر منها دوريا منذ إطلاقك عنان الزمان.

* * *

أنت لم تولد بعد ومع هذا لا بدّ من إعدادك للموت ذلك الوطن الغالي.

تتسارع الأيدي الرقيقة الرفيقة لتصنع اللّمسات الأخيرة تخيط وتطرز توشّي وتوشّح تخطئ وتصيب تجرّب وتعيد لا همّ لها إلاّ إعدادك للمغامرة المتجدّدة. هي تريدك جامعا لكلّ المتناقضات. ألم تأمرها بأن تجعلك الأزلي العابر الحيّ الميت العالم الجاهل القوي الضعيف الكائن اللاّموجود الذكر الأنثى صاحب كلّ الفضائل والرذائل القادر على كلّ البطولات والموبقات.

وممّا سمعته أنّك طفرة خرجت من الأرض كما تخرج منها النبتة وفي قصّة أخرى يروى أنّك مجموعة ذرّات جمعت من طرف إله أعمى اسمه الصدفة أو قصّة ثالثة تروي أنّك خلقت من طين وصلصال من طرف إله مبصر خلقك كمّا تخلق أنت آلة تنفخ فيها شيئا من روحك تتحرّك بأمر وتتوقّف بأمر أنت صاحبه.

ممّا سمعت أيضا في حلقات السّمر أنك لم تكن يوما غريبا عن الموجود وأنك لا تصله إذا لم تغادره قط ويقال إنك كنت فيه ذرّة تجري وراء أخوات لها إنك كنت حلقة تبحث عن سلسلة إنك كنت ترابا وكنت عشبا وكنت وردا وكنت شجرا وكنت نسرا أسودا ضخما يضرب بجناحيه الأرض وكنت موسيقى وإنك كنت رذاذا وإنك كنت ضبابا وإنك كنت شاعرا وإنك كنت أفكارا وإنك كنت أحلاما.

ويقولون أيضا إنك عشت قبل عبورك باب الزمان ما لا يحصي من قصص ومغامرات وإنك تقمّصت ما شاءت المخيلة من أدوار وإنك كنت حيوانا معذّبا وربّا مغامرا وشيطانا متمّردا وإنّك الشيء ونقيضه وإنك نوم أزلي وحلم مسترسل ويقظة متقطّعة إنّك قديم أقدم من القدم نفسه. يقال إنّك تثب من كوكب إلى آخر عبر هاوية سحيقة من الزمان والمكان مرتحلا من نجم إلى نجم إنّك تدخل ما وراء الأفق كما يدخل الحلم والكابوس لتتلقّفك رحاب كينونة أخرى تكون فيها طيفا ورذاذا وأرقاما أفكارا وأحاسيس لا حاوي لها ولا حدود تتلمّس طريقها كما يتلمّس عميان هذا الموجود طريقهم.

ويقال أيضا إنّك ومضة البرق الخاطف لأوّل عاصفة في التّاريخ وأوّل قطرة الغيث والفكرة الأولى تراقب نفاذ الزمان.

هكذا أقول إنّك - إنّني حالة من الحالات اللاّمتناهية اللاّمحدودة له - وإنّك أنت «هو» تجسّد في حالة من حالاته المحدودة - المتناهية ليكتشف عالما من الأسماء إنّك طفل لا يشبع نهمه إلى القصص شيء يقرأ كتابا اسمه الكون ينخرط في سياق القصّة الرّائعة فينسى أنه يقرأ القصّة التي يكتب ويكتب القصّة التي يقرأ وأنّه كلّ الحوادث والأبطال.

لكن هل أنت حقّا الـ..... أتيت إلى هذا الموجود متقمّصا دورا وشكلا ناسيا متناسيا أنّك كلّ الأدوار والأشكال.

أضف قصّتي إلى ما تعرف من الرّوايات ولاتطلب منها مالم يوضع فيها وما لايعنيها.

وفي مثل هذه القصّة التي تروى من قديم الزمان والتي أحاول أن أضيف إليها بعض التّحسينات تكون «هو» ولا تكونه. يكون «أنت» كما تأتي الفكرة الطّائشة صاحب كلّ الأفكار والقصّة أي قصّة قصّته «هو» الذي لست «أنت» والقصّة أي قصّة هي قصتّك «أنت» الذي ليس «هو».

«هو» يوزّع نفسه إذا في ألف ألف ألف شكل و«هو» واحد في كلّ شكل إتّخذ واحد وراء كلّ قناع لبس. «هو» يجرّب كلّ مراحل الإغفاء في هذه الكائنات واليقظة في كائنات أخرى والأحاسيس والمشاعر والأفكار في ألف آلف آلف كائن.

تأتيني الفكرة إنّه يعرف من الرعب أصنافا ومن الانبهار أصنافا وأنّه يتجوّل عبر درجاتها إنّه يمرّ من انطفائها إلى التهابها عبر كلّ الحالات الممكنة ليس فقط فيّ وفيك وإنّما في كلّ تمظهراته إنّه لا يستقرّ على حال ولا ينتهي إلى قرار.

ما الذي يجعله بحاجة إلى كلّ هذا وما تبرير هذا النهم الذي لا معنى له.

ألن يأتيه يوما الشبع ألا يمكن أن يستوفي الممثل الأكبر متعة كلّ الأدوار الممكنة لا بدّ من إضافات هامة لكي تستقيم القصّة.

تقرّر الرواية أنّه لا يهدف إلى شيء في الواقع وإنّما «هو» حالم يحلم فصلا مشوّقا من فصول قصّة تمتزج مع قصّة تخلق راويها وراوي راويها تنغلق على ذاتها وهي القاصّ والمستمع وكلّ ما يمكن أن يكتب أو يروى من قصص. وكان من الضروري على القصّة حتى تكون قصّة أن يكون جاهلا بأنّها قصّة وأن لا يكون واعيا بكلّ تداعياتها وتعقيداتها وملابساتها.

«هو» تقمّص الدّور عن طواعية ناسيا بإرادة أنّه بقبوله الدّور قبل أن يكون مجرّد سطر في كتاب من كتب المكتبة الكبرى وأنّ السّطر لا يمكنه أن يخرج من النصّ ليقرأ ما خطّه الكاتب.

ولم يكن أمامه من خيار آخر سوى أن يقنع وأن ينسى أنّه ممثّل في مسرحية يلعب فيها

دور الآدمي المتجسّد في مكان ما وزمان ما لتتراكم داخل جرابه المشاعر والأحاسيس والأفكار والانطباعات والتجارب عن الموجود في شكله الآدمي في الوقت الذي تواصل أشكاله الأخرى الآمتناهية العدد تجربة حالات لاقبل لفكر ان يتصوّرها.

وقد يجب أن تتواصل القصّة لتروي وصوله إلى سدرة المنتهى إلى العرش الذي إليه تتجه كلّ الأقدام والأنظار منذ خطّ أوّل حرف. يمكن للقصّة أن تجمع آنذاك كلّ الرحالة في طواف جبّار حول كعبة كونية ما انفكت منذ البداية تجذبهم كما يجذب المغناطيس قطع الحديد المتناثرة.

لكم «هو» محمّل بكلّ ألوان وعطورات وحوادث الموجود وكان يرنو ببصره إلى تلك اللّحظة الذي تتجمّع فيها أطرافه. أنّها اللّحظة التي سيوضع فيها آخر حرف في آخر قصّة بعد أن اكتملت كلّ القصص وتداخلت وبعد أن عاد المتعدّد واحدا ليبدأ من جديد بعثرة نفسه في ما لانهاية له من الحالات والقصص الجديدة.

لكن مهلا فحتّى مثل هذه القصّة مطالبة بأن تبدأ من بدايتها لتصل بتدرّج إلى نهايتها.

هي تأتي بك إذن فكرة طارئة من شوارد أفكاره شكلا مرحليا من أشكال الموجود لحظة من لحظاته حالة من حالاته مغامرة من مغامراته ولا يبقى عليك إلاّ أن تتجسّد وأن تنسى وأن تدخل.

وممّا سمعته عن بعض الكاهنات وهي تروي عرضا لجحافل الحجّاج رأيها ورؤياها أنّك تأتي مقنّعا لتختلي بالموجود من أجل جماع رهيب إنّك نهم يأكل العوالم كما تأكل القطط الجائعة أطفالها وفي وليمتك هذه تقول الكاهنة إنها رأتك في رؤياها حبيبا عاشقا أقفلت عليه وعلى الموجود غرفة الحياة.

ها أنت تتلمّس حبيبتك بكل مسام جسدك المقدّس. تشم عبيرها. تتذوق لعابها تتلقّط أنفاسها. يكحّل عينيك جمالها. تبادلها هدوءها بغزل صاخب. تبادلك صخبا بصمت أعزل. ثم ها هي تغرس أسنانها في لحم رقبتك وها أنت تطبق بفمك على ثديها تتلمظّها وتتلمّظك تتذوقك وتتذوقها تستحليك وتستحليها تقطّع لحمك وتقضم لحمها تكسّر عظمك وتدقّ مفاصلها تلحس دموعك تلحس سوائلها تشرب دمها فتنتشي وتعبّ من دمك فيتعتعها السكر وهكذا تتآكلان وتتماوتان وتذوبان بعضكما في البعض.

وباكتمال الشبع ينتهي الجماع وباكتمال «الموت» تكتمل النشوة.

يفتح باب الغرفة فإذا بها فارغة تنتظر حبيبين آخرين يأكل بعضهما بعضا.

* * *

وفي فترة الإعداد والإحرام وقبل الوصول وبينما الأيادي الخفيّة في حركة لا تفتر لتكون

جاهزا للمغامرة يخرج الواحد من الاثنين وينفصل المسافر عن المركبة.

وقد تصلك وأنت تتمدّد وتتمطّى وتجمع وتستجمع قواك بعضا من هدير وهمهمة الموجود وقد يصلك نزر من ثرثرة الكائنات حول همومها ومآسيها وقد تداعبك أنغام عسليّة لكنك لا ترقص لها طربا تفتعل الصمم لأنّه مازال أمامك كثير من الوقت.

يأتيك من تلك التي تحملك أعزّ وديعة وأحلى رهان تلك التي ستكون الجسر الملكي الذي ستعبر فوقه لتدخل الموجود أول إشارة..... الصّوت.

يتزايد انتباهك إليه أنت الصامت المتعالي. إنّه خيط رفيع من النور يقودك من الحلم إلى اليقظة على طريق معبّد يحملك من كهف اللاّشعور إلى صخب الأحاسيس.

هو سيكون رفيق بقيّة الغيبوبة ورفيق الخطوات الأولى ورفيق كلّ الخطوات. سيتردّد صداه وأنت على أهبة مغادرة الموجود وقد شبع منك وشبعت منه تلفظه ويلفظك.

هو دوما لا غير همزة الوصل بين كلّ بداية وكلّ نهاية.

إنّه الأمر الرقيق أن تشجّع حتّى تكون.

ها أنت تصيخ له السمع من دون كلّ هذه الأصوات المتلاطمة التي تترامى على رصيفك كأنّها أمواج لها معك ثأر.

ينفصل دوما الصوت من خلال الزخم الهائج. لا تخطيء أبدا التعرّف عليه. يطغى ويستحوذ على ألبابك يسحرك يستهويك ويستفرد بك. إنّه الموجود يكلّمك أولى كلماته... تسمع ولا تفهم لأنك الآن لست بحاجة إلى الفهم. تفهم ولا تردّ لأنك لست بحاجة الآن إلى الردّ. لارحلة إلا وفيها دليل والصوت أوّل من تعرف وأوّل من تحبّ من الأدلّة.

يواصل الموجود اللّعب بأحاسيس غامضة ومشاعر لم تتبلور ولم تسمّ بعد. تبقى متردّدا.

ولحظة تخرج من تردّدك تمدّ يدك لتطبق على ذلك الخيط الرفيع من النّور. آنذاك تكون فعلا قد وصلت تخومه ولم يبق لك إلاّ أن تضع القدم وراء القدم لتمشي على طريق لذيذ مرّ.

يتعالى ضجيج الكائنات وهي تصرخ بصراخ الألم واللّذة فلا تسمع. تتصاعد من أجسامها رائحة العرق والكيّ فلا يعرف عبيرها لك طريقا. يتراكم الأحياء البعض فوق البعض وتمشي أجساد على أجساد وتدفن الكائنات نفسها في نفسها وأنت هادئ لا تحرّك ساكنا تحتدم المعارك فوق رأسك، تسيل أنهار من الدم وأنت شاخص العينين تواصل حلما منغلقا على ذاته.

يتزايد وضوح الصوت وتتزايد انتباها في ذلك الكهف الذي تأخذ فيه كلّ وقتك لكي

تتشكّل وتتزينّ. ها أنت تغالب فجأة موجات متتابعة من الرعب تخرجك من لا مبالاة مفتعلة فهذه الأصوات المتلاطمة على شاطئك كموج بحر شرس تحمل لك كلّ فظاعة عالم ينتظرك انتظار الجائع للّقمة سائغة.

تزداد تمسّكا بالصوت يقول لك لا تخف يا ابن الآلهةِ وأباها فهناك العويل والأغنية هناك التكشيرة والبسمة هناك العبرة والضحكة وهناك السكّين والمبضع.

من الزوّار من لا تقنعه الصفقة فيطلق الخيط ليعود لراحة العدم.

تقبل بها أنت كما قبلها من قبل آباؤك وأجدادك. تتشنّج راحتك التصاقا بالصوت فلا تعود تنتبه إلاّ إليه وإذا علت موجة الرعب تدفعك إلى النكوص على الأعقاب.

يبتسم الصوت وتزداد الأحشاء حرارة وتسرى في جسمك قشعريرة لذيذة. يهشّ الصوت على الأصوات يطردها. تتراجع المخالب والأظافر والأنياب. تنسحب السكاكين الدّامية ويتكثّف الصمت حواليك. تعود الطمأنينة. تنحسر أمواج الرّهبة والتردّد وتزداد اقترابا من باب الكهف. يدغدغك الصّوت أن تقدّم أن لا تخف أن لا ترهب إلاّ الرّهبة. ولأنك قرّرت أن تأتي وأن تدخل وأن تسافر السفرة المقدّسة فإنّك تأتمر بالأمر فلا تولي بظهرك مدخل الكهف وإنّما تمرّن عينيك الناشئتين على ذلك البصيص من النور الضعيف الذي يشير إلى مدخل الموجود.

تتداخل هنا الأدوار والقصص. تتراقص الأشباح. تتّحد وتتفرق. تذوب الحدود وتعجز لحظة عن التّفريق بين كلّ الأشكال المتموّجة المتفكّكة المتغيّرة التركيب.

لابدّ للقصّة أن تفعل ما فعلته دوما: أن تنظّم أن تضع الفواصل والحدود أن تخلق وأن تختلق أن تغرف ممّا يبدو مادّة خامّ ما يلزمها لكي يولد من كلّ الممكن موجودا جديدا يتراكم فوق كلّ التجارب التي تمّت...

* * *

للعالم في القصص الآدمية أكثر من صورة ووظيفة وكلّها بالضرورة صور ووظائف آدميّة ولامهرب ممكن من هذا.

إنّ أكثرها لا تخرج عن كونه وعاء أو أداة.

تجعل منه القصص الرّكيكة سوقا مكتظّا موجودا من الأزل تدخله لتتسوّق لتتاجر وتستهلك لتسرق وتسرق لتخرج منه أغلب الأحيان مفلسا منهوك القوى من طول الصّراع وكثافة الزّحمة.

هو في قصّتي هذه المعطى الخامّ الأحرف المبعثرة الألوان الضرورية.. فرشاة الرّسم التي تنتظر يد الفنّان المبدع. هو حدود مرسومة لا تستطيع تجاوزها... حدود مفتوحة لكي تأتي

بما لم تستطعه الأوائل. إلا انه ليس مجرّد مادّة مطّاطة تعطيها من الأشكال ما تريد. هو ذاكرة وأداة ذكية. هو مستودع حياة كلّ من اندثروا. هو باب الدّخول وباب الخروج. هو المسرح الذي تعرض على ركحه كلّ التمثيليات وهو النظّارة والقصص. هو أنت. وهو شيء آخر مختلف لا أفهمه ولا أجد في اللّغة ما يمكن أن أصفه أو أن أشابهه به.

تتعسّف عليه القصّة وتواصل لتواصل تفتعل العلم بطبيعته بخباياه وأهدافه.

لنشبهه بما نعرف وفق تقنيات المخيّلة القاصرة. ليكن المسرح الذي اختاره كاتب السيناريوهات وممثّل كلّ الأدوار ليلعب فوق خشباته كلّ التمثيليات تروي آخر شطحات خيال الـ...

إلاّ أنه ليس فقط البوّاب الذي يدخل الفنّانين وليس المقصورات التي يخلعون فيها أثوابهم ويضعون الأقنعة وليس الخشب الصلب الذي تطؤه أقدامهم وليس السّقف الذي يطلّ على رؤوسهم وليس الكراسي التي سيجلس عليها الممثلون لاعبوا دور النظّارة.

لقد أصبح بطبيعة الأمر كلّ هذا وأكثر من هذا.

هو الآن يلعب لضروريات السيناريو دور القابلة العجوز.

يتعمّق صمت يشوبه الفضول وقلق المبتدئات هي التي لا تنفكّ تضع المولود تلو المولود منذ الأزل والسؤال دوما لا يتغيّر: ما الذي ستتمخّض عنه آخر نزوات مؤلّف كلّ الملحمات.

ولأنّه مطوّف قديم محنّك جرّب كلّ أنواع الزّوار ولأنّك ضيف زائر حاجّ صعب الإرضاء فلا بدّ لك من مواصلة وأحكام الاستعداد.

يجهد نفسه لكي لا ينسى ضرورة واحدة من متطلبات الحجّ.

يهرش الموجود العجوز رأسه يستحضر كلّ ما أنت بحاجة إليه وكيف لا يخشى النسيان والحال انّه مطالب بأن يجهّز لك الشيء ونقيضه وأن يكونا وكأنّهما لم يستعملا ولا مرّة فأنت أيها الـ.... لا ترضى بالبالي أو المستعمل.

لا بدّ من تجديد كلّ قديم لا بدّ من صقل الشيء - شمس لتبدو وكأنّها لم ترم.

أحدا بأشعتها قبلك. لا بدّ من تلميع الشيء - قمر ولا بدّ من نفض الغبار عن الشيء - صحراء ولا بدّ من طلي قبّة الشيء - سماء وتلوين الأشياء - براري ولا بدّ من تثبيت الأشياء - جبال ولابدّ من غسل الشيء - بحر ولا بدّ من أشياء - أشجار لتستظلّ بها ولا بدّ من أشياء - ثمار على أغصانها ولا بدّ من أسماء جاهزة لتشير إلى كلّ هذه الأشياء لتتوهّم امتلاكها واختصار الطرق إليها ولابدّ من قطعان من السحاب ترعى في السماء لتعطيك الظلّ والماء وكرات الثلج ولا بدّ من نسيم عليل لأيّام الحرّ ولا بدّ من نار هادئة لأيّام القرّ لا

بدّ من فضاء متّسع ولا بدّ من قبر ضيق ولا بدّ من أتراب ورفاق لملء فضاء الفضاء وفضاء الزمن حتى تستطيع أن تكون.

لا بدّ لك من مهد ولحد ولا بدّ لك من جزء من الغطاء ولا بدّ لك من تسلفة وتسبقة ولا بدّ من حضن دافئ قبل رميك عاريا للذئاب ولا بدّ لك من مكان وقد غصّت الساحة بالمتفرّجين ولا بدّ من تلقينك الحرّية ولا بدّ من رسم الحدود ولا بدّ من زحزحة بعض قدماء الممثلين لتجد لك موضع قدم ولا بدّ من حماية ظهرك من مخلب لاعب دور الوحش.

يستحضر الموجود العجوز كلّ خوارق الخلق الضرورية فينفخ في النفير لتكون كلّها في الموعد.

تتواصل الإعدادات وتتكثّف.

لا بدّ اخيرا من تجميع القصص والخرافات والأساطير لتمسك بالخيط لتواصل السلسلة ولأن هذه القصص صور متحرّكة وليست ثابتة ولأنّها في جوهرها مهازل ومآسي فلا بدّ من تصفيف كلّ المثلين لا ينقص أحدهم. لا بدّ من تمرينهم على كلّ الأدوار لا بدّ من تلقينهم كلّ السيناريوهات. لا بدّ من التأكدّ أنّهم حفظوا واستوعبوا كلّ الدروس ولا بدّ من التأكد أ نّهم نسوها وأنّهم نسوا أنّهم نسوا.

ها قد أعدّت أخيرا حلبة الرقص والصراع ولم يبق ألاّ أن تتفضّل.

أنت ستتحسّس برفق أعمى يدخل نفقا الموجود وقديكون له شكل البيضة المغلقة الدافئة التي تستجمع فيه أشلاءك وقواك للوثبة الكبرى. مهلا ستعرف الكثير منه وعنه في الإبّان لأنّ الرّحلة لا تكون إلاّ به عبره وفيه.

وهو لايقنع بدور القابلة والمطوّف وإنّما هو أيضا مفتّش بضائع هاجسه الجودة والطرافة وهو أيضا المشاهد الأزلي والنّاقد الضليع الذي لا تفوقه غلطة أدّاء وسهو عن نصّ أو بلادة في السيناريو.

إنّه يفتح منذ القدم ذراعيه للكائنات يدخلونه من باب الزمان أمواجا متلاطمة ويخرجون من باب «الموت» أشباحا متدافعة وكم خبرهم أشكالا متنوّعة وكم عرفهم أعدادا بفيض النجوم المتناثرة وحبّات الرمل المتطايرة.

هولا يعلم إلاّ القليل عن سرّ قدومهم وخروجهم.. عن معنى حلّهم ورحيلهم.. عن جدوى الهرج والمرج الذي يحدثون ومن ثمّة عطفه الصامت عليهم أو أفته العاجزة أو قرفه المتصاعد.

ومن فوق رؤوس الممثلين وتتابع الزمان كأنّك تسمع نقاشا صامتا بينه وبين الكاتب الأكبر على فرض أنّهما «شيئان» مختلفان.

- لا بدّ أنّك أحببت هذا.

- يا للرداءة.

- إلى هذه الدرجة.

- إنّها دوما نفس القصص الـمملّة أين ذهب ذلك النفس الذي فاجأتني به في شبابك.

- رغم كلّ الجديد الذي أدخلته في الأدوار الأولى.

- أه لقد خرّفت أيها الـ.....

- أو أصبحت أكرّر نفسي إلى هذه الدّرجة.

- إنّك تغرف دوما من نفس المخزون.

- انتظر هذه المرّة أيها العجوز المزعج. لأفاجئنّك بما لاقبل لك بتصوّره.

ينتظر الموجود هو الذي لا يفعل إلا ذلك منذ أزيح الستار ودشّن المسرح.

إنّه يعرف الإطار العام الذي لا يخرج عنه أيّ سيناريو.

هو يشاهد دخول الممثلين وخروجهم. لم يعرف منهم ألاّ من يدخل ولم ير قطّ أحدا منهم إلاّ وخرج مكرها.

هو يعرف أنّ كاتب السيناريو أراد أن لا تكون الكائنات دمى خشبية تحرّكها أيادي ماهرة من وراء الستار. لا بدّ إذا من السيناريو داخل السيناريو ومن الحلم داخل الحلم ومن الارتجال داخل الارتجال ومن التشويق داخل التشويق. لكنّه يعرف حدود الارتجال. هو يعرف أوقات خروجهم المبرمج عن النصّ وعودتهم إليه في النقطة والفاصلة ينتظر أن يتعثّروا في نفس مقاطع الكلمات أن يتأوّهوا وأن يصرخوا وأن يصرعوا في الأوقات المحدّدة. نادرا ما يفاجئونه بما لا يتوقّع. إنّها ضريبة الخلود هذا المرض الخطير... هذا الشرّ المطلق... هذا الملل المقرف الذي لادواء له سوى التفرقع والتجدّد والتجسّد في كائنات بلا ذاكرة.

يمسك الموجود العجوز بأنفاسه يترقّب ويأمل أن تفاجئه. أي قناع ستلبسه هذه المرّة وأي عناء ستكلّف نفسك تذرع خشبة المسرح ذهابا وإيابا لا تشبع من اللّعب.

إنّه يتساءل هل أنت الذي سيعيد ترتيب البيت هل أنت المخلّص الذي ترتقبه كلّ هذه الكائنات الغارقة إلى أذنيها في الهذيان هل سيصرعك الهول أم هل ستلبسه هل تكون نغمة جميلة أو زعيقا منكرا هل ستبالغ ليقال عنك ممثّل ماهر أم هل ستتنحي جانبا من المسرح لتبكي حظّك العاثر هل ستوسّط الركح أم هل ستقنع بدور من أدوار الكومبارس هل ستضرم النار في الستائر لتجبر الأيادي الخفية على الظهور ناسيا أنّك أنت الأيادي الخفية هل ستكتشف ألوانا أخرى من النشوة والهوس والألم هل ستفتق عبقريّتك عن حكايات جديدة ومغامرات لم ترو أم هل ستكون ترديدا لقصيدة بالية هل ستتجدّد حقّا

أنت يا أقدم من القدم أم هل ستكرّر نفسك وتتراكم بعضك فوق بعض.

أخيرا هل ستتوقف إذا كان بإمكانك حقًّا أن تتوقف.

يمسك الموجود العجوز بأنفاسه وهو يراك تقترب من باب الكهف وقد زاد التحامك بالصّوت يشّق لك الطريق نحو خشبة المسرح نحو حلبة الصراع نحو براري السفرة.

أنت جاهز أخيرا لتعلب ما قدر لك وما تيسّر من أدوار وقصص. لقد أعدّت لك القابلة الكونية ما يلزم لتكون آكلا مأكولا واجعا موجوعا غازيا مغزوّا عاشقا معشوقا صاحيا مشمولا والدا مولودا غادرا مغدورا عالما جهولا خائفاً مرعوبا مبهرا مبهورا.

ها أنت مدعوّ إلى وليمة الصخب والعجب لتقتات بالشكّ وتتسحّر باليقين لتتقلّب بين يأس ورجاء لتجرّب الحرّ والقرّ لتمسك وتفقد لتعرف طعم الربح ومعنى الخسارة لتسافر من بحر الألم إلى شاطئ الخوف ومنه إلى برّ أمان متقطّع لتتبادل مع الـممثّلين قطعا من النصّ لتحرّفه هنا وهناك لتنقص أو تزيد في بعض مقاطعه لتثير ما أمكن من البلبلة.

يعرف الموجود في قرارة نفسه أنّك لم تأت إلاّ لهذا. هو أدرك منذ زمان بعيد أنّك لا تكره شيئا قدر ملل التراكم ورتابة التكرار وقد ظنّك أحيانا مغامرا قلقا ومراهقا يغالب أزمة حادّة بحركة لا تفتر وخيّل له أحيانا أنه مجرّد لهو وعبث أنّك نزق طائش تعبث بالكائنات لا ترعى لها عهدا أو حرمة كالأمّ ترمي أطفالها في الشّارع لا همّ لها إلاّ عشقها وعشيقها.

هو آمل أحيانا أن تصاب بالحكمة أو باليأس أن تتركه وشأنه هو والكائنات المنقّية فيك لينطفئ بهدوء ليعود بحمولته إلى اللاّ موجود كما تترجّى السفينة المرهقة قاع البحر.

إلاّ انّه كان يراك لا تنفكّ تخطّ القصيدة وترميها تكتب السمفونية وتمزّقها تلعب السيناريو وتضيف إليه دوما تنحت الكائنات وترسمها تعيد النّحت وتعيد الرسم كلّ مرّة رغم ما أبدعت وما صوّرت لا تعجبك المعجزات ولا ترضيك الخوارق.

وهكذا حكمت على نفسك أن تتراكم في خزائنك المخطوطات والمطبوعات.

وأن تفيض سلال المهملات عن كتابات عصبية وأن تظلّ تبحث.

هو رآك من الأزل على خشبة المسرح تقسو على نفسك. تجهدها. تعتصر الأقصى من الألم. تسافر إلى أبعد حدود العذاب. تقف على مشارف الهوس والجنون فتدخلها غير آبه أن تضيع فيها وكم رآك تتفنّن في الفواصل والنقط ومخارج الحروف لعلّ الكلمات تتفجّر ولعل من انفجارها ينطلق جديد ما.

ولكم تساءل عن هذا الذي تبحث عنه دون كلل أو ملل وهل أضعت شيئا أو كائنا تفتشّ عنه عبر كلّ هذه الأقنعة والوجوه والتماثيل الهامدة المتحرّكة وبكلّ هذا الإصرار وبكلّ طول هذه المدّة.

لقد راوده الشكّ مرارا إلى أن استبدّت به القناعة: أنّك أضعت أثرا لم يوجد بعد وجهلت سرّا لم تخلقه وأنّك تلبس القناع وراء القناع والجسد وراء الآخر والقصّة تلو القصة لأن في نفسك غاية لم تجد طريقها إلى التحديد.

يمسك الموجود العجوز أنفاسه وهو يحاول أن يتصوّر السرّ المهيب ويتّضح له عبث محاولة فكّ اللّغز وأنت خالق كلّ العوالم والأسرار لم تقرّر بعد طبيعته.

وهكذا حكمت على الموجود المسكين أن يأوي شوارد أفكار طائشة وأن يقبر أحلاما ورؤى وخواطر متطايرة أن يكون فراش الولادة وفراش الموت ليلد نفسه من نفسه.

ها هو ينتظر مجدّدا ما ستمخّض عنه قريحتك هذه وها هو بين أمل وملل فأيّ إضافة طفيفة إلى مقاطع معروفة وأي تحوير في النصّ وأي تجربة جديدة على حواشي التجربة وهل سترضى عن هذه القطعة أنت الذي لا يرضيك شيئ.

يتواصل صمم القلب عن هذر الرفيق المشاكس. هو الآخر ككلّ بوّاب عجوز ملّ تراكم وتزاحم وتتابع نفس الموجات من نفس السكّان وتاقت نفسه إلى التقاعد يردّد نفسه من الأزل دون أن يشعر..

أتصوّره يناجيك وقد غمرته موجة من الشّفقة صدى لما يعتمل داخلك وأنت تلبس عازما متردّدا ثوب الإحرام.

آه يا مسكين أيّها التائه الأزليّ.

ألا تتذكّر.. ألن تقتنع... ألا تفهم ما الضياع ألا تعلم أنّك لن تجد مكانا تستقرّ فيه أنّك ستخرج منه كلّ مخبأ قسرا لتضلّ الطريق أكثر من مرّة... أنّك لا تتوهّم أن هذه هي ضالتك المنشودة إلاّ ليتّضح أنّك قد ضعت مرّة أخرى ألا تعلم أنّك ستضيع إن أنت رفضت الحركة وأنّك ستضيع إن أنت تحرّكت.

ألا تعلم أنّك ستبقى ضائعا طوال التّجربة لا تعرف من أنت من أين أتيت أين أنت ماذا حولك.. ماذا فوقك.. ماذا تحتك

إنّك ضائع بالضرورة في كلّ هذه المجاهل السحيقة ذرّة في صحراء ذرّة تتقاذفها الرّياح العاتية..... تائه في الزمان ريشة تتقاذفها الرياح العاتية لا تعرف منه ما ذهب ولا تعرف منه ما سيأتي.

لماذا أتيت لتضيع مرّة أخرى في كلّ هذه الزحمة وفي كلّ هذا الزخم وفي كلّ هذه المبالغة. لكم ستضيع وأنت تشقّ لك طريقا صعبا بين كلّ أمواج التائهين المتلاطمة دون أمل. كم ستخبط داخل كلّ هذا وأنت تحاول أن تتعرّف على الشيء وعلى نقيضه.

لكم ستتابع أمامك الكائنات تستعرض منها جيوشا متراحمة فلا تتمكن الذاكرة إلاّ من

بعض الوجوه وتضيع البقية في الضباب. لكم ستضيع في متاهات الواحد منهم تتلمّسه وتتحسّسه وتعتقد أنّك عرفته ويذهب وهو منطو على سرّه.

لكم ستضيع في قصصهم وأقوالهم وهي تتضارب وتتناقض.... عن كلّ موضوع.. عن كلّ شيء. كم ستضيع وأنت تتعصّب لهذه القصّة أو تعلن الولاء لهذه الرواية وكم سيتعمّق ضياعك وأنت توغل في هذا الطريق أو ذاك.

كم من حلقة مفرغة ستدور فيها. كم من هذيان جماعي ستدخله وقد لا تخرج منه قبل نهاية الرّحلة. كم من هوس وجنون ستشارك فيه بوعي أو بدونه. كم من خطأ ستظنّه حقيقة. كم من حقيقة ستراها خطأ.

لكم أشفق عليك وأنا أراك ذرّة رمل تتقاذفها الرّيح.

لكم أشفق عليك وأنا أراك تأخذ هذا الطريق والحال أنّه ليس الطريق ولكم أشفق عليك وأنا أراك تتفاعل مع كلّ ما يملأ الموجود وأنا أعلم أنّك لا ترى ولا تسمع وكم أشفق عليك وأنا أراك تغوص في ما تظنّه حقائق وقناعات وهي ليست إلاّ روايات تروى وقصص تحكى وتمثيليات تمثل لكم أشفق عليك وأنا أراك تتلمّس طريقك في كلّ هذا الضباب وهذه الظلمة وهذا الاتساع لا تقودك إلاّ أشباح متراقصة وإشارات ضوء تأتيك من هنا ومن هنا لكم أشفق عليك وأنا أراك تحتضن كائنا تلتصق به تريد أن تمزج روحك بروحه ومسامّ جسدك بمسامّ جسده ليهدأ روعك ولترتاح وأنت بهذا لا تلمس إلاّ فراغا ولا تتحسّس إلا سرّا ولا تدخل إلا السّور الأول من قلعة مسوّرة بألف سور.

آه أيها التائه المسكين.

لكم أشفق عليك من حلّك وترحالك داخل نفسك تبحث عن السرّ ولا تجده تبحث عن المعنى فيختبئ وراء ألف حجاب.. تبحث عن سبب ضياعك فلا تزداد إلاّ ضياعا.. تبحث عن مكان تأوي إليه هربا من كلّ هذه الروعة وكلّ هذا الرعب فلا تجد إلاّ العراء.

نعم لماذا أتيت وأنت تعلم أنّك لم تأت إلاّ لكلّ هذا وأيّ متعة ومصلحة تجد في مثل هذا الضّباب.

ها قد آن الأوان ليرتفع الصّوت وقد توهّج كالجمر أذكته الرّيح:

- بل تقدّم لا ترهب شيئا أو أحدا فهذه اللّعنة هي اللّعبة واللعبة أن تتسلّل كالطيف بين الضباب.. أن تدخله بكرا.. غابة كثيفة بحرا هائجا مضطربا.. صحراء مترامية الأطراف لتشعر ويأتيك كلّ الممكن من الأحاسيس وكلّ الممكن من الأفكار.

يالها من متعة أن يكون وراء كلّ منعرج مفاجأة ووراء كلّ أكمة مغامرة ومع كلّ موجة طعم جديد للرذاذ. هكذا ستراك تتجدّد وفي كلّ لحظة تجدّد كلّ الذي حواليك.

ترى ما الذي كنت تجنيه لو وصلت عالما مفتوحا معروفا مألوفا.

واللّعبة أن لا تعرف لأنّك لو عرفت كلّ شيء لما كان للّعبة من معنى واللّعبة أن تتجاوز وأن تتطاول وأن لا تكفّ عن التجريب أن تتحدّى وان تعرف حلاوة النّصر ومرارة الهزيمة.. أنت لم تأت لتكتشف حقيقة لأنّك أنت الحقيقة. أنت لم تأت لتحقّق نصرا لأنّك كلّ نصر وكلّ هزيمة. أنت لم تأت لتزيح النقاب عن سرّ مخفي لأنّك النقاب والسرّ واليد الذي تزيح. أنت لا تضيع أبدا لأنّك لم تأت لتجد شيئا أضعته ولوكان طريقا وهل تضيع الموجة في البحر وهي البحر وهل تضيع الزرقة في السماء وهي السماء وهل تضلّ الكائنات طريقها وهي التي ترسم كلّ طريق.

أنت لم تأت لتبتّ في حقيقة ما يروى عن الموجود وإنّما لتكتب فصلا من فصول قصصه لتعلب دورا في مسرحية أنت دوما بطلها الأوّل.

وكأنّني بك تسترجع هدوءك وكأنني بالصّوت يعلم أنة مازال أمامه الكثير قبل أن يتغلّب على ما فيك من تردّد وإحجام وكأنّني بالقابلة الكونية تهزّ كتفيها ولسان حالها يقول: لقد أعذر من أنذر.

يعدّ البوّاب العجوز رغم تذمّره العدّة لهده الرحلة التي لا يذكر لها رقما رغم أنّ القاعدة أن تكون أول رحلة لأوّل رحّالة في أوّل لحظات أوّل عالم.

ها قد قرب الحدث الجلل.

نعم قربت الأزمة الكبرى والوصول أخطر قرار تتّخذه فلا نكوص على الأعقاب وللطريق اتّجاه واحد إن أنت اتّبعته قادك إلى مجهول لا ينبئ بخير وإن قعدت على جانبيه مشى بك إلى نفس المجهول بالرّغم من أنفك وإن أنت خرجت عنه لم تجد غيره وإن أنت هربت منه طوّقك من كلّ الجهات وإن تثاقلت خطاك حثّ بك السير وإن أنت هرولت وضع في وجهك ألف حاجز وحاجز.

تتسارع الإعدادات تتكثّف العجلة الدائمة التي تطبع حركات هذا الموجود وسكناته وتصرّ أنت على أن تأخذ كلّ الوقت... ألتكون جاهزا أم لأنّ فيك خشية مبهمة تتعاظم كلّما اقتربت السّاعة.

* * *

٢ ـ وفي تصوّره لمصاعب الإحرام الانفصال وكيف أنّك تدخل العالم وأنت بين رغبة ورهبة تقدّم رجلا وتؤخّر أخرى قال الرّاوي:

تنقلب الذات على الذاكرة تريد أن تستحضر تلك اللّحظات الغنية تفتّش بنهم شديد عن كلّ الظروف عن تفاصيل الوصول تبحث في ثناياها عن لغز أو معنى أو درس.... عبثا. لا أذكر شيئا ممّا حصل في الدّاخل وأنا استعدّ وأتهيّأ لكنّني أذكر كلّ شيء تفاصيل الحلول وأنا أعايش دخول من كنت جسرها ودليلها إلى عالم الرّحلة.

ولأنّ القصّة واحدة فإنّه لا يضيرني أن أغيّر مرّة أخرى من موقع المشاهدة مثلما لا يضيرني أن أقول تارة أنا وتارة أنت وأخرى «هو» أحيانا هي بما أنّ المعنيّ به نفس البطل: الواحد المتعدّد. تبقى إذا تتشكّل بيطء داخل الرحم وداخل الفكر. تدخل الموجود عبر طريقين وحالتين مادّة ملموسة وفكرة مبهمة.

تتبادر كاحتمال كإمكانية. يتلامح طيفك في ذهني ومخيّلتي قبل أن تكون اسما أو شيئا. تدعى للوليمة أو تدعو نفسك دون يعرف الدّاعي من سيلبّي الدعاء وماذا سيفعل المدعوّ بالدعوة وإنّما هي ضرورة قاهرة قلّما يمكن عصيانها.

إنّها فعل بدون فاعل إرادة غامضة لا مرّد لها أكنت صاحبها أو ضحيّتها.

تأتي الموجود على أطراف الأصابع. تتسلّل إليه رويدا رويدا. تخرج من العتمة متردّدا وجلا وفي آن واحد مدفوعا بقوّة قاهرة ملفوفا بقماطة السر والغرابة منذ البداية.

إنّ أهم ما يحدث في هذه اللّحظة التي تصل فيها قبل أن تصل وتوجد قبل أن توجد هو حدّة ردّ فعل الموجود. تدخل منذ تلك اللّحظة التي تضطرب فيها الخواطر وتتسارع دقّات القلبين. تتصاعد من الأعماق مشاعر هوجاء مضطربة تغمرك. ها أنت وما زلت طيفا تحدث في الموجود فوضى وبلبلة. ها أنت ولا زلت احتمالا مبهما قادرا على التأثير وفي أعمق المستويات وأخصها.

ـ طلبك المخبر.

أردفت بإبتسامة فيها شيء من السخريّة والعطف:

ـ النتيجة إيجابية.

ولم يكن مسموحا بتقبيل الممرّضة التي أعلمتني أنك قرّرت إن تأتي وأن تختارني دليلا.

يسري خبر وصولك القريب. يتسرّب من أضيق الدوائر إلى أكثرها اتّساعا. تسكن أدمغة وأنت لم تصل بعد.

تحتدم الفرحة العارمة في الصدور وينمو هنا وهناك التوّجس والخيبة والحذر والغيرة وأشياء أخرى كثيرة لا قبل لك بتصوّرها. يتعوّد على وجودك بعض من بني سفر وأنت لم تنزل بينهم. ويوسّعون جزءا من المكان من غير وعي وتدخلهم طيفا وسرابا فتحدث من التغييرات ما لا تعلم ولا تتوقّع.

هكذا تتهيأ الكائنات لمقدمك وأنت ما زلت تغفو في سبات ليس بسبات بين الوعي واللاّوعي في تلك المنطقة الحرام التي تصل ما وراء الباب بالكهف الذي لازلت تختبئ داخله.

لقد أصبحت الآن ظاهرا للعيان وطيفك لا زال مخفّيا بلا جنس بلا شكل بلا ملامح.

يستعصي إخفاؤك على كلّ تلك النظرات المبتسمة اللّطيفة الودود التي تتوقّف هنيهة فوق ذلك الانتفاخ المحترم لبطن جاهدت دوما صاحبته في جعله مبسوطا لا يلفت النظر.

كانت تمشي متثاقلة تدفعك أمامها تفتعل التواضع تغالب فخرا صامتا وزهوا طفلانيا تئنّ تحت الثّقل والضّغط سعيدة راضية تتأرجح بين رهبة وخشوع.

يخيّل لي ولا بدّ أنّه يخيّل لها أنّها أوّل من حملت وأوّل من ستلد وتلك إحدى خصائص الموجود أنّه بكر في كلّ آونة ولحظة مهما تقادم عمره.

تخصب الأنثى وهي واحدة من بين جماهير متلاطمة منذ فجر الحياة وكأنّها أولى من تحبل. تتواصل الحياة طفولة متجدّدة وشبابا متجدّدا وشيخوخة تكرّر نفسها منذ أن كانت الكينونة ولا شيء في كلّ هذا التكرار مكرّر ولا شيء في كلّ هذا التعداد عادي ولا شيء في كلّ هذا المعروف مبتذل.

أغمض عيني لأتخيّل تلك البطون التي تملأ أصقاع الموجود وهي تنتفخ. تحضرني صورة ارتفاع سطح الفطيرة وقد اعتملت داخلها الخميرة. تحضرني صورة الأرض وحمرتها تختفي تحت ارتفاع سنابل القمح. تحضرني صورة السماء وقد امتلأت سحبا. تحضرني ألف صورة وصورة عن عالم أنثى حبلى على الدوام عالم تنتفخ بطنه ثم تعود إلى امتدادها لتنتفخ من جديد في نسق متسارع منتظم كلهاث الراكض عالم لا همّ له إلاّ الحبالة والولادة والرضاعة الأزلية.

تقول قصص بعض الرحّالة أنّك يقظ تحت ذلك الانتفاخ تتابع بعينيك وبأذنيك بألف حاسّة وحاسّة غير مفهومة ما يجري حواليك.

ويقال أيضا أنّك تدخل مبكّرا في شبكة الإشارات الغامضة التي تتبادلها مع تلك التي

تحملك وهي على غير بيّنة أنّك تتجاذب أطراف حديث مع روحها وأنّك لست بالسّذاجة التي يقولها بعض الرواة المغفّلون. تبقي مصرّا على صمتك على غرابتك وكأنّك غير معنيّ تماما بما يحدث داخلي وحواليك كلّ هذا الهرج.. بكلّ هذا الشّوق.

تريد القصّة أن تحملك الأنثى وأن لا يكون للذكر إلاّ الدور الثاني وهو ما سيطبع علاقة الاثنين بطابع خاص للغاية.

لابدّ من لقاء أوّل.

يتواجه فجأة طيفان يتراقصان في ضباب أحلامهما وهنا لا بدّ أنّها ابتسمت وهي بين النوم واليقظة أو هي بين غدو ورواح لا تعي أيّ معجزة أخرى حدثت. ها أنّتما تتواجهان ولا تنطقان حرفا تتعرفان بعضكما على بعض ولستما بحاجة إلى شيء أو أحد.

وأنت كما نحن كلّنا لن تحفظ من ذلك الحوار الصامت إلاّ معالم باهتة لا تترجم إلى أي لغة معروفة وهي كذلك لن تحفظ من نقاشكما إلاّ مشاعر مبهمة غاية الإبهام لا تترجم إلى أي أية لغة معروفة لأنّه لا حاجة لكما للترجمة والمترجمين.

يدخل ذلك النقاش في منطقة السرّ الكثيف ولا طاقة لأحد ولو أنت باختراقه ولأنّ الفضول كالسرّ يستعصي تجاوزه فإنّ المخيّلة هي التي تنتقم من صمت الذاكرة ومن ثمّة فإنّني «سمعتكما» تتهامسان.

ـ كيف.

ـ هكذا..

ـ كيف.

ـ دوما هكذا.

ـ كيف.

ـ هكذا.. هكذا.. حسنا...

يتواصل الحوار بينكما وأتصوّر فيه نبرة ترتعش وأنّه كان همسا وأنّه كان حفيفا وأنّه كان إشارات برقّة التّسيم أنّ وراءه شعور مبهم كالحجر قبل أن يصبح تمثالا وأنّه كان كما قبل الخوف وكان كما قبل الشفقة وأنّه كان كما قبل الحبّ.

يتواصل الحلم.

ـ أنا...

ـ نعم.

ـ أنت..

ـ نعم.

ـ أنا أنا.

ـ نعم.

ـ أنت أنت.

ـ نعم.

وأراك طيفا يتسلّل داخل هذه المغارة السحرية وأراها صامتة ساكنة تتركك تتحسّس فكرها كما ستتحسّس يوما صدرها وبطنها وشعرها ولأنّك طيف جديد فإنّها تشعر بتردّدك بضياعك.

يأتي الإيضاح رقيقا.

ـ كيف.

ـ هكذا.

ـ كيف.

ـ دوما هكذا.

ـ ماذا.

ـ أجل.. أجل.. عظيم.. عظيم.

تكتسب المشاعر الغامضة ملامحها دون أن تفصح عن هوّيتها ولأنّه لا حدود بين الموجودين ولأنّ كلّ ما فيهما يتمازج ويتداخل تفتح لك الفكر والذاكرة والمخيلة وكلّ أسرارها الكامنة داخل كلّ الخزائن المغلقة.

ـ هذا

ـ نعم

ـ هذا أيضاً

ـ نعم

ـ هنا

ـ لا

تفتح الدواليب وتقرأ الرسائل المنسيّة. تمرّ إلى الرفوف تستعرض عناوين الكتب. أراك تتوقف طويلا عند هذا العنوان أو ذاك. تأتي الموجود خالي الوفاض لكنّك الآن في قلبه الخفّاق. لا بدّ من مواصلة التأهب والاستعداد وأنت في هذا الموضع من القصّة لا تحاول أن تتعلّم وإنّما أن تألف الملامح الجديدة وأن تألف هذا الذي سيكون أوّل وأهمّ دليل.

ثمّ إنّ هناك وراء الدليل دليلا وكأنّك تشعر بوجوده مخفيّا داخل الخفاء.. مبهما داخل الإبهام.. غامضا داخل الغموض. تشعر به قويّ الحضور وقد تعي وأنت تصعد وتهبط بين الرفوف وتراكم الصور أنّك لا تبحث إلاّ عنه...

انتهت مراسم التعارف ولا بدّ لك أن تواصل الجولة داخل الحلم المغلق وكأنّني أراك تستعرض كلّ الأشباح التي تنام في ذلك المستودع السحري تورّق صور ألبوم العائلة لتترابط وتتحّد لتتواصل كما تتواصل الكلمة في الجملة والجملة في النصّ. ها أنت تقرأ ما خطّته الأحقاب والدهور في كتاب الحياة فتحملك الذكرى إلى أعلى وأبعد وأعمق وهكذا تستعيد ذاكرتك وهكذا تضع العلامة تلو العلامة على ذلك الطريق الآتي من أعماق الزمان. يتّضح لي لماذا يجب عليك أن تبقى كلّ هذا الوقت مخفّيا منطويا على نفسك ويبدو لي بديهيا أن عليك أن تروي وأن تتشبّع بكلّ ما تنطوي عليه وتحمله خزانة الذاكرة التي وضعت فيها أنفك بإذن وتشجيع. ولأن ما تقرأ جملة من الأسرار ولأن الحفاظ عليها جزء من الصفقة فإنّك لن تخرج لتفضح ما رأيت وما قرأت وإنّما أنت ستنغلق عليها بقدر ما هي انفتحت لك وهكذا تكون دخلت الأسرار لتتشبّع بها لا لتسلّط عليها النور وهكذا تفهم ما ستنساه مرارا أنّ السرّ ليس للفكّ وإنّما هو جعل لكي يبقى سرّا على الدّوام وإنّك أتيت لتذوب فيه لتصبح جزءا منه جزءا حاملا له.

* * *

لا أدري هل تنتهي جولتك داخل المكتبة برأي أم أنّك ترجي كلّ رأي وكلّ موقف وأنّك تكتفي من الوليمة بما أخذت واستبطنت.

يتواصل الحوار.

-

- نعم

- نعم

-

- نعم

- ضروري

- نعم

- كفى

- نعم

وهكذا تكون أقنعتك أن عليك أن تواصل وهكذا تبدّدت فيك كلّ المخاوف وهكذا انزاح منك كلّ تردّد وهكذا قربت لحظة الدخول.

أتخيّل أنّها الآن تدفعك خارج فكرها بلطف وحزم.

تنسحب على أطراف القدمين لا قبل لك بردّ الأمر. تفهم أن عليك الآن أن تنغلق على ذاتك لتبوّب لتصفّف لتضع الجمل وراء بعضها البعض ليكتسب النصّ تناسقا وقد تتوقّف طويلا عند صور الدليل الذي هو أنا تستكشف مجاهلي تنظر إلي بعيني من تحملك وأرهب أن تراني في شكل قد لا يرضي غروري أو أن تخطئ فهمي لأنّ سوء الفهم جزء مصاحب للعالم الذي ستدخله.

ولعلّك أدركت أنني آنذاك أيضا دليل لعالم ستدخله قريبا وأنني مجرّد غلاف لكتاب ستتصفحه مليّا وكم من أشياء فيه لن ترضيك وكم من أخطاء ستودّ تصحيحها وكم من فصل ستودّ أن تكون له نهاية أخرى.

بدأت أولى المراسم أو انتهت لا بدّ هنا أن تواجهني وأواجهك. أملأ منك نفسي وأنت تتراقص أمام عيني الروح المشدوهة مشدوها.

يحضرني أنّك تشق لك في هذه اللّحظة طريقا في ألف نفق ونفق وفي هذه اللّحظة التي تتواجد شيئا فشيئا في أحشائها وفي فكري أتخيّلك تتجسّد في ألف جسد وألف فكر. إنّك واحد تشبه نفسك في كلّ الأجنة التي تعتمل داخل كلّ الأرحام وأنت متميّز مختلف في كلّ رحم وإنّها حقا لأعجوبة الأعاجيب قدرتك هذه على أن تكون واحدا متعدّدا ومتعدّدا واحدا.

إنّ ما أتذكره أوّل ما علمت أنّك بدأت تتشكّل في صمت داخل الأحشاء أنني شعرت بالزهو والخيلاء لأن جسمي غدا جزءا من الجسر الذي يعبر عليه بنو سفر.

لكم أعملت الفكر والمخيّلة لأتصوّرك وأنت تتسلّل من بين دفّتي الباب المهيب وقد وضعت على وجهك واحدا من الأقنعة.

كانت أوّل صورة طبعت فكري غاية في الغرابة. كانت شكلا بلا شكل معنى بلا معنى نقطا رمادية وسوداء على ورق صقيل أملس: أنظر هنا.. هذا الرأس وهذه الأطراف. نظرت فلم أر إلاّ نقطا رمادية سوداء على ورق صقيل أملس.. وكان ذلك أولّ لقاء لنا وكان ذلك أوّل قناع عرفتك به.

ثم إنّني شعرت بالمسئولية وضخامتها ثم إنّه اجتاحتني موجة من الخوف أن لا تصل أن تضلّ الطريق أن تنكص على الأعقاب أن ترفض الحياة. كم كنت أرهب أن لا تحسن الأيادي الخفية الطرز أن تنسى مقطعا من الخطاب أن تأتي مسخا مشوّها ثم إنني تغلبت على الخوف وروّضته ثم إنني وضعت أذني على البطن المنتفخ أسترق السمع وقد تملكني

فضول جارف ثمّ إنّه عاودني خوف المسؤولية الكبرى وهالني ما ينتظرني معك من مشاقّ ومن طول الطريق.

ثم إنني شعرت بالرغبة الجارفة للتعرّف عليك الآن وأنت لم تتّضح ولم تنضج بعد.

ثمّ إنني بدأت أعدّ المراسم والطقوس وما أكثرها لأنّ وصولك ليس أمرا سهلا وليس مجيئك بالحدث الهيّن.

إنّ إحدى إشكاليات هذا العصر الوهم في إمكانية وضع مصفاة وحواجز وشرطة مرور وكشك قمارق حتى لا يدخل القادم الجديد إلاّ إذا كانت له كلّ الوثائق الضرورية حتّى تكون احتمالات القصّة التي يحملها داخله سليمة متماشية مع ذوق المرحلة ومتطلّباتها.

لكنّك تعرف كيف تصل وكيف تدخل ولو وضعوا ألف برج وبرج ولو طوّقوا الموجود بكلّ الأسلاك الممكنة.

لقد جعلتك تمرّ عبر هذه الحدود ومراسيمها لا لأنني كنت لن أرضى بك إلاّ إذا وافقت صورة محدّدة ولكن لأنني أردت لك أن تصل سالما معافى وأن لا تدخل بكارثة لم يكن لي قبل بتحمّلها. أستبق الأحداث من فرط شوقي إليك. أتخيّلك تجسّدت الآن في شكل وفصيل وجنس.

تبان لي الصور وأنا أمسك باليد التي تشاء والدليل الآخر يمسك بالأخرى. نأخذك بيننا على الطريق الطويل وأنت لا تتوقف عن الصراخ: هيّا ارفعاني.

تقبض اليدان بلطف حازم على يديك البضّتين. ترفعان جسمك الصغير بقوّة إلى الفوق وتبقين معلّقة للحظة في الهواء تصرخين مفتعلة الخوف تطالبين بأن لا تتوقّف اللعبة أبدا. ويحلو لي أن أتصوّر أنّك رفعت ببطء شديد يدك وأنّك وضعتها طويلا أمام عينيك تنظر إليها باستغراب أوّل مرّة وأنّك رميتها أمامك بتلك الحركات المتقطّعة لكل مسافر مبتدئ وأنّني أخذتها بيدي اليمنى وأنني أخفيتها في راحتي وأغلقت عليها أصابعي بلطف وأنّك ابتسمت آنذاك وأنني كنت متأثّرا وأنّها هي الأخرى كانت في منتهى الهدوء الغبطة وأننا تلاقينا ثلاثة في واحد.

وواحدا في ثلاثة وأننا أبرمنا الصفقة في تلك اللّحظة.

وهكذا رأيتك قبل أن أراك بظفائرك السوداء الطويلة وفستانك الفاقع الحمرة بنقطه البيضاء وجواربك البيضاء القصيرة وحذائك اللاّمع السواد.

يأتي زمن تستعصين فيه على الرفع. يحدث ما لابدّ من حدوثه.

تزيحين اليد الممسكة بيمينك بلطف وقد تزيحين اليد الممسكة بيسارك بشيء من نفاذ الصبر ولا يبقى على الدليلين إلاّ أن ينظرا إليك وأنت تدخلين الزحمة. وأن يتمنّيا لك حظّا سعيدا.

ثم بعد هذا جاءت الأوهام والأحلام والمشاريع فرأيتك كائنا ولا ككلّ الكائنات نجح كلّ ما أخفق وبني كلّ ما تهدّم وأحييَ كلّ ما مات كائن سوّى كلّ اعوجاج في الموجود.

تحلّق بي المخيّلة بعيدا لأراك بطلا في ألف دور ها أنا أريدك أن تلبس كلّ الحلل أن لا تشرق الشمس إلاّ لك أنت.

أثوب إلى رشدي لأن القصّة التي أتخبّط داخلها فيها النقص والخطأ فيها الحدود والبتر فيها التقهقر والضعف فيها التفسّخ والانحلال والشر فيها الفشل والألم فيها الموت والتيه وفيها العبث المحض.

تغمرني بغتة مشاعر الشفقة والحنان. ينقلب الخوف أن لا تصل إلى الخوف أن تصل أشعر فجأة أن الواجب أن أقول: قف لا تخط خطوة أخرى.. اذهب... لا تأت.. لا تأتوا.. ارجعوا من حيث أتيتم فلا أردأ من هذه المسرحية... إنه عالم المخالب والأنياب عالم الألم والرعب عالم الفظاعة والقبح عالم الهوس والجنون... إنّه عالم لا يتجدّد إلاّ كذبا إنّه سراب إنّه فخّ إنّه أكذوبة إنّه خدعة.

ومن بني سفر من تستبدّ بهم مثل هذه المشاعر فيقطعون عليك الطريق ويوصدون أمامك الباب فتنحسر على أعقابك. لا يدري أحد هل قبلت ما قرّروا أم هل كنت تقبل بصفقة الوجود على تواضع إمكانية الربح.

تراني مصّرا في خضّم هذه الفوضى وفي زخم الحركة الهوجاء وفي وسط تلك العتمة وسكّانها الّذين لا يحصون والموجود آكل ومأكول ووسط قعقعة السلاح وصراخ الألم وزفرات اللّذة على أن تأتي وتراني منهمكا أهيئ لك مكانا آمنا لتدخل الحياة كفراشة تنزل على وردة تستحمّ بالندى.

ها هو المهد الصغير بخشبه البنّي البرّاق وعجلاته الصغيرة الحديدية الأربع لتكتشف المكان الذي اقتطعنا لك ولنا مؤقّتا من الأرض تختبئ فيه ونسترجع فيه الأنفاس.

يبدو لي ذلك المهد الفارغ المعدّ لك أنت الذي أصبحت شكلا مبهما وموجودا فجأة ملآنا بآلاف الاحتمالات فارغا بعدمها المرعب. ألمس فراغه أتحسّس كائنا لم يكن ولن يكون لأنّ الرّيح طوّحت بي شمالا عوض أن تحملني نحو الشرق فأبعدتني عن الطريق الذي كان لا بدّ منه لأن يكون لأن يكونوا.

تتمكّن مني أشواق مبهمة وحنان جارف لكلّ تلك الأطياف التي لم ولن تتجسّد أبدا.

تتراقص وجوه لا حصر لها لأطفال وبنيّات ولا أدري هل يجب أن أضحك من الشّعور بالذنب وهو يطلّ برأسه القبيح أم هل عليّ أن أستسلم لكآبة عذبة لا يبرّرها عرف أو منطق.

تتكدّس الملابس التي ستحمي جسدك الرّقيق من لسع البرد وتراها هي - الدليل والجسر

والعربة ـ تختارها لك وكأنّها تعدّك لمعرض أزياء.

ألست أجمل هدية جادت بها الأقدار. تتكدّس اللّعب تنتظر يديك البضّتين وأصابعك المرتكبة لتتعلّم عبرها بعض وجوه الكائنات وبعضا من قوانين اللّعبة وأنت ستظلّ تلعب إلى أن تنتهي الرحلة.. لعبة الولادة ولعبة التوليد.. لعبة الكره ولعبة الحبّ.. لعبة الحياة ولعبة الموت ولن تعوز من يلعب معك وكم سيكون اللّعب أحيانا فظّا قاسيا.

ينتابني مجدّدا هنا شعور الإشفاق لأنّك قد تجرح في تلك الأماكن الظاهرة المعرّضة المكشوفة من جسمك وقد تصيب الرضوض منك الروح وقد تصل آخر نقطة من المسار وهي كسطح القمر مغبّرة اللّون ليس فيها جزء وإلاّ وهو حفرة تجاور حفرا.

تسكن المهد وأنت لازلت خيالا وسرابا. أتخيّل لك كلّ الملامح والقسمات. أنظر إلى كلّ رضيع يقطع طريقي وهو بين أحضان حاميته فأراك في كلّ مولود صارخ وأغالب النفس حتّى لا آخذك منها بين ذراعيّ.

انتهت الأيادي الخفية من الأشغال الكبرى والآن وقد امتلأت الذاكرة وانغلقت الآن وقد تسرّبت إلى كلّ جزء منك لتلعب دورا أخيرا في صقل هذا المقطع وتلوين ذلك الجزء من اللّوحة وكبس ذلك الوتر لكي لا يصدر إلاّ نغمة محدّدة.. تكون قد أصبحت جاهزا للمرحلة المقبلة.

تنطلق الصرخة ويتمازج الألم بالألم وتطغى على مسامّ الروح مشاعر الرهبة ويتّخذ الزمان اتجاها جديدا.

* * *

يصادف أنّني كنت من أهل المهنة والذّكر والقرابة بمن اختصّوا بمراسم الاستقبال وجعلوا منه دورا من أدوار تمثيليّتهم وهكذا دخت المكان الذي ستنزل فيه لأراقب بمنتهى الفضول كيف ستصل... لأحضر وصولي ووصولنا جميعا.

إنّ هناك حيلا طريفة لمخادعة الذاكرة المغلقة وكم أجهد بنو سفر أنفسهم ومخيّلتهم لخلق آلات تحفظ هذا الحدث الفذّ وأخرى ترجع بكلّ إسهاب ووضوح ما امّحى من الذّاكرة. هكذا أصبح من الممكن أن تجلس سنوات وسنوات بعد الوصول وأن تشاهد كلّ التّفاصيل ترى أيّ علاقة تبنى آنذاك بين الذات المشاهدة وصورتها وهي تتبلور لحظة بلحظة وأيّ مشاعر مضطربة تعتمل آنذاك داخل المشاهد هل تثير فيه هذه الصور ذكريات باهتة تنفجر فجأة وعيا وتذكّرا.

يقال إنّ المعجزات التي يتمخّض عنها دوما هذا الموجود السحري قد تذهب إلى أبعد من هذا وأنّ منّا من سيحضر مراسم وصوله أو بالأحرى وصول نسخة طبق الأصل منه نسخة لها كلّ مواصفاته وملامحه.

ولأنّني لم آت زمان أحفادي وأحفاد أحفادي ولأنني وصلت متخلّفا عن زمني نفسه بما كان يزخر من إمكانيات فإنّني اكتفيت لملء فراغ الذّاكرة بمتابعة مراسم دخول من كنت سببا وأداة في حضورها إلى الموجود.

والقاعدة أنّك تأتيه والألم يعتصر تلك التي تحملك.

لا أحد يعلم هل في هذا ضرورة ومن بني سفر من يريدون قصّة تصل فيها وقد تمكّنت من الجسر والدليل ارتعاشه اللّذة فتخرج وكأنّها في ذروة الجماع لكن الأمور اتّخذت لها طريقا غير الذي نريد لا أحد يعلم هل أنت أيضا تتألم.

تحضرني هنا كلّ تفاصيل ذلك المكان المعقّم ونساؤه بردائهنّ الطبّي الأخضر وآلاته التي تراقب تطوّر خطواتك الأولى وتحضرني صورتها وهي تنتظر مرهوبة موجوعة وسعيدة.

لا زلت وراء وداخل ذلك البطن المنتفخ وقد تكوّر وامتلأ واستدار بصفة لم أرها من قبل وكانت صاحبته تخفيه وراء ستار شفّاف من الحياء لا تقبل عليه يدا أو أذنا إلاّ لفترات ضاحكة قصيرة وأنت إلى هذه اللّحظة لا زلت شكلا بلا شكل فكرة بدون مضمون واحتمالا بدأ يتبلور. لا زلت تلبس القناع ولو أنّك ستلبس شكلا منه لأوّل مرّة بعد هنيهة.

تواصل الأيادي البارزة حركة الأيادي الخفّية التي تراجعت وتبخّرت وكأنّها لم تكن ولم توجد. إنّها الآن تعدّ الفراش الوثير والمخدّة التي سيستلقي عليها الرأس المرهق والخرقة النظيفة التي ستعضّ عليها النواجذ والآلات حين يكون هناك ضرورة لآلات وأدوية وأشياء أخرى لا ينتبه إليها الدليل الثاني وهو يغالب عصبيّته ونفاذ صبره.

تصاب فجأة الأيادي بنوع من الحمّى. تتسارع وتتدافع. يزداد الصراخ حدّة. يرتبك في داخلي ما كان منظّما وأصاب بنوع من الدوران ثم إنني أشعر أنّك فجأة في خطر أنّك قد تصل أو أنّك قد لا تصل.

يضعون على البطن المنتفخ وعلى جسمك المخفي آلة تسترق دقّات القلب وأراها تتابع على ورق التسجيل مضطربة متردّدة تخبط خبط عشواء وتتداخل ضربات قلبي. تتعثّر هي الأخرى. يتصبّب العرق من جبهتها ومن جبهتي وتعضّ نواجذها لا تمنع الصراخ وأعضّ على نواجذي أمنع الصّراخ فيشق له طريقا داخل الأحشاء يتردّد صداه الصامت في كلّ أنحاء الروح.

ولأن من تقاليد العصروطقوسه أن تفحص وأن تجسّ لأنّه عالم مسكون بهاجس الهشاشة والعطب فإنّك تخضع إلى نظرة من نوع تقيّم حظوظك للبقاء في ساحة الوغى وقدرتك على الدخول والمضيّ قدما على الطريق الطويل بقدر ما يفتح لك الموجود ذراعيه بقدر ما هو حذر شاك محتاط خيفة أن تأتيه مضيفا الهشاشة إلى هشاشة وأن تكون عالما عبئا على عالم.

تمرّ العاصفة. تتباطأ الأيادي المحمومة وتنتظم دقّات القلوب وتتناسق ولو أنّك تسرع

حين أتباطأ وأشعر كم أنت في موقف صعب وأن عليّ أن أهدئ من روعك ومن روعي ومن روعها.

وأتكفّل وأتكلّف وأجد صدى ولا أجد صدى أطالب بالشيء ونقيضه ولا أعرف ما أفعل بيديّ وبأصابعي وبهذا الجسم الذي يحتّل من المكان ما ليس له حقّ فيه. أفتعل اللاّوجود حتّى لا أثقل كاهل مدير التشريفات ونسوة تتراقصن حولي تفتعلن من الأهمية ما لهن فعلا.

وفي نفس اللّحظة وبنفس الكيفية وببعض التفاصيل المختلفة هنا وهناك وفي ألف مغارة ومغارة وعلى ألف فراش وفراش وداخل ألف عشّة وعشّة وألف قصر وقصر كنت تتأهّب أنت الذي أرهقتنا بطول تأهبّك أنت الذي لا يبوح لي بما كان يجتاحك في تلك اللّحظة. لا يبقى عليّ كالعادة إلاّ أن أملأ بنفسي البياض.

ولأنّه لا مناقش لك إلى حدّ هذا المفترق إلاّ هي فإنّ آخر اللّمسات ربّما كانت كالتّالي:

-

- نعم - سالكة..

-

- لا خوف - لا خوف

- ....

(ابتسامة مرحة)

- ....

- نعم

-

- بلى... بلى الآن.. الآن

يتمازج الإرهاق ونفاذ الصبر بروح السخرّية التي حاربت بها دوما فظاعة الموجود. أتدخّل في نقاش أصبح يعنيني شئتما أم أبيتما (شعور مرهف كنسيج العنكبوت من.... الغيرة لطول اختلائكما وإقصائي).

- ماذا... أتريد حالة الطقس وأسعار البورصة وحجزا في فندق خمس نجوم.

تتشنّج القبضة تريد تسديد ضربات للبطن كاللّكمات لتخرج مسرعا بعد طول الدلال. ها أني أراك قد فهمت أن بوسع الموجود أن يكون فظّا نافذ الصبر وأنت ستتعلّم أنّه لا يوجد شيء إلاّ وصاحبه نقيضه توأمه وأنّ عليك أن تكون دوما حذرا وأن لا تتدلّل كثيرا حتى على من نذروا أنفسهم لتدليلك.

يصل نفاذ الصبر ذروته وكأنّك غير واع بما في هذا الانتظار الطويل من إعياء مضض.
تعبرني فكرة غريبة وأنا أنتظر أن تتفضّل أخيرا أن تخرج من وكرك.
أتكون غير راض عن الزمان وعن المكان الذي تتجلّى فيه للعالم.

* * *

وقد تشكو يوما كما يفعل الكلّ عندما تتصاعد مصاعب الرّحلة إنّني لم أختر لك من الزمان أحسنه ولم أختر لك من المكان أفضله إلاّ أنّك لا تستطيع اتّهامي بأنني فضّلت نفسي عليك.

إنّ ما أستخرجه من ذاكرتي وأنا أعدّ لك الموجود أنني أردتك رغم اقتناعي بأنّه لامعنى ولا جدوى لمثل هذه الأفكار أن تصل زمانا غير الذي وصلت ومكانا غير الذي وصلت لكنّها ضروريات الرّحلة وشروطها التي لامساومة فيها.

تراني مع ذلك مصرّا على أن أجهد نفسي لأتصوّر قصّة يكون لي ولك فيها الحقّ في اختيار الزمان والمكان وأجهد عقلي فلا تخرج العقدة عن إرادة النزول في أحسن زمان وأحسن مكان وأعجز عن تعريفهما.

إنّ المكان الأحسن في هذه القصّة التي لا أدري هل ستمثّل يوما هو قصر من النور ومهد من الشعاع وجنيّات زرقاوات شفّافات تتراقصن حول المهد والأمّ أنثى ولا كأيّ أنثى أخرج من جنبها والدليل الثاني بطل خرافي ونبيّ ملهم وباني إمبراطوريات مجالها مجرّات السّماء البعيدة أمّا الزمان فذلك الذي هو على وشك الانتهاء.

هاهو يتباطأ كما يتباطأ قطار يدخل محطّة الوصول. أنزل لأجد القصّة قد أوشكت على الاكتمال تنتظـر البطل الذي سيضع نقطة النهاية في آخر فصل من آخر كتاب.

لابدّ من عقدة في كلّ قصّة تحترم نفسها وتحترم سامعيها لكنّني لا أعرف بالضّبط ما الّذي يجب أن تكون في هذه القصّة. ليكن أنه ينجرّ عن فشل حلّها الحدث الجلل أنه يتوقّف على البطل أن يكون هناك معنى لكلّ القصص التي سبقت أو أن تضيع كلّها في خضمّ شيطان أسمه العبث.

ليكن إنّ دوره في القصّة الختاميّة في خاتمة كلّ القصص أن يبرّر كلّ الآلام.. أن يغفر كلّ الخطايا.. أن يحيي كلّ الأموات.. أن يجدّد كلّ قديم.. أن تلاقى فيه وداخله كلّ الأبطال.. أن يتعارفوا أن يتعانقوا أن يتبادلوا الأخبار كما وقعت.

أبقى هادئا متماسك الأعصاب أمام عظمة التحدّي الذي لم يعرفه مسافر من قبل وأمام هذا الرهان الذي لم يعرفه الموجود فأمام مثل هذه التحدّيات لا مكان لأي صنف من أصناف الهستيريا.

تبقى النهاية غاية في الإبهام لأنّني لم أقرّر إلى الآن هل يجب أن ينقذ الموجود وأن يعطيه البطل المنقذ كلّ مبرّرات الوجود أم هل أنّه لا يستأهل مثل هذا العناء وأنّه يجب على كلّ القصص وكلّ الأبطال أن ينتهوا في سلّة مهملات الكاتب.

تخضع الخاتمة التي أختارها كالطقس تخضع لتطوّرات مزاج يتقلّب بتقلّب الموجود نفسه وهو تارة ككلب أعمل في ساقك نواجذه وتارة كبقرة هادئة حلوب تشرب من ضرعها ثمّ تأكلها وهي لا تعاتب.

نعم لقد حلمت لك أحيانا أن تكون هذا البطل الذي اتضح أنّني لن أكونه.. أن تدخل عالما سحريا تمشي فيه على الماء.. أن تحلّق طائرا في سمائه الرحبة... أن تتمدّد على بساط من السحب البيضاء تحملك بتكاسلها اللّطيف هنا وهناك.

لكم أريد لك أن تأتي الموجود وقد تمكّن بنو سفر من ترويض المكان والزمان لتتسلّل بين المجرّات طيفا عابرا.. لتملأ عينيك من كلّ الروائع التي يزخر بها عالم كريم إلى أبعد حدود الكرم معطاء مبذّر لا حدّ لعطائه أو تبذيره. لكم أريدك أن تصل بعد أن تكون الأدمغة الآدميّة قد تفجرّت عن روائع لا قبل لي بتصوّرها تضع حدّا لسيناريوهات مؤلمة رديئة بشعة. لكم أريدك أن تصل عالما خفّت فيه حدّة التقتيل والتعذيب واختفت منه عادة أكل لحوم الكائنات البريئة. نعم تمنّيت لك أن تدخل قصصا أرقى وتمثيليات أكثر نضجا ومغامرات تستأهل الألم.

لكنّك تدخل عند ما يتقرّر ذلك ولا تدخله لا بشروطي ولا بشروطك ولا يبقى علينا إلاّ أن نهيّأ لك الموجود كما هو في هذه المرحلة من تطوّر القصص.

وممّا أذكره أنّك دخلت في أوّل هزيع من اللّيل وأنّك اخترت أن تأتي والشّتاء قد أناخ بكلكله على المدينة الأوروبيّة العتيقة وأنّك نزلت في محطّة أصبحت شبه إجبارية لنزولك بغرفها المضاءة ليلا نهارا وأسرتها البيضاء وخلّو حيطانها من كلّ صور لحبيب أو قريب.

لكنّني حللت واللّيل في آخر هزيع منه والصيف قد أناخ بكلكله على القرية العربيّة الفقيرة ولم أنزل إلاّ على أرض طينية صلبة فرشت عليها بعض أصناف الكساء الرّيفي البسيط.

يعني هذا أن للعالم ألف منفذ ومنفذ وأن ليس فيه قناة واحدة لا غير تصبّ في مكان واحد وزمن متشابه وهكذا تصوّرت جحافل القادمين يتسلّلون إلى الموجود عبر كلّ مسامّه وهكذا تصوّرت الموجود محطّة ليس فيها إلاّ أبواب الدخول وأبواب الخروج وكلّها مشغولة طول الوقت.

لا أنت ولا أنا نختار باب الدخول أو باب الخروج. لا أنت ولا أنا نختار لحظة ولوج هذا وولوج ذاك ومن ثمّة فليس عليك إلاّ الامتثال عندما تأتي اللّحظة الحرجة.

ولمّا دخلت الموجود لأكتب قصّة جديدة كان ذلك في شكل لم أرده وفي قالب لم أختره وفي جنس فرض علي وفي ظروف لم تكن تنبئ بأي خير.

لقد امتثلت كما يجب أن تخرج وارتطمت به كما سترتطم به أنت أيضاً وكان خارجا آنذاك لتوّه من مجزرة عظمى وكان على وشك الدخول في حالات لا حصر لها من الهيجان.

لقد دخلت في مقطع من الزمان تصاعد منه صراخ الألم بكيفية لم يسبق لها مثيل وجثث الآدميين تملأ أرجاء الأرض بعد انتهاء أضخم معركة عرفها بنو سفر منذ وجدوا وهكذا رميت في أحضان عالم مثخن بالجراح ملآن بالموت والموتى.

ويخيّل لي أنّه لا زال إلى الآن يرتجف من هول ما رأى وأنّ الأشباح والعفاريت التي تصاعدت من كلّ تلك الجثث أرواحا طريدة شريدة ملآنة حسرة وألما عادت للمطالبة بالحساب.

وبينما أنا بين يقظة متقطّعة وسبات أريد عبره مواصلة لذّة ما قبل الوصول تتواصل في مكان قصّيّ من البسيطة أيام معدودات أخرى معركة حادّة شرسة غبيّة لا متعة فيها للرواة ولا للمستمعين.

فجأة ولأوّل مرّة في التّاريخ يلمع برق خاطف لمرّتين متتاليتين ويذهل بنو سفر لما صنعت أيديهم وقد تراكمت الجثث تلالا وجبالا.

هكذا أكون دخلت الموجود لحظة توفّر أوّل جيل من بني سفر على أداة جهنمية لعبت وقد تلعب في ما سيأتي من الزمن أدوارا متعدّدة في قصص رهيبة.

من أين لعالم وهو في مثل هذه الأحوال والأوحال أن يلتفت إلى غثاء صبيّ يصرخ رعبا مع كلّ الذين رمت بهم يد القدر تلك اللّحظة في ساحة معركة بلا منتصر. تبحث الذاكرة عبثا عن صوت قاذفات القنابل وهي تضرب بقبضة من حديد جسد الأرض ـ الأمّ تفتح فيها شروخا وأخاديد موجعة.

تلصق مخيلة الرجل الكهل خمسين حولا بعد رميه عاريا بلا ناب أو مخلب في الحلبة ببطن أمّه لعلّ الزمن يتداخل ولعلّ المعجزة تحدث.

تبقى الذاكرة مغلقة فلا دويّ انفجارات ولا صراخ الرعب ولا حتّى بكاء المولود وهو ملقى على البسيطة لأوّل مرّة يتحسّس صلابتها وبردها وجفاءها.

يتّضح للكهل وقد قطع من الشوط أكثره أنّ الموجود كان كعادته حتى في تلك الفترة العصيبة التي أطلق فيها للموت كلّ يد وكلّ سلطان العذراء ليلة زفافها الأمّ في مخاض عسير والقابلة العجوز التي أنهكها يوم من عمل مملّ لا نهاية له.

أعود بالذاكرة وبالجسم أحيانا إلى تلك النقطة التي انطلق منها السطر لأواجه بمفارقة طريفة.

بقدر ما كان الزمان مهيبا مرعبا هائجا وهو كالمرأة الحبلى تضع في صراخ حادّ مولودا لا تدري أيكون ملاكا أم ثعبانا بقدر ما كان المكان قزما قميئا متواضعا إلى الدرجة التي يتّصل

فيها التواضع بالوضاعة فلا هو قلعة في جبل شاهق يطلّ بكبرياء على السهل المنبسط يحرسه ويراقبه ولا هو رباط على شاطئ تهاجمه بإصرار جبال من الماء قادمة من الأفق ولا هو خيمة سوداء وخيمة سادة تشرف على كثبان الرمل في صحراء تعابثها الريح ولا هو سهل منبسط من خضرة العشب أو صفرة القمح لا يخرج منه داخله ولو مشى عمرا كاملا ولا هو قصر من المرمر الأبيض الخاطف للأنظار ولا هو ناطحة سحاب في مدينة تتلألأ نورا لا يعرف الظلام عليها سلطة ولا هو سفينة فضاء محمّلة بالحجّاج في هجرة نحو مجرّات أقاصي الفضاء.

كلاّ كان عليّ أن أقنع من الكاتب الأكبر بكوخ متواضع في قرية من الطّين على أرض مستعبدة في قارّة تصدّر العبيد من بداية التاريخ لا قول لها يسمع ولا دور لها يذكر في قصص الحرب وفي قصص السلام.

لم يكن هناك من زمان أخطر لدخول الموجود ولم يكن هناك من مكان أسوأ لبداية الرحلة وكانت تلك إرادة لاعب النّرد المجهول.

هناك من أعالي شلاّل الزمن تدحرجت القطرة في الاتجاه لكي تصل في ظروف ترضاها أولا ترضاها. ترتطم بالموجود كما ترتطم صخرة آتية من أعماق السماء بسطح القمر. قد تنفجر تتفكّك من هول الصدمة وقد تتحمّل فلا تتفتّت ولا ينال منك هول الصدمة شيئا وقد تبقى مطبوعا إلى نهاية الرحلة بدخولك الموجود بهذه الكيفيّة المسرحية.

ومن القواعد التي تعلّمت والتي لا مهر ب منها:

لا تكون الرّحلة فترة انتظار بين موتين إلاّ بقدر ما تكون النواقص فالحركة.

لا تكون الرّحلة جديرة بك إلاّ إذا ولدت في زمن تركبه كمن يركب الثور الجامح ومكان تمشي فيه كمن يمشي على الرمال المتحرّكة وأنت لا تطمع في حلوها إن لم تقبل مرّها لأنّه لاوجود للأوّل إلاّ بوجود الثّاني ووجود الثاني يعني آليّا وجود الأوّل.

أتراك تخرج مسرعا لو أقنعتك أنني لم أخيّر ولم أختر.. إننا لو خيّرنا لما أجدنا الاختيار وأنّه لا يوجد زمان أفضل من زمان ومكان آمن من مكان وإنّما كلّها ظروف مختلفة للقصّة وملابساتها.

* * *

تخرجني الأصوات الصارخة النافذة الصبر من الضياع في خضمّ كلّ هذه الأفكار وكانت تتالى بسرعة مفزعة.

ادفعي.. واصلي..

تتواصل الحركة وقد علاها الارتباك والانزعاج.

تأخذني بكما من جديد رأفة لاحدود ولا نهاية لها.. رأفة من عرف الأهوال التي

تنتظرك والأخطار التي تتهدّدها.

أكاد أصرخ ألا أطفئوا جلّ هذه الأضواء إنّها تؤذي عينيه واصمتوا أو اهمسوا أليست أصواتكم بالنسبة إليه كدوّي ألف مدفع.

أريد أن أحميك من كلّ هذا النور الفظيع ومن كلّ هذا الصخب المرعب إلاّ أنني أعلم أنّه ليس لي حيلة.

إنّهم ينتظرونك في قصص أخرى كما كنت أودّ أن أنتظرك أنا ويقال إنّك تصل والأضواء خافتة وإنّك لا تسمع إلاّ همسا رقيقا وموسيقى عذبة إنّك تنزل لا تؤذي ولا تتأذّى ويقال إن أياد رقيقة تتلقّفك بلطف تغمسك مباشرة في سائل دافئ يذكرك بذلك الذي سبحت فيه زمنا بطول الخلود وبقصر اللّحظة.

هكذا يمهّد لك الطريق لتصل برفق فراشة ملوّنة الجناحين يحملها الريح هنا وهناك تطأ الأرض وكلّها رشاقة وخفّة.

لكنّك دخلت الموجود من قصّتي أنا وليس لي ثقة كبرى بأنّ تلك الظروف كانت تغريك بالخروج سريعا أو أنّها كانت قادرة على أن تمحي عنك ذكرى تلك اللّحظة المخيفة وأنت تختنق.

تتصبّب المرأة التي ستسّميها أمّي عرقا. يعتصر أقصى الألم أحشاءها. تصرخ أنني لميتة. نعم كان بإمكانك أن تسقط كما تسقط الثمرة الناضجة وكان بإمكانك أن تتفتّح كوردة جاءها الربيع وكان بإمكانك أن تأتينا بدون كلّ هذا الهول لكنّك ثمين والثمين لا يكون إلاّ لأن لهّ مثل هذا الثمن الباهظ والثمن أحيانا ذهاب تلك التي أتت بك.

نحن الآن معك في مفترق الموت والحياة نتعذّب كما تتعذّب وكما يتعذّب البساط المتحرّك الذي يحمل كلّ حركاتنا لا يقف عند رغبة راغب ولا تديره يد قديرة كما تدير لجام الحصان في اتّجاه أصبح فجأة المبتغي. يواصل الزمن بك السير نحو النور والآلام ولاتنفع في ذلك مقاومة.

هل استهواك الكهف السحري بدعته ودفئه إلى هذا الحدّ إنّك لا تريد منه خروجا وأتصوّرك ممسكا به بيديك ورجليك وأظافرك وأسنانك ترفض التقدّم خطوة نحو باب الخروج.

أهو رعب ما رأيت في تلافيف ذاكرتها وأنت تتجوّل عبر فصول قصّتها والقصص التي انغلقت عليها القصّة أهالك من الموجود ما فيه من شرور وآثام أم هل اقتنعت على غير صواب أنّك لن تأتي بجديد وأنّك ستراكم فوق كلّ من تراكموا أنّك ستضيف الفشل إلى الفشل أن الصفقة لا تستأهل كلّ التضحيات التي اتّضحت لك أبعادها السحيقة وضعف مردودها أتكون أنت الصامت الأصمّ قد كوّنت لك فكرة عن الموجود وأنت

تسترق السمع ومنّا من يعتقد أنّك يقظ حذر أن لك قدرة تجهلها عن سماع الموجود في أدقّ تفاصيله أنّ لك في هذه المرحلة قدرة قراءة الأفكار وهي تتكوّن وسماع الهمس في قاع المحيطات إنّك لم تأخذ كلّ هذا الوقت إلاّ لأنّك كنت تتجسّس.

أترى هل شعرت آخر لحظة أنّك سقطت في الفخّ الذي نصب وأنّه لا طريدة إلاّ سواك وهل تصاعد منك رفض يائس مطلق لا يفلح فيه إقناع أو منطق.

وفي هذه اللّحظات الحرجة أتصوّر أنّه لم يعد هناك مكان لذلك الحوار الهادئ الذي ما انفكّ محتدما بينك وبينها.

أنت ستعلّم قريبا أنّها قادرة على كلّ فظاظة أنّها ستجرّك غصبا إلى مقعد طبيب الأسنان شئت ذلك أم أبيت أنّك لن تواجهها إلاّ بقوّة الرفض ولن تواجهك إلاّ بقوّة الإرغام لأنّه لا مجال للكلام في مثل هذه المواقف بعد أن اتّضح أنّه لا توفيق بين الموقفين.

ها أنت تبدأ أوّل صراع معها أو قل أوّل صراع لك مع الموجود وأنت ستعرف منه وجهه الآخر وهذا القناع المفزع لن يلبس مرّة واحدة.

وفي إطار تلك اللاّمبالاة التامّة للقابلة العجوز وهي تستقبل جحافل القادمين وبينما مشيّعي الجنازات بين ذهاب ومجيء يفتح الموجود وقد تقمّص دور الأمّ الضاحكة الباكية قلبه وذراعيه لكائن جديد لطفل من بين جحافل الأطفال وكأنّه لم يحبل به ولم يلده إلا هو.

ها أنت الذي تدفع به نحو باب الكهف وكنت أنت المدفوع وها أنت الذي تجذبه نحو باب الزمان وكنت أنت المتشبّث بجدران الكهف ولأنّه ليس إلاّ ظلك الباهت فإن خوفه ليس إلاّ الصدى المتردّد لخوفك الأزلي المتجدّد.

يتعمّق النسيان فيك فيغدو بلا سقف ولا قاع وبين اللاّمحدود واللاّنهائي من اللاّ ذاكرة يولد ذاك الإنسان جاهلا بكلّ ما يعلم إذ لا بدّ ممّا لا بدّ منه وتكون آخر مقاومة لك عبثاً.

حانت اللّحظة لكي تنطلق الفكرة كما ينطلق السهم من الوتر.

آن الأوان لتطير الفكرة بجناحيها. ها قد وصل الوقت لكي تنقلب على ذاتها لتغدو فكرة مفكرة.

يفتح باب الزمان على مصراعيه عمودين اثنين الأيسر والأيمن يزاح ستار شفاف عن بوّابة الكهف فتحرّك بك الطريق إلى مقرّ لا مفرّ منه الآن.

تتسارع د قّات القلب تتعالى صلاة صامتة. إنّها أولى تباشير الفجر ولمهمّة تتجاوزك وفي مكان لم تتخيّره وفي زمن لم تستشر فيه ونحو أحضان عالم عجوز بكر يعرفك جيّدا وتجهل عنه كلّ شيء يتسارع بك الطريق.

فجأة يغمرك النّور وتنفصل كالثمرة الطازجة من أعلى غصن الشجرة المقدّسة.

ثمّ رأيت بروز أول جزء منك وخروج أجزائك الأخرى متماسكة ملتصقة ببعضها البعض وكان كل طرف يبرز بمثابة انتصار لتلك التي كانت تدفعك إلى الخارج بإصرار ولم يكن لك خيار آخر غير أن تستجمع نفسك وأن تخرج شيئا فشيئا. لم يعد هناك أدنى شكّ أنّك ارتبكت وحاولت النّكوص على الأعقاب... أنّك جربت أوّل رعب وجرّبت أول انتصار على الرّعب..

ها أنت تحتضر للحياة تغرق في الهواء الطلق تتخبّط داخل متاهات يضيئها نور يعمي الأبصار.

تجذبك الأيدي العجولة النافذة الصبر وأنت لم تنفصل بعد إلاّ بنصفك الأعلى.

لقد برزت لكنّك لا زلت مقنّعا. أرى لك إلاّ شكلا غير مفهوم. أشعر أنّه أولى بادرة منك وأن البقية ستأتي. ها هو وجهك. أنت مشغول بإخراج ما بقي منك وأوشك أن أعرفك وأن أحلف أن لك أنف هذا وأذني ذاك وأتخيّل ذلك النقاش الذي لا مفرّ منه ولكنّي كالعادة استبق الأحداث فأنت لا تشبه شيئا أو أحدا لا زلت. انظر إلى أجزائك المتماسكة وأعدّ أطرافك فأجدك كاملا لم تنسى في قاع الكهف على ما يبدو شيئا. أتنفّس الصعداء.

لم تخطئ الأيادي الخفّية في شيء ولم تبدِ قصورا أو تهاونا في شيء. كان رعبي الصامت أن لا تصل لأنّ الأيادي الخفيّة ارتبكت لأنّ الأوامر لم تنفذ بدقّة لأنّ الخطأ كان في المكتبة كالدودة في الثمرة وكنت أعلم أنّك لو دخلت الموجود بمثل هذه النواقص لكانت رحلة في عالم طابعه المميّز العذاب وكنت لا أريد لك منه إلاّ أقلّ النصيب الممكن.

* * *

ها أنت الآن أخيرا... واضح جليّ حقيقي. أنت هنا والآن تحتلّ جزءا محدّدا في الفضاء وأنت الآن بيننا منّا وإلينا وأنت غيرها وغيري وغيرنا. لقد حضرت وحللت ولا بدّ للعالم أن يعيد ترتيب نفسه لكي تتوسّطه لكي تخلقه لكي تجدّده لكي تملأه لكي تستوعبه لكي تدخله إليك من كلّ مسامّ جسدك الجديد لكي تدخله أنت من كلّ مسامّ جسده الأزلي.

أذكر أنني ألقيت عليك أوّل نظرة مبهورا مشدوها ومغالبا بسمة ساخرة لما رأيته من عجيب المفارقات.

ورغم أنّك أتيت لتخلق الموجود وتجدّده.. ورغم جلالك وكلّ الخوارق والمعجزات التي تصاحبك وتصاحبها فإنّ الأيادي العجولة النافذة الصبر أمسكتك حال خروجك كاملا من رجلك اليمنى والرأس متدليا إلى التحت كما لوكنت دجاجة تعرض في السوق للبيع.

يسعني الآن أن أحدّق فيك بملىء عينيّ.

أذكر أنّني فوجئت بأنّ لك عينين مغمضتين ووجهاً متجعّداً وسحنة محتضر وأنّه لمن غرابة الأمور أن تأخذ لك في هذه اللّحظة كلّ ملامح تلك اللّحظة الأخرى وأنت تعبر فيها الباب في اتجاه الخروج.

نعم ها أنت أخيرا...... لقد وصلت حقّا.. أهذا ما انتظرت وأملّت.

يا للبشاعة!

كم كان الوجه متجعّدا قاسيا... وجه عجوز خارجة لتوّها من الأبدية.

أتراها فوجئت وهي تخلع قناعها البالي بعد أن دار بها البساط التيّار دورة كاملة في حياة ماضية أتراها أدخلت الركح في هذا العرض الاستثنائي وهي لم تكمل بعد أحكام قناع الطفولة على وجهها فبقيت من دون أن تعلم شيئا من بصمات شيخوخة التمثيلية السابقة.

كم كان جلدها متجعّدا.. ورقا قديما فركته يد عصبيّة قبل أن ترمي به سلّة المهملات ولم يكن هناك أي هالة من نور حول الرأس.

أذهلني تلك اللّحظة شبهها بتلك الحيوانات المضحكة التي تتراقص فوق غصون الأشجار ولم يكن ينقصها إلاّ ذيل طويل أسود لأجني من ورائها ثمنا معقولا من إحدى حدائق الحيوان. تصوّرت نفسي أجول بها أسواق المدينة والدفّ بيميني أجرّها وقلادة في عنقها لترقص في الحلقات.

تسبقنا دوما المفاجئة وتتبعنا دوما المفاجئة وكانت المفاجئة أن اكتشف قردا وليس إلها وكنت لا أعلم آنذاك أنّني سأراك بعد أربعة عشرين ساعة وقد وضعت على وجه القردة العجوز قناع ملاك.

قرد أله أم ملاك المهمّ انّك وصلت.

تصل واحدا في جحافل.. جحافل في واحد. تولد في تلك اللّحظة الفاصلة وفي ذلك المنعطف وفي ذلك المقطع الفريد المتكرّر من رقصة الزمان في مكان وتولد في كلّ مكان.

ولأنّك تعمل على ألف واجهة وواجهة ولأنّه لا بدّ من الأفكار داخل الفكرة والأنغام داخل النغم والألوان داخل اللّون الواحد ولأنّك نهم لا يضيّع فتاتا من وليمة ولأنّك جائع أزلي فلا بدّ لك من ألف فم لتأكل وتشرب ولا بدّ لك من ألف أذن لتسمع وتطرب ولا بدّ لك من ألف عين لكي لا يفوتك أي شعاع من سها خجولة.

تولد أحدا وتولد جماهير. تولد شكلا وتولد في كلّ الأشكال. تولد هنا وهناك الآن ومن ألف زمان. تولد من رحم كلّ أنثى جاءها المخاض. تولد لقلقا مترنحّا وغزالا يتخبّط

في مخاطه... نبتة خجولا تتطلّع إلى حنان الشمس. تولد حيّا بينما أنت تموت في كلّ الراحلين. تأتي بوجهك إلى الموجود تحت ألف قناع وقناع. تدير ظهرك للعالم. تخرج منه وأنت لم تدخله بعد وتدخله هنيهات قبل أن تودّعه إلى الأبد.

وهكذا وأنت تنطفئ نجما عجوزا في حلكة الفضاء اللاّمتناهي وهكذا وأنت جثّة هامدة لحيوان غريب على كوكب يتيم وهكذا وأنت زيتونة مرميّة على ظهرها ونخلة أجتثت من عروقها وهكذا وأنت بحر جفّ وبدر انفجر وحضارة خرفت وكتاب أضرمت فيه النيران وبين صرخة كلّ آت وغرغرة كلّ راحل تولد إنسانا وتولد ذاك الإنسان لا غير.

إنّه ليس أوّل ولا آخر فكرة تأتيك وهو ليس أول ولا آخر قيثارة تبحث عبر أوتارها عن نغم يشدك وهو ليس أول ولا آخر بيت لديوانك وهو ليس أوّل ولا آخر فصل في ملحمة لا تدري لها من نهاية.

إنّه تجربة ومحاولة نغم عابر فكرة طائشة وقافية تبحث عن قصيد... إنّه الوسيلة التي أردتها الآن وهنا ليمثل الموجود بين يديك وقد ارتدى حللا وتزين بأقنعة غير تلك التي تأتيك هدية من كلّ تمظهرات الكون على امتداد الزمان والمكان.

هكذا لأنّه ليس إلاّ أنت وأنّك قد أردت لنفسك هذا الدور يكون الإنسان شيئا ككلّ شيء شيئا كلا شيء وشيئا ليس كمثله شيء.

هكذا لا تولد إنسانا مثلما تولد نجما أو نخلة وإنّما تولد ذلك الإنسان وذلك النجم وتلك الشجرة وهكذا تأتي دار ضيافة الموجود الضيف المضيّف وهكذا تدخل دار الرحلة فردا منفردا متفرّدا وفريدا.

بهذا يكون ذلك الإنسان المفرد المتفرّد الفريد سرجك ومطيتّك خيالك على سطح الماء.

لكم سيلقى منك من العنت فليس بالبسيط أن يستوعب الجزء كلّ الكل وليس من السّهل أن يحمل الناقص الكمال وليس بالهيّن على فكرة أن ترضي الفكر وأنت تحمّله ما لا طاقة له به وتدفعه إلى مجاهل لا قدرة له عليها سيّداً قاسياً في صمته فظّاً في لا مبالاته مطاعا لا مردّ لأحكام غريبة وأوامر لا تفهم.

تصل عندما تنفصل ولا تنفصل إلاّ لتصل والوصول فصل في النصّ وفاصل في الخطاب قطع وقطيعة مع الأدوار السابقة شرخ وجرح إرادة مرادة وهو التحدّي.

يتشكّل في هذه اللّحظة كل الممكن من الحياة كما تتشكّل داخل الأبجدية كلّ الممكن من الكتابة.

ولأنّك تولد مفتوحا على نفسك منغلقا على الموجود فالوصول أن تأتي الموجود معلقا منغلقا على السرّ الذي تحويه ويحويك وأن تكون في آن واحد مفتوح الحوّاس مفتوح العقل

مفتوح الذراعين مفتوح القلب أن تكون تلك الحدود التي حدّدت في داخلها طفرتك اللامتناهية خطّ اللّقاء والتلاقي مع الطفرة المتناهية للعالم.

نعم ها أنت أخيرا.. واحدا من كلّ واحد في كلّ كلاّ من واحد كلاّ في واحد جزءا من الموجود الموجود في جزء.

لقد خرجت من حالة الكلّ ـ اللاشيء الذي تتواجد داخله كلّ البذور كلّ البراعم وكلّ الأجنّة.

تصل والوصول أن تختار هذا الخيار المؤلم أن تصبح فكرة لا كلّ الأفكار عقلا لا كلّ العقول حلما لا كلّ الأحلام دورا لا كلّ الأدوار أن تصبح فقاعة الصابون لا الطفل المرح الذي ينفث طوال الدهر من فمه قطعها المتناثرة الشفافة.

تصل والوصول أن تكون أي أن تصبح أحدا محدودا أحدا محدّدا أحدا واحدا أحدا وحيدا... أن تتقلّص أن تتلخّص أن تكفى وأن تكتفي أن تكون متناهيا أن ترضى بسكنى ذرّة مكان وذرّة زمان أنت الذي لم يسعك ولن يسعك كل الزمان وكلّ المكان.

تصل والوصول أن تدخل الشكل وبدخولك الشكل يمكنك أخيرا أن تدخل الموجود لأنّه عالم قدّ من الأشكال ولا مكان فيه للأطياف المبهمة والأرواح الغامضة وبدخولك الشكل تدخل كلّ الترتّبات وكلّ التّراتيب المنجرّة عن هذا التقمّص.

يجب عليك الآن أن تنمو.. أن تتجدّد... أن تتحرّك.. أن تسكن أن تأكل وأن تؤكل أن تلتحم وأن تنفصل أن تجتمع وأن تبعد أن تلتهب وأن تنطفئ أن تموج وأن تهدأ أن تتلاشى ثمّ أن تموت.

تصل الوصول أن تدخل الموجود داخلا ودخيلا مرجوّا وملفوظا منتظرا ومرفوضا صائدا وفريسة قدرك الجهد.. التحدّي.. المواجهة.. الخطر.

تصل إلى دار الرحلة لا رحل لك ولا زاد. تصل براري الصيد لا أنياب لك لا مخلب تصل دنيا الخبث والشرور ولا زلت بريئا. تصل عالم اللّغط والثرثرة والهراء مصرّا على الصمت.

يرفع الستار مرّة عن مغامرة موغلة في القدم شابّة متجدّدة لا تهرم.

أنت لست في هذه القصّة رضيعا يدخل عالما عجوزا وإنّما عجوز بعمر الكون يجدّد عالما رضيعا وأنت ستعايش إبّان الرحلة في داخلك مراحل تطوّره. سترتحل داخله بقدر ما سيرتحل فيك رضيع يحبو مراهق يتمرّن على أولى أبياته وفي داخلك سيبيّض فوداه ثم هو سيهرم ويتلاشى عندما يدبّ فيك الملل والإرهاق ويوم تعيد له هذا الجسم الذي استعرته من ترابه ومن أزهاره ومن عظامه تراه يفارقك غير آسف لأنّه على موعد متجدّد مع الحياة.

ستبصر طفولته الأزليّة في تلك المشية المترنّحة للغزال وهو يقف لأوّل مرّة على أرجله المرتعشة وستعاين شبابه الذي لا ينتهي في استدارة نهدين يافعين واحمرار وجه خجول وستراه أسدا كهلا راكضا وراء الفريسة أو نسرا منقضا عليها أو آدميا عاشقا لاعبا ومحاربا. ستبصره داخلا في شيخوخة سرمدية وقد علت التجاعيد وجوها لا عدّ لها أو حصر ستكتشف مرور الزمن عليه حائطا يتهاوى نخلة جوفاء الجذع شهباء السعف. ستراه ملقى جيفة نتنة على قارعة الطريق غابة تهاوت تحت عنف الفأس وكم من مرّة ستمشي وراء جنازته وكم ستهيل على رأسه من تراب كم من مرّة ستقبره داخل ذاتك. في أقلّ من طرفة عين ستسمع صراخ ولادته يتصاعد من كلّ أفق.

* * *

لا يطول بك الأمر لتعلن مشاركتك في الجوق الكوني.

لا تتمالك نفسك... تعود فجأة أنت الذي جئت صامتا ودخلت الموجود يلفّك الوقار والجلالة... رضيعا لاغير. تنفجر صارخا... الصرخة الأولى.

تنطلق من الأعماق وإرادة الحياة منذ تحرّكك من أعماق الكهف نحو باب الزمان بين مدّ وجزر. هي الأولى إلاّ أنّها لن تكون الأخيرة. هي أوّل حرف في الكتاب الذي ستخّطه وأوّل نوبة في أغنية طويلة. هي لا تعني شيئا إلاّ أنّها محمّلة بكلّ المعاني وقد يبدو من الصعب أن تفكّكها إلى أجزاء.

ليس لبني سفر رأي واحد ولا يستقرّ أيّ واحد منهم على رأي حولها.

يرى البعض أنّها حسرة على ما فات وحسرة على ما سيأتي أنّها حزنك الأوّل أنّها الدمعة التي ستفتح بها دخولك إلى وادي الدموع.

يقول آخرون إنّك تطلق عقيرتك بالصراخ لينطق أخيرا الرعب الذي فيك.

ألا تصل دار الآثام والشرور ألا تدخل المذبح والمسلخ ألست الآن مرميا بلا سلاح في ساحة معركة لا انتصار فيها.

تأتي صرخة الرعب عندما تدرك أنّك ستتخبّط لفترة طويلة داخل الكابوس أن باب الزمان لن يفتح لك مصراعيه لتتراجع القهقرى وانّه لم يعد ممكنا أن تراجع الخيار وان تدير الظهر للعالم المرعب موليا وجهك نحو أمان الكهف الدافئ.

إنّ القول بهذا الرأي يعني أنّك لا زلت تتذكّر وأنّك احتفظت لفترة طرف البصر بقدرة الإحاطة بكلّ المساحة الفاصلة بين دخولك الموجود وخروجك منه وانّك «رأيت».

أترى هل «شعرت» بلحمك بين مخالب السباع وروحك بين أنياب القدر هل «فهمت» أنك لن تكون إلاّ نذيرا وقربانا.

ولأن الرحّالة لا يستقرّون على رأي ولأنّ الموجود لا يستقرّ على حال ولأنّه بطبيعته عالم كلّ المحتمل والممكن ولأن كلّ شيء فيه وارد قابل للخلق وللتغيير فإنّ هناك من يعتقد أنّها قد تكون مجرّد صوت يحدثه الموجود وهو يشقّ طريقه إلى داخلك ليمتزج بك وتمتزج به وتلك منذ البداية أولى متطلبات الحياة.

لم لا تكون الصّرخة الأولى أيضا دلالة الدّهشة وأنت تبصر في هذه اللّحظة الفاصلة الوليمة الضخمة التي أعدت لك. أي دعة يمكن أن تفضل هذه المتعة الموعودة وأي آلام يمكن أن تثنيك عن كلّ هذه الروائع التي أعدّت لك خصيصا وأي عدم يمكن أن يضاهي كلّ هذا الوجود الفخم.

أتكون أيضا الإنذار الأوّل والتهديد الأوّل لم لا ألن تتعلّم فيما بعد ضرورة أن ترفع عقيرتك لتنهر وترهب وقد يبدو مضحكا أن تتوجّه لعالم مدجّج بالسلاح بالتهديد والإنذار وأنت بلا مخلب أو ناب. للتبرير والمشاركة في الثرثرة أقول انك لم تفعل في الواقع إلاّ التعرّف على صوتك وانّك قد تكون أرهبت نفسك اكثر ممّا أرهبت الموجود.

ولأنّك لا تعلم من أنت وأيّ شيء أنت ولماذا أتيت ولأنّك لا تملك الكلمات ولا تعرف لمن تتوجّه به تلخّص وتتلخّص في تلك الصرخة التي هي بداية كلّ بداية.

تضيع الصرخة في زخم ضوضاء أوركسترا جهنّمي كلّ العازفين فيه مصرّون على إسماع نشيدهم ولا من قائد يضبطه.

يختلط صخب الرعد بصخب البراكين بصخب البحر بصخب الشلاّلات بصخب النّار يضجيجّ كلّ شبر من الأرض بشتّى أصناف صراخ الكائنات الملتصقة به وفي أرجاء السماء. تبدو النجوم مع الشمس والقمر وحدها ممسكة لسانها تأدّبا ووقارا إلاّ أن لها هي الأخرى ضجيجاً وهذراً وإنّما أنت لا تسمعه لأنّك لا تحسن الإنصات إليها.

وفي فجوات كلّ هذه الضوضاء تتسلّل أحيانا همسات هادئة لنقاش بين الريح وأغصان الشجر بين الماء والحجر بين الناي والشادي.

يتخلّل كلّ هذا صخب متصاعد لكائنات حديثة العهد بالموجود قدّت من حديد بزعيقها المنكر. من أين لك وأنت في هذه اللّحظة الفاصلة أن تدرك معنى ومغزى كلّ هذه الأصوات المتصاعدة من بني سفر وهم يودّعون الموجود أو يصلونه وكلّ هذه الأصوات المتصاعدة من صغار البشر وهم يتمّرنون على الحياة وهذه الأصوات التي تصدر من النساء وهنّ على فراش اللّذة وفراش المخاض وهذه الأصوات المتصاعدة من أقدام العسكر وهم يضربون الأرض في نغم متناسق وهذه الأصوات المتصاعدة من المكلومين وهم يودّعون راحلا عزيزا وهذه الأصوات المتصاعدة من حناجر الرجال وهم في هرج ومرج ومن أين لك أن تدرك معنى هذه الأصوات وهي تتبادل الإشاعات وهي تتبادل التكهنات حول

الألغاز وهي تخفي وتظهر وهي تداعب وتهدّد تشتم وتغازل ومن أين لك أن تفهم لماذا تتغيّر فجأة النبرات ليصبح الزعيق المنكر صوتا وأصواتا منسجمة متماسكة متناسقة غاية في الجمال تثير فيك مشاعر لذيذة تضاف صرختك إلى صراخ الموجود نفسه وهو مزمجر لا يعير ثغاءك انتباها وتلك بداية سلسلة مفارقات هذه الرّحلة: أن يتجاهل الموجود وجودك وهو لا يوجد إلاّ من خلالك... أن تكون ذرّة من ذرّاته وأن تحتوي هذه الذّرة كلّ ماضيه أن تكون رهانه الدائم وهو لا يعي حتّى بأنّك دخلته أو خرجت منه.

يكتسب صراخك الخافت معنى آخر وهو يشقّ له طريقا بين الدوّي والصرير والصفير والهمس والحشرجة والحفيف وكلّ أنواع الضوضاء التي يصدرها عالم ممتلئ امتلاء الكأس الفائضة عالم عصّبي المزاج حادّ الطبع طائش نزق.

لماذا لا تكون صرختك الأولى إعلام... لفت نظر وانتباه وفي هذا لا يجادل عنيد ولا يتنطع مشاكس. أنك تقول للعالم بكلّ بساطة وإيجاز: ها أنا ذا... لقد وصلت أخيرا.

لكنّنا ما زلنا في بداية القصّة فلا داعي للعجلة.

أنت الآن ملقى على ظهرك في ألف إسطبل وألف كوخ وألف قصر وإنّها لنفس اللّوحة لا تختلف إلاّ في هذه الجزئية أو تلك إنّها لنفس الأمّ الأزلية وأنّها لنفس الآمال والمخاوف وإنّه لنفس الترقب الخاشع ويقال إنّك إصرار الـ..... إنّك ثباته ودوامه على نفس الحلم إنّك المشروع الأزلي الذي لم يقبل لحظة أن يتخلّى عنه.

كم من لوحة تصف الحدث الأوّل تصف بداية القصّة.

ها أنت ملقى على القشّ بدون تاج أو صولجان بدون مخلب أو ناب صغير عار ضعيف عاجز هشّ جاهل.

تشدّني ملامح الأمّ العذراء.. الأمّ التي لم يمسّتها بشر. تشدّني كذلك صورة الحمار الأسود والثور الأحمر. أهما ينتظرانه أيضا يضيف الفنّان في كثير من اللّوحات قطيعا صغيرا من الحملان البيض وكأنّني أسمع ثغاءها وهي تقول سيدي ومولاي.. رجاء.. رجاء.

تتقدّم صوب الإسطبل الذي اختاره بابا لدخول الموجود قافلة يفتتحها حجّاج ملوك تقودهم نجمة برّاقة في الفضاء ولدت يوم ولد وتألّقت وهو يصل سالما.

كأنّني أشعر بموجات تتصاعد من روح الثور والحمار والخرفان وكأنني أشعر بدقات وخفقات مرتجفة داخل العشب الجافّ نفسه وكأنّه يأمل هو الآخر أن يخضّر وأن يتثّنى وأن يورق وأن يزهر وكأنني أشعر بالخجل في الحيطان وكأنني أرى نفاذ صبر الجمال تحت الخطى وقد أصابها من الأمل وهيجانه ما لم تعرفه أبدا وكأنني بالملوك يعدّون خطبهم

لذلك الذي أتى ليخلقه مرّة أخرى وكأنّني بكلّ الأحلام والآمال تتلاطم وتتصارع وتتسارع إليك وأنت هو ساكن لا تتحرّك.

إنّها بعض من قصّة مؤثرة طويلة لازالت تفعل الفعل الكبير في قسم هائل من المرتحلين.

الهامّ أنّك على عتبة الباب المقدّس ينتظرك الموجود بأهواله وأحواله وأوحاله بروائعه ومعجزاته كما ينتظر المحبّ حبيبته كما يتشوّق الصيّاد إلى فريسته.

تدخله داخلا دخيلا بلا ناب ولا صولجان وقد تكثّفت ضرورة النسيان.

يتلقّفك الموجود بحلم الأمّ العجوز التي حضنت عقوق الآباء وأرضعت تمرّد الأحفاد تدخله أبكم أخرس حرام عليك أن تتكلّم عن تلك العوالم الأخرى التي أودعت سرّها وليس لك ما تقول عن هذا الموجود الذي بدأت تتحسّس مجاهله ومخاطره للمرّة الأولى.

تنشب المخالب والأنياب في الأجساد الغضّة. تأكل الأمّ بعضّ من أتى ليأكلها ولها شره خاصّ لطري اللّحم.

تتراكم الجثث على العتبة.

ولأنّه لا نكوص على الأعقاب ولأن مصراعي باب الزمان قد أقفلا ولأنّ الكهف الدافئ أصبح ممنوعا فلا خيار أمام كلّ مسافر إلاّ أن يتراكم على تلال الجثث المرمية على عتبة عالمك الجديد أن يتبخّر شبحا أو أن يثبت وأن يواجه.

وهكذا تتوزع وتتبعثر أنت الواحد.

وهكذا تتقمّص شكلا أنت صاحب كلّ الأشكال.

وهكذا تنتهي أنت مصدر كلّ قوّة داخل أضعف ما يمكن أن يكون.

وهكذا تصبح أنت الذي خلق الزمان لحظة من قبس.

وهكذا تأتي أنت ذاكرة الموجود إلى الموجود بلا ذاكرة.

وهكذا تنقلب يا صاحب كلّ علم إلى أجهل مخلوق.

وهكذا تلبس أنت الأزلي رداء الفناء.

وهكذا تتمطى داخل سبات اللاّوعي لتعود شعورا.

وهكذا تصل الزمان والمكان لتخلق وتكتشف عالما جديدا.

مرحبا بك في عالم الرّعب والانبهار... وكن على شديد الحذر.

* * *

الجزء الثاني

اولى خطواتهم توهمهم ان العالم فضاء تملؤه أجسام وله علامات فارقة، جريهم المحموم لاستنفاذ ما لايستنفذ.

قال أرجونا:

إنّني لمؤمن بما قلته وأتحرق شوقا لرؤية وجهك المقدّس. إذا كنت ترى ذلك ممكنا.

فأرني يا إله الآلهة ذاتك الأزلية. فردّ كريشنا: تأمّل يا أرجونا أشكالي القدسية.

إنّها بالمئات والآلاف نوعا ولونا وشكلا.

تأمّلني في قوى الطّبيعة في النّار في الأرض في الريح في الشّمس في السّحاب.

في السّماءفي القمر في النجوم في كلّ قوى الحيوية والتّعافي.

كتاب «البهاجافاد جيتا»

١ - وفي تعرضه لانتصابك واقفا أوّل مرّة واكتشافك ذاهلا مدى ما للعالم من عمق واتّساع واكتظاظ وغرابة قال الرّاوي:

تستيقظ تدريجيا في مكان مجهول وقد لفّتك العتمة وتبدأ كينونتك وانت لا تعلم أين أنت. وأي كائن أو شيء انت.

لا تترجم الصّرخة بالنّسبة إلي إلاّ بكلمة واحدة: النجدة.

تأتيك النجدة في التوّ واللّحظة وكأنّ هذا الموجود الشرس خادم مطيع.

ومن خضّم هديره يرتفع ذلك الصوت الذي شقّ لك الطريق فتمسك مجدّدا بخيطه الرفيع بكلّ جوارحك وكأنّك أدركت أنّه الدليل وبوّابة الموجود وأنّك بدونه عائد من حيث لم تأت.

يخفّ روعك وتعود إلى غيبوبتك المتقطّعة وأحلامك المضطربة تتحسّس معالم عالم مجهول وكأنّك أعمى تتفتح عيناه بصعوبة على بصيص من نور لا مصدر واضح له.

تنتظر ولا يطول انتظارك.

انت تأتي الموجود مفتوحا لا منغلقا على نفسك لذلك هو يداهمك بكلّ عنفوانيته تدخلك منه العلامات بوفرة وفيرة وسخاء لاّمحدود وفوضى متلاطمة ونسق منظّم.

هو يهاجمك بدون استئذان من كلّ المسام ومن كلّ طرف ومكان. يتمكّن منك تمكّن الماء من الإسفنج وبهذا تصبح جزءا منه ويصبح جزءا منك.. تسكنه ويسكنك يستبطنك وتستبطنه. هكذا تصبح داخل خارجه وخارج داخله.

تدخلك الألوان وتدخلك الروائح وتدخلك الأصوات وتدخلك الأذواق ويدخلك إحساس البارد والجاف والساخن والرطب والمؤلم واللّذيذ وهي أولى تجاربك التي تعني أنّك حيّ وأنّ السفرة قد أخذت منعطفها الثّاني.

وكما إبّان عبورك المتباطئ للكهف وطول تأهّبك أراك هنا والآن أخذ كلّ وقتك وكأنّك ترهب ما سيأتي لكنّك لا تستطيع الارتحال في الموجود عبر الارتحال في ذاتك كما لا تستطيع الارتحال في ذاتك عبر الارتحال في الموجود وانت مستلق على الظّهر ملتصق

بالبسيطة الصّلبة مكتف بما يأتيك من مذاق دافئ رقراق قانعا بتلك الإشارات المبهمة الغامضة عن أطياف متراقصة وأشكال مرعبة وأخرى تأنس لها نفسك وتترقّبها.

تفترش البسيطة تتوسّدها لا يفصل جسديكما إلاّ ما ترتديه من وشاح رقيق يضعه دليلك الأوّل بينكما حتّى لا تؤلمك صلابتها.... تتوسّدها وتمتدّ فوقها وتقنع من صورة متحرّكة داخل خيال يحلمه حالم بأنّ لها مثل هذه الصلابة والمتانة والديمومة وتحمد أنّ للحالم مثل هذه القدرة على صنع الأوهام الفاعلة وأنه يضع تحت جسمك ما يحمل ثقله ولا يخسف به.

انت في هذه الحالة ملتصق ملتحم مرتبط موثق بالعالم لا تمرّ شعرة بين جلديكما ولامجال للتفريق بين الشكلين... تحتضنه ويعانقك... يلفّك وتختبئ بين ذراعيه... تغرس فيه ما أمكن من أسنان وأظافر...... عبثا.

لكنّه لا يريد لهذه الحالة أن تدوم. لابدّ من فكّ الارتباط ولابدّ أن تنفصل مرّة ثانية وما أكثر المرّات التي تنتظرك لكي تجرّب ألم الانفصال وضرورته.

تتباعد الحدود المتداخلة بينك وبينه تدريجيّا بإرادتك أو بدونها.

لابدّ ممّا لابدّ منه وقد حللت وأتيت. وكأنّك سمعت النّداء فلم تستطع له مقاومة وقد يكوّن أمرا لا مردّ له ينطلق من الأعماق وقد يكون ذلك الصوت الرقيق الذي ما أنفكّ يقودك من الكهف إلى النّور وقد تكون اليد امتدّت والابتسامة اتسعت: أنفصل ثانية ولا تخشى شيئا وذلك قدرك... أن تدخله ويدخلك أن تعبره ويعبرك أن تتلاقيا وقد تفارقتما وأن تتفارقا وقد تمّ اللّقاء واكتمل.

تبقى تسجّل حالة الموجود تراقبه بانتباه لا تردّ إلاّ الفعل وانت بين رغبة وخشية.

تتعلّم الهامّ والكثير وانت تجهل انّك تتأهّب وتبقى طوال هذه الفترة الحرجة متشبّثا بالصّوت الحلو وبالملامح الباسمة المتزايدة وضوحا التي ترافقه.

ترفع الرأس فوق الجذع يوما لكي تجيل النّظر في أرجاء عالمك بعد طول التّحديق والشّخوص في جهة واحدة لكنّك تبقى تواصل اكتشاف العالم عبر هذه التي تحمل ثقلك: الأرض الصّلبة.

لا شكّ أنّك ككلّ الأطفال اكتشفت بسرعة أنّها خشنة الملمس، أنّها يمكن أن تجرح وأن تدمي وأن تؤلم أنّها لا تسلم بسهولة ظهرها لمداعبة راحة متلطّفة. أتذكر كم شعرت باللّذة وانت تمزج أجزاء منها رخوة ليّنة تستسلم لإرادة اليد تعيد تشكيل صور ساذجة لعالم ساذج.

لا شكّ أيضا أنّك حملت شيئا منها إلى فمك وأنّك لفظته وقد ارتسمت على وجهك علامات النفوّر لأنّها الآكلة وليست المأكولة ولو أن كلّ آكل منها.

لا شكّ أنّك لم تعرف لها عبيرا مباشرا إلاّ في تلك اللّحظات النّادرة التي تتضوّع فيها طيبا وقد عانق ثراها السائل المقدّس الآتي من القبّة اللازوردية: رائحة ثقيلة مشبّعة بألف مكوّن ومكوّن. إنّها اللّحظة الوحيدة التي تتنفّس فيها البسيطة مباشرة وكانت تكتم أنفاسها أو هي لا تذيعها إلاّ عبر آلاف الروائح التي تطلقها فلذات الكبد.

تعلمك البسيطة وانت لازلت رضيعا يغفو أن تطمئن إلى أنّ الاسم - العالم موجود إنّه ليس وهما أو سرابا انّك لن تفيق ليلة وقد امتددت عليها فإذا بها تتموّج أو تنخفض في جزء محافظة على صلابتها في جزء آخر. لن تشعر منها بارتجاج أو ميدان ولن تستيقظ فجأة وقد خسفت أو تهاوت بك إلى أعماق لا قعر لها. ينقر العالم الفنّان على وتر وتطمئن مرحليا إلى ما يجب ولا يجب الاطمئنان إليه.

يتّسع مجال الرّؤيا.

ترفع الرّأس فوق الجذع تتابع تداخل الأصوات وكنت لا تتابع إلاّ واحدا.

يتّسع مجال الرّؤيا.

ترفع اليد يوما لتمسك بالصّوت الرّقيق تكتشف معنى اللّمس ومتعته.

يتّسع مجال الرّؤيا.

تحرّك لسانك تتلمّظ هذه الأشياء الغريبة التي لم تألفها في فمك وكنت لا تعرف إلاّ علامة لسائل دافق رقراق ينيم فيك مؤقّتا إحساسا مزعجا لا تعرف مصدره.

يتّسع مجال الرّؤيا.

توجّه وجهك هذه الجهة أو تلك تتابع عبير الصّوت المتقارب المتباعد وتتعلّم التعرّف على أكثر من رائحة وانت لا تعلم أنّها رائحة وأنّها رائحة العطر ورائحة العرق ورائحة سوائلك وإفرازاتك المتعدّدة.

يتّسع مجال الرّؤيا.

تواصل الانفصال ويتواصل بدوره الشكلان أنت كانت والموجود كموجود ودليلك دائما الصّوت وقد أصبح هو الآخر شكلا بحدود.

تتعلّم منه أنّك لا تكون إلا إذا قبلت أن تكون واحدا بحدود وواحدا بدونها.

إن انت أتيته مقفلا منطويا على نفسك بقي يتردّد على حدودك يتلمّسك ويتحسّسك ويعود منك بالخيبة والفشل وان لم تضع الحدود بينك وبينه ضعت فيه وتلاشيت.

هو يتسلّل عبرها طيفا لا طعم له لا لون له لا رائحة له لا شكل له لا مذاق له خيال بدون فحوى بدون وزن أو تماسك يحرّك داخلك ألف خيط وخيط تلعب أصابعه على أوتار الروح بدقّة ومهارة كما تلعب يد عازف موهوب على أوتار العود.

وهكذا توجد معه وتوجد به وفي نفس الوقت يوجد بك وبما في «داخلك» من أوتار لا تكون أيّ موسيقى بدونها.

ها هو قد تشكّل «داخلك» فضاءا ممتدّا وألوانا مبهرة وأصواتا وأنغاما وها هي روائحه تملأ منّك الروح ثم ها انت تلمسه وتتحسّسه بكلّ المسام وها هو يتحرّك فيك صورا وأفكارا وخيالا.

إنّه كامن فعلا «داخلك» لا مجال للشكّ في ذلك ينغلق عليه حاجز الجلد وحاجز العظم وحاجز غشاء رقيق يلفّه برفق محفوف من كلّ سوء وفي آن واحد معرّض لأخطار لا عدّ لها ولا حصر.

هو في نفس الوقت أمامك ووراءك فوقك وتحتك.

أنت الآن الذي في «داخله» تتصوّر نفسك محفوفا به مطوّقا به تشعر به فوقك ووراءك أمامك وتحتك وانت في داخله كما النواة في الثمرة بينكما حدود تفصل وتوضّح من هذا ومن ذاك وأين يبدأ الأوّل وينتهي الثاني.

لكنّك تمشي في الواقع داخل ذاتك وانت تتصوّر أنّك تمشي خارجها. تجوب الامتداد طولا وعرضا. تصعد فيه وتنزل وانت لا تتحرّك إلاّ داخل الداخل وحتّى لا تصاب بالدوران والهوس تمرّر راحتك على الجلد فتقول هنا انتهي أنا ويبدأ هو وانت لا تتحسّس إلاّ أعماق الداخل.

يتشبّع بك يتحصّن ويتمركز. تظنّه حولك وخارجك وهو فيك وهو انت وقد تعتقد نفسك داخله وانت خارجه وتتوهّم أنّك خارجه والحال أنّك ملتصق ملتحم به إلى الأبد.

يجب أن تقبل يوما هذه المفارقة أن الوجود كلّه موجود داخلك وأنك موجود كلّيا داخله وأنكما داخل بعضكما البعض تحتويه ويحتويك وان بينكما ألف حاجز.

وألف قنطرة.

هكذا تدخل العالم دون أن تدخله لأنك لم تخرج منه قط وتخرج منه دون أن تخرج منه لأنّك لم ولن تفارقه لحظة.

يأتي في إطار عمليّة الإنضاج المتسارعة يوم ترفع فيه الجذع فوق الطرفين السفليين والطرفين السفليين فوق البسيطة لتنتصب مترنّحا وجلا وفي نفس الوقت مملوءا بقوّة مبهمة تدفعك أن تتقدّم تأمرك أن أرفع هذا الرجل وضع لك أوّل خطوة على امتدادي فإنّي لها متشوقّة منتظرة.

لا تخف تقدّم إنّها تحمل ثقلك وثقل الجبال الرواسي منذ غابر العصور ولن تكفّ عن حمل كلّ الأثقال ولا خشية أن تكون انت القشّة التي قصمت ظهر البعير.

تتأكّد يوما بعد يوم أنك لن تستيقظ يوما من رقدتك لتضع رجليك على الفراغ انّك لن تسقط فجأة في قاع لا نهاية له وقد تبخّر ركح المسرح إنّك دوما محمول على عاتق صلب متين إن الركح ليس رخوا ولا متموّجا ولا سرابا إنّه حاضر دائم حاجزا فاصلا بينك وبين كلّ فراغ.

ترفع من جديد هامتك فوق البسيطة تعاود الكرّة وتعاود هي الأخرى الكرّة إلى أن تجدا معا توازنكما إلى أن تتموّجا وتتحرّكا في نسق متناغم. تتغلّب على تلك المشاعر المبهمة التي تعصف داخل أحشائك ولا تنتبه إلى المذاق المالح لذلك السائل المنحدر من مآقيك. تواصل فنّ لم يعد لك خيار آخر.

هي تتموّج لكي تحكم وقع وإيقاع ما لا يعدّ ولا يحصى من أقدام كائنات بعدد حبّات الرمل وكلّها أطفالها وفلذات أكبادها.

تفترش الأرض الأمّ وتنتصب فوقها. تأمنها وتطمئنّ إليها وانت تجهل كلّ شيء عنها.

كلّميني يا أمّاه. من أين أتيت ولماذا تتماسكين لماذا تنبسطين ولماذا تتجعّدين لماذا فتحت كلّ هذه الطرق ولماذا أغلقت أغلبها لماذا تخرجين هذه الجحافل من الكائنات ولماذا تسترجعينهم أين تحفظين الجنّ والعفاريت والأشباح ما الذي يحتمل طول الوقت في أحشائك أي مرقد تحفظين لنا وهل سيكون وثيرا أم باردا رطبا لزجا موجعا مؤذيا ماذا ستفعلين بجسمنا يوم يتفكك وبذرّاته يوم تتطاير.

من أين تستمدّي كلّ هاته القوّة لتحملي دعامات السماء ليفترشك البحر لتنطلق من أحشائك الجبال الرواسي لتحبلي وتلدي كلّ حابلة والدة.

وهل حقّا ستتفتتين وستبخّرين وهل حقّا ستلتحقين يوما بأبيك وبعلك ذلك الذي يتصدّر كبد السّماء تدورين حوله ويدور حولك وكأنكما حبيبان يتراقصان ويتغازلان ولا يتلامسان لإضرام مزيد من الشّهوة.

تصرّ البسيطة على صمتها الثرثار أو هي تتكلّم لغة لا تفقهها وقد تأتيك الفكرة أنّه لا معنى للسؤال وأن عليك أن تكتفي بفتح العينين لكي تعبّ من كلام مسطّر مكتوب بأحرف من ألوان وكائنات وأشكال وتمظهرات هي كأحلام ملوّنة تتابع في ذهن فنّان عبقري.

هكذا يحكم عليك أن تجهل من أين أتت وكيف وجدت ولماذا هي تحافظ على كلّ هذه الصلابة وإلى أين هي ذاهبة وهل ستبقى على هذا الحال أم أنّها ستصبح قفرا بلقعا في يوم من الأيّام. تأتي القصص لملئ فراغ لا يحتمل فإذا بها منطلق ألف سؤال وسؤال.

قد تسمع عندما يطول بك الطّريق من يروي أنّها ستعود يوما ما إلى أحضان ذلك الصحن الذهبي الذي يتسلّق كلّ فجر يوم جديد سقف الاسم ـ العالم أنّها ستعود إليه غير

راضية ولا مرضّية بمن عليها من أحياء وما في بطنها من أموات لتحترق داخله وتتطهّر لتذوب فيه ويذوب فيها لتميت الموت وتجدّد الحياة.

وممّا ستسمعه من قصص عنها وعنّا أن آدم قد خرج منها مباشرة كما تخرج النبتة التي يتغذّى بها إنّها لفظته يوم أطلق أوّل صرخة إنّه كان فيها مخفيا مختفيا محظونا ومحتظنا أنّ المخاض أتاها ذات يوم فأصابها الألم من كلّ جانب أنّها تشنّجت وارتخت وأنّها عضّت على نواجذها وبدأت تدفع المولود إلى الفوق وإلى الخارج وهو بين رغبة وعزوف بين خوف ورجاء ثمّ إنها غلبت فيه كلّ مقاومة وأنّه ارتضى منها الفراق آملا في عودة قريبة وغيبة لا تطول... أنّها تفتحت عن خرق توسّع شيئا فشيئا وأن الرضيع وجد نفسه مدفوعا بقوّة لا تقاوم من أعماق أحشاء الأمّ ليشقّ طريقه إلى الهواء والنّور ثمّ إنّه أطلق عقيرته بصراخ النجدة.

وستسمع أيضا من يقول إنّ كائنا لا يرى بالعين ولا يلمس باليد ولا يطاله فكر أو خيال قد أولد المسافرين من رحمها عندما نفخ شيئا من روحه في طماها فتشكّل الذكر والأنثى.

وقد تجادل يوما من يقول انّهما لم يكونا بالضرورة مبرمجان لدخول الركح أو لعب أي دور وأنّ البسيطة كانت تغفو وتحلم وأنّها كانت تمزج في داخلها اللّبنات والمكوّنات وأنّها كانت ترمي إلى السطح أبسط الأشكال لتجرّب وتتعلّم أنّها حملت وأجهضت ما لا يحصى ولا يعدّ من المرّات أنّها ولدت وقتلت أنّها أخرجت من رحمها الأشكال بعد الأشكال تراجع نفسها وتصحّح هذا الخطأ وترتكب آخر تستعمل النموذج والفكرة في هذا المقطع من القصّة وتمحيهما في مقطع آخر إنّ أفكارها كانت تتداخل وتتراقص وتتناقض إنّها كانت تسترجع الأجساد لتفكّكها إلى المكوّنات الأولى واللبنات الأساسية سخيّة بخيلة لا تضيع شيئا ممّا خلقت تعيد بناء الأشكال وتحسينها إلى ما لا نهاية لا تعرف طعم الراحة ولا تتوقّف هنيهة.

في هذه القصّة كما في كلّ القصص التي يرويها بنو سفر تصطدم المخيلة بحائط سميك ويرتطم الفكر بعوائق لا تزاح. تتواصل القصص مشبعة للفضول داخل الفضول مثيرة للتساؤل داخل التساؤل.

يبقى الرحم منغلقا على أسراره كما يبقى القبر منغلقا على هموم البسيطة وانشغالها وهي تطحن وتعجن وتفتت الجثّة لتستخرج منها الحروف التي ستعيد بها كتابة نصّ جديد ولا يبقى على بني سفر إلاّ تداول الرواية حول كائن نافخ للروح لم يره أحد أو حركة بدون محرّك وأحلام بدون حالم وأفكار بدون مفكّر.

لكنّك مازلت في بداية الطّريق ولابدّ لك أن تثق بها وان تواصل سعيك المترنّح على سطحها.

ينحبس الألم ويتراجع لأنّ الأمّ والأمّ يمدّان ذراعيهما لكي تجرّب من جديد لكي تتعلّم من البداية أنّ لكلّ درس ثمنا وأنّك لا تتقدّم إلاّ إذا قبلت بهذه القاعدة.

أنت تحفظ الآن بسهولة متزايدة توازنك على طبق متحرّك يطفو منذ القدم على أنهار من النّار الذّائبة.

تمسك بالدليل وتتشبّث به ولكم يترفّق بك في مثل هذه اللّحظات.

تحرّك رجلا ترفعها وترميها على البسيطة لا تدري ما المصير. ترمي الثانية مغامرة مجهولة العواقب.

تسقطان عليها ثقيلتين مرتبكتين. ترمي بثقلك كلّه عليهما وهما ممدودتان متشنّجتان. تكتشف أن البسيطة دوما في نفس المكان لم يتغيّر لها مزاج ولا رأي.

هي تتقبل الرجلان أصابتا أم أخطأتا كأنّها التي تجذب القدم البضة والتي تحكم سقوطها على ظهرها وهي التي تتموّج بقدر لا تبصره عين أو تنتبه إليه حاسّة أخرى لكي تحفظ لك التوازن وماء الوجه لكي تقيك ذلك الشعور المزعج الذي ينتابك وانت لا تفلح في التموقع..... لكي تبقى منتصبا شامخا.

تواصل تحسّس سطحها بكثير من الحذر.

لا شكّ انك ستترنّح في البداية خشية السقوط وقد تسقط من فرط الخشية لا لأنّ الصلابة لانت.

تبقى في تلك الوضعية التي جعل منها بنو جنسك رمزا للإباء والشموخ وهو أول انتصاب وتشعر بمتعة ستتعرّف عليها في ما بعد كمتعة الانتصار.

يدرك الطّفل بصفة مبهمة أنها صلبة متينة متماسكة وأن على القدم والحافر والجذر أن لا يخشى منها تقلّبا أو غدرا.

يفهم أنّها لا تنفتح فجأة من غير سابق وطويل إنذار لتلتهم من فوقها. هو يراها تجاهد لتحمل كلّ الأثقال لا تملّ ولا تكلّ ولا يتصوّر إنّها تتحرّك وتتجوّل هي الأخرى. إنّك لا تحسّ منها حركة وانت قد تعبر الاسم ـ العالم من بدايته إلى نهايته دون أن تعايش لها تلك الاختلاجات الرهيبة التي يحكيها عنها بعض المسافرين وقد تملّكهم رعب لا يوصف.

تستطيع أن تضع الخطوة الأولى وأن تمشي قدما أمامك افتراضا أنّك لن تجد أمامك حاجزا ما وأنّ بوسعك مواصلة المشي.

* * *

يمكنك أن تضع الآن قدما أمام قدم.. أن تخطو الخطوة الأولى والثانية.. أن تذرع البسيطة في هذا الاتجاه وفي نقيضه... أن تبدأ ولوج الأغوار السّحيقة للعالم.

لكم اتسعت الآن الرّؤيا.

لا يمرّ زمن طويل قبل أن تزيح بشيء من نفاذ الصبر والعصبيّة اليد الممسكة بيدك البضّة الصغيرة وكأنّه لم يعد بعد لك حاجة إلى تلك التي حملتك إلى هذا الموجود في أحشائها وكانت أوّل مطيّة ركبتها لكي تصل وتتنقّل.

تنطلق من النقطة التي ارتطمت رجلاك بها وقد استطالتا وقويتا أجادتا التموقع على سطح البسيطة.

تتوسّع الدّائرة ولا يمكن لأحد أن يتنبّأ بموضع آخـــر حلقـة ومن المسافرين مــــن لم يتجاوزوا حدود المكان الذي أتوا فيه الحياة ومنهم من طلعوا إلى سطح بدر الدجى.

تتحرّك مدفوعا بقوّة لا تقهر بجذبك الأفق وكأنّ وراءه سرّ الوصول وسرّ الرحيل.

تفتح البسيطة أمامك ألف طريق وطريق.... المؤدّي إلى تجعدها وانتصابها.. المؤدّي إلى أغوارها وأعماقها... المؤدّي إلى حدودها مع القبّة البلورية الشفّافة الزرقاء المحكمة الغطاء فوقها.

ها انت قادر على أن تتمدّد على سطحها دون خشية قادر على أن تحفظ توازنك فوقها دون خشية قادر علي أن تتحرّك فوقها دون خشية. تستطيع أن تجيل البصر في كلّ الاتجاهات أن ترفع رأسك إلى الفوق أن تحمل حواسّك إلى كلّ مكان مفتوح.

تستطيع الآن وقد أفقت من صدمة الوصول وأولى لحظات التّعارف أن تجيل البصر حواليك بيطىء أن تتأمّل «كريشنا» أن تنظر إليه وهو شمس وهو ريح وهو قمر وهو صحراء وهو نجوم وهو كائنات وهو قوى التحلّل والتعافي.

يتواصل استكشاف تّفاصيل وجه «اللّه» بطيئا.. متعثّرا... متقطّعا.

تنسى وتتذكّر. تفتح الحواسّ وتغلقها. تركض من أقصى مكان إلى أقصاه أو تقبع في نقطة لاتفارقها. تجهد العقل والمخيّلة أو تقنع بقصص الغابرين.

تسترجع قدرة الدهشة وتفقدها.

تسأل «كريشنا» ألف مرّة أن يريك ما وراء الأقنعة التي يلبس ويخلع وجوابه دوما الصّمت.

* * *

٢ - وبخصوص أن أوّل صورة لك عنه وأبقاها في الذاكرة تلك التي تتحسّسها وتتحسّسك وأنت كالأعمى الذي تفتّحت عيناه فجأة على بصيص أوّل نور قال الرّاوي:

ندخل الموجود ونخرج منه ونحن نجهل ما ندخل وما نغادر وقد تبقى مثلي تجاهد طوال حياتك لتكوّن لك صورة واضحة عنه إلى أن تكتشف يوما أنّك لم تفعل سوى إلصاق قطع منه بقطع أخرى وأنّه لا نهاية للعملية ولا جدوى.

ندخل العالم من أبواب هائلة العدد هائلة الاختلاف هائلة التباعد ننظر إليه من ألف زاوية وزاوية. نبقى نجاهد طول الرّحلة لنستجمع أجزاء الصّورة وقلّما نصل إلى نتيجة مقنعة. تتشكّل رويدا رويدا أوّل محاولة لتنظيم الفوضى وتبسيط التّعقيد والاطمئنان إلى مطلق الغرابة. تتكوّن لك مبكّرا فكرة عن عالم ما زال بكرا وكم من تغييرات ستعرفها هذه الفكرة والعالم يكبر فيك ويشيخ.

وممّا أذكره أنني كنت أجيل البصر أمامي فلا أرى إلاّ البسيطة تمتدّ إلى حدود التقائها مع السّماء. اذكر بسرعة إنني فهمت أن لا خوف على أحد أن يصل إلى حدود الأمام.. إلى الخطّ الفاصل ليسقط في هاوية اللاّشئ وأنّه لا خوف عليه أن يتراجع القهقرى إلى الخطّ الفاصل إلى الوراء ليسقط في هاوية اللاّشئ المقابل مثلما لا خوف علينا أن تسقط القبّة الازوردية التي فوق الرأس.

أذكر أنني كنت اسمع المرأة أمّي تتحدّث وتذكر أسماء لأمكنة متفاوتة البعد متفاوتة الخطر وهكذا تشكّلت مبكرا البسيطة أمامي كمكان يتبع مكان كمكان يتداخل في مكان وكنت أعجز من أنّ أتصوّر ماذا يحتويه حتى المكان الذي كنت أتوسّطه.

أذكر أنني كنت أريد أن أضع سلّما على البسيطة وأن أتسلّق الفراغ المنتصب فوق رأسي لأضع عيني على ثقب كنت أتصوّره موجودا في مكان ما من القبّة اللاّ زوردية أسترق النظر إلى كائن هائل اسمه «اللّه» قيل لي أنه قابع هناك على عرشه وكنت شديد الفضول لأرى هذا الذي كان يخشاه الرجل الذي كنت أخشاه والذي تعلمت أن أسميه أبي.

تكتشف بنفس الكيفية المبهمة بقيّة أشكال العالم. تأتيك خلسة بدون ضوضاء تتلقّاها وتتقبّلها دون عناء. تتوسّطها تستعرضها تستعملها كأنّها لم تخلق إلاّ لك وقد تكون فعلا تلك وظيفتها. يخيّل لك أحيانا أنها تواجدت منذ تواجدت وان قدرها المحتوم أن ترحل يوم ترحل.

لا أذكر متى لاحظت لأوّل مرّة وجود «الشمس» والحال أنّني أتذكر كلّ تفاصيل لقائي بـ «البحر». لقد عرفتها دوما ويخيّل إليّ أنّها صاحبتني وأنا أنضج في رحم أمّي وأنّها كانت فوق المهد وأنا أطلق أوّل صرخة وأنّها واكبت خطواتي الأولى بهدوء كبير كأنّها تخشى فرط قوّتها على الصّغير الهشّ الذي كانت تضيء له الطّريق.

لا أدري أيضا متى انتبهت أنّها فردا وأنّه لا مثيل لها لا أخ لها لا أخت وقد عوّد تني الرّحلة على أنّ لكلّ كائن شبيه واحد على الأقل.

لا أذكر متى واجهت «القمر» وهو في اكتماله ومتى تأكّدت أنّه واحد هوا لآخر وأنّه شيء مستقلّ وأنّني سأتأمّل «البحر» وهو فوقنا نتبادل ثلاثة حديثا صامتا عن أهوال رحلة مجهولة البداية والنهاية.

أذكر أنني لم أكن أفهم كيف ينقلب الموجود الوضاء ظلاما دامسا وكم كنت أرهبه على هذه الصورة وكان الفضاء الغارق في السّواد يمتلئ آنذاك بكائنات خطيرة تسميها المرأة جدّتي الجنّ والعفاريت ولكم استيقظت من مرّة وهي تعضّني بنواجذها أو تحدث أصواتا غريبة حواليّ وكنت أعلم أنّه يجب الاستنجاد في مثل هذه الحالات بالكائن العظيم الجالس فوق قبّة السّماء لكنّني لا أذكر مرّة انّه سمع استغاثتي وأنّه ولع «الشّمس» قبل أن يحين الوقت.

تتضّح الأقنعة وتتبلور يوما بعد يوم. تألف بضرورة قاهرة العجب وتطمئنّ بموجبها إلى ما لايجوز الاطمئنان إليه.

ها انت تتوسّط مثلي الديكور الفخم الضّخم وكانّ الأيادي الخفيّة التي سهرت على أن تصل سالما تجند بصمتها المألوف قدرتها السّحريّة لكي تجد المسرح والحلبة وبراري الرّكض والصّيد وكلّ مايلزمك جاهزا للقصص والتمثيليات التي تنتظرك وتنتظرها.

أذكر أن أوّل صورة شاملة كوّنتها عن عالمنا أنّه إنبساط صلب لطّبق أفقي يحمل الكائنات يمتدّ إلى ما لا نهاية عن يمينه ويساره من أمامه ومن خلفه تحدّه شمالا حفرة ضخمة من الماء اسمها «البحر» وجنوبا أرض الأباء والأجداد وتسمّيها اللّغة «الصحراء» وفوق كلّ هذا قبّة بلّوريّة شفّافة الزرقة وضعت كما تضع المرأة أمّي طبقا أجوف من البلّور على صحن الطّعام لتقيه من الذّباب وبين الطبق وغطائه تتجوّل «نهارا» «الشّمس» و«ليلا» «النّجوم» و«القمر» ولأنّني كنت أكره الظلام وأرهبه فأنّني جعلت من «الشمس» فانوس

النهار ومن «القمر» فانوس الليّل ومن النجوم أنواراً باهتة تبعد عني الأشباح أيّام غياب بدر الدّجى وعلى قمّة القبّة يجلس راع سماوي اسمه «اللّه» يراقب بتعجّب قطيعه البشري والحيواني وما خلق من نبات وأشياء. تتشكّل أوّل الصورة من وليمة الحواس.. من القصص التي تسمع ومن العلاقة التي تبنيها مع المكان الأوّل الذي سيطبع منك الذّاكرة والرّوح بطابع لن ينمحي.

قد تكون ارتطمت بالعالم عند النزول وهو أمام عينيك المشدوهتين جبل فخم مهيب متعال كلّل الشّيب هامته وقد تتعرّف عليه أوّل ما تتعرّف وهو نهر ضخم وقور ينساب بين غابات نخيل وارفة الظلّ وقد تبدأ سعيك البطيء فيه وهو غابات كثيفة مغلقة أو سهول مفتوحة لا يحدّها إلاّ الأفق.

تشاء الصّدفة أن أبدأ تحسّس العالم وهو «صحراء».

أنّ هناك على خريطة الأرض بقعا صفراء كثيرة متناثرة لصحاري متنوّعة منها صحاري بلون اللّبن. لا أعرف إلاّ تلك التي ولدت على ضفافها. هكذا احتلّت البقعة الصفراء مركز الصدارة في الصورة الأولى مجهولة الحدود مجهولة المحتوى مجهولة الامتداد أجلس إلى اليوم إلى ضفافها أتأمّل اجمل لوحة فنّية لعالم هو اكبر الفنّانين.

يقال أنها تمتدّ من بحر إلى آخر أنّها تزحف كالثعبان الشّره في اتّجاه الجنوب لتهاجم أحراشا عجفاء لا أمل لها في صراع متكافئ فما بالك بانتصار وإنها تزحف نحو الشّمال كأنّها تريد الوصول إلى شواطئ ذلك البحر الذي يصفه لسان قومي بأنّه أبيض ومتوسّط والحال أنّني عرفته دوما أزرقا ولا يتوسّط إلاّ مشاغل من يحيون مثلي على ضفافه.

كانت المكان الذي ينطلق منه كلّ طريق الاكتشاف والمكان الذي يؤوب إليه كلّ طريق العودة إلى دفء الأمان.

يكتشف المغامر الطّفل أنّها غريبة متميّزة في كلّ طبائعها عن حالات الموجود الأخرى.

هي خلافا للجبل منبسطة ومسطحة ممتدّة ناعمة ويغرّك منها كلّ هذا وكلّها إغراءات قاتلة. هي خلافا للسهول والبراري لا تتحمّل من الكائنات إلاّ أقلّها ولكم تبدو بالمقارنة عجفاء عابسة الوجه مقّترة على نفسها وعلى أهلها. لذلك جعل أبناؤها من الكرم وهم أفقر الفقراء فضيلتهم الأولى.

هي خلافا للبحر لا تتحرّك إلاّ بمقدار ولا تثور إلاّ بمقدار. لكنّها أيضا وحش رهيب قادر على البطش والفتك إلاّ أنّها قلّما تعرف مثله نوبات الهستيريا.

لا شيء يشبه الصحراء قدر السماء وهي على ما يبدو رفيقتها المفضّلة تتبادلان الصمت وتتباريان في الأنماط والاتساع وتتعارفان على أن الاقتصاد في الحركة واللّون والامتلاء خيارات العارفين.

إنّ ما يميّز هذا الوجه الذي يتّخذه الموجود عن بقية حالاته وأقنعته وتمظهراته الأخرى أنّه اكتمال الفنّ والفنّ لا يكتمل إلاّ عندما يقتصد الفنّان. عندما يوجز ويكتفي بالإيحاء والصحراء هي اللّوحة التي يقتصد فيها الموجود الفنّان أيّما اقتصاد.

هو يقتصد الألوان والأصوات والكائنات وهو يوجز في كلّ ما يوحي به.

لن ترى في الصحراء إلاّ لونا أو لونين على الأكثر. يحضر اللّيل فيها كما لا يحضر في أي مكان آخر.

تقتصد في الصوت فلا تستمع له فيها إلاّ دويّ الصمت.

تغرق الصحراء في صمتها هذا. تدخلها الكائنات فلا تتجاسر على رفع الصوت. تمرّ وهي تتهامس وكأنّ شيئا من وقارها وهدوئها يثني عن الزعيق المنكر وعن الثرثرة الفارغة.

تقتصد في كلّ شيء. انت لن ترى فيها جماهير الكائنات وهي تتدافع بالمناكب لاحتلال الرقعة. هي كالبحر لا تطيق نفسها إلاّ فراغا إلاّ أنّها خلافا له لا تتحايل على الوفرة. تري البحر يطبق عليها في أعماقه ترى الصحراء لا تحتضن في أعماقها إلاّ نفس الإصرار على الوحدة.

إنّ للعالم أكثر من حالة يعتصر فيها من داخل نفسه أقصى الأحاسيس والمشاعر لكنني لا أعرف مكانا آخر غير الصحراء تصل فيها التجارب الحسية الشعورية إلى الدرجات التي تصلها وانت تائه في وسط هذا الدّيكور الفخم الضخم. إنها كاللاعب الماهر الذي لا يستخرج من الآلة أقصى ما يمكن من الموسيقى.

كانت مسام الجلد وأنا طفل يلعب على كثبان الرمل في حالة قصوى من النشوة بينما أنا أتسلق الأكمة وقدماي الحافيتان تلامسان وتتلمّسان ذلك الرمل الناعم.

ثمّ إنني كنت أصل قمّة الرمل فيبهرني الامتداد والفراغ والصمت وتنتشي روحا طربا لتلك الأمواج الصفراء وقد ثبتت على حال أو هكذا كان يخيّل لي.

إنّها المكان الذي يمكّنني من استعادة قدرة التعجّب والانبهار عندما أنسى أنّني أرتحل داخل عالم سحريّ وهي في كلّ الحالات المكان الذي تعلّمت فيه أن أعرف الهامّ والكثير عن أهمّ معالم الموجود الأخرى.

أجلس إلى اليوم إلى كثبان رملها أتعبّد في محراب الجمال وأرفع يدي وقد جاءَ اللّيل وكأنّني أتحسّس وجه اللاّمحسوس.

لا أشعر بأنني في تفاعل عميق مع الحياة إلاّ عندما أمثل بين يديها وهي جهنّم تتضوّع نورا ونارا أو جنّة تلبس قناع واحة خضراء هادئة يطوّقها اللّيل.

كان الرّجل أبي يصرّ على أن أعرفها عن كثب وأن أبقي لها وفيًا مهما انفصلت وتباعدت وهكذا غدت مركز الصّورة المنشودة تتوسّطها وتحتلّ فيها أجمل مكان.

كان يقول وهو في منفاه وقد اشتدّ حنينه إلى هذه الفيافي: لكم أودّ أن أتكئ وان امدّد عليها جسدي المرهق وأن أغرس مرفقي في رمل «العرق» وكان يتكلّم عن كثبان الرّمل هذه كعاشق يتحدث عن حبيبة طال شوقه إلى وصالها.

وأغرسه نيابة عنه فأشعر بقشعريرة لذيذة تسري في جسدي وأمرّر راحتي على الرمل الناعم وكأنني أمرره على شعر إبنتي.

لا أتصوّر جسدي إلاّ راقدا بين أحضانها ولا أتصوّر روحي إلاّ مرفرفة في سمائها تحملها الريح وتطوف بها مع حبّات الرمل ولا أرى لي شبحا إلا متجوّلا عبر نجومها ولا أرى لي ذكرى إلاّ في صحائفها ولا أرى لي قصّة إلاّ تلك التي يتناقلها البدو وهم بين حلّ وترحال إذ بقي في هذا الموجود رحّالة من هذه الطّينة.

إنّها مكاني المفضّل منه وزماني المفضل فيه ذلك الذي أدخلها وجلا وأخرج منها متثاقلا يبهرني صمتها يرهبني اتّساعها أبحر على رمالها كما يبحر آخرون على الأمواج انتظر هبوب عواصف رملها لأستعيد تلك الأحاسيس التي لم تنمح من ذاكرة الطفل أنقّب عن كائناتها المتواضعة الملتحفة بالسرّ فلا أبصر منها إلاّ خيالها وأقنع منها بالطيف والهمس لأنني أعرف وقارها المتعالي.

يلفحك فيها وهج كوهج النّار انت الذي قد لا تعرف للشمس إلاّ طلوعا محتشما وابتسامة شاحبة. هنا لابدّ أن تنظر خفية بقلق إلى النجم الساطع وهو يتسلّق كبد السماء تتساءل إلى أي مدى ستفتح جهنّم أبوابها ليتسلّل منها العذاب الذي ما بعده عذاب.

يلتهب الجسد ويغرق في مائه والاسم ـ العالم من حولك شحيح به. تعبث بك الصحراء وتعابثك وانت تمشي فوق رمالها الحارقة رقصا. تبقى تبحث عن مكان تختبئ فيه من استبداد الموجود عليك فلا تجد إلاّ لهيبه الحارق في كلّ مكان. وفي هذه اللحظات تجرّب من الصحراء احتدادها وقساوتها ويلبس الموجود قناع جهنّم وتتّضح جذور هذه القصّة الشائعة.

تمتدّ جهنّم هذه من فوقك ومن حواليك وقد يشارك في صنعها تلاقي الامتداد والفراغ والكائن الحارق المتصدّر كبد السماء.

تختبرك الصحراء. تجرّبك. تضع أمامك تحدّيات عظمى ففي هذا الامتداد لا مكان لأنصاف الحلول ولا هي تقبل المواراة والتمويه.

تجرّب الصحراء معك أشدّ القيظ وأشدّ البرد. تجرّب فيك وعبرك أبعد واعمق المخاوف.

تكتسب الرّحلة في الصّحراء صبغة خاصّة. هنا يعطي الموجود أقسى الدّروس لمن لا يعرف ما معنى أن يختار طريقا.

تفتح لك كلّ هذه المساحات الشاسعة ذراعيها وكلّها أمر ورجاء ودعوة وانت لست بحاجة لكي ترتحل عبرها إلى ما يطلبه الموجود منك وهو بحر متموّج مضطرب يصيبك بالدوران والغثيان. يمكنك هنا أن تضع الخطوة أمام الأخرى فلا تخسف بك قدم وهنا يحملك الركح ولست بحاجة إلى ما يفصل ويحمل ويرفع ويحمي.

تتقدّم لأنّك منذ أتيت هذه القصّة وانت لا تكفّ عن التقدّم. تدخل الصحراء وتدخلك. تأنسها وتضجرك وتتمازجان فتأخذ منها دون أن تشعر وتهبها كلّ ما عندك ولا تعي وهكذا رأيتك بدوياً جالسا على سنامّ الناقة فرأيت في داخلك فضاء بلا نهاية صفرة فاقعة وسوادا بثقوب من نور ورأيتك صحراء تتشكّل بشكل آدمي ونظرت إليها فلم أرها إلاّ بعينيك الآدميتين لا أعتصر منها إلاّ ما كان موجودا في داخلي.

ينبسط العالم كالكفّ لكي تستسهله. هو قادر على أن يخدعك بهدوئه ودعته وجمال ورواق مزاجه. هو في هذه الحالة لا يضع أمامك أياً من العراقيل المعهودة. يبدو الأتساع بدون حدود. تظّنه خاليا من كلّ الكائنات الغيورة التي تترصّد بك. تخاله بدون أمواج متلاطمة أو بدون عواصف هوجاء بدون سباع وأنياب ومخالب. تنفتح أمامك كما لو كان كلّ طريق فيها طريق إلاّ أنّك تعلم بالسليقة وأحيانا بالتجربة أنّها لا تدخل إلاّ عبر طريق واحد لا غير لا تحيد عنه وأن الهلاك يترصّدك في كلّ مكان.

يجلس الطّفل ساعات طويلة على قمّة «العرق» يجيل بصره في كلّ هذا الفراغ الداعي إلى الملء. يغمض عينيه ليرى قوافل أجداده تتقدّم بخطى بطيئة وقد تمازج الأنس والحيوان في وحدة أليفة لا يفرّق بينهما إلاّ اختلاف الأدوار ويجمع بينهما التخبّط في كلّ هذه المبالغة الخطيرة.

يتعلم الطّفل من رفاق الرّحلة ومنذ خطا خطواته الأولى أن لا أخطر من الصحراء تمتلئ مخيّلته بأقاصيص لا عدّ لها ولا حصر حول كلّ من توغلوا في كلّ هذه المتاهات فضلوا السبيل وقد انمحت كلّ الحدود وتساوت كلّ الاتجاهات وضاعت كلّ الآثار وانمحت كلّ العلامات.

أذكر يوم انقشعت كلّ الألوان وادغم الأزرق والأصفر والأخضر والبنّي في لون واحد حمرة مائلة إلى لون الرماد وكيف أنّه أصبح آنذاك الطابع المميّز للعالم وتلك حالة الموجود عندما يرغي ويزيد ويصاب بالصرع والهوس والهذيان.

ها انت أمام لحظة تصرع فيها الصحراء.

لقد أصبحت ريحا عاتية من الرمل أو رملا أصابه هيجان وهذيان.

هو لم يعد ذلك الرمل الذي تمتّعت برؤيته أمواجا لطيفة لا تتحرّك إلاّ بلطف ولا تزحف إلاّ بمقدار. إنّه رمل مجنون خبيث يلطمك وكأن له معك ثأر. يحفّ بك يريد أن يواريك الثرى وتشعر أن فيه رغبة للإيذاء والقتل وأنّك العدو الذي يبغي والخصم الذي لا بدّ له أن يركعه. تتصاعد من الأعماق المخاوف الأزلية التي تثيرها دوما فيك الصحراء.. أن يبتلعك الرمل وانت بين مطرقة الشمس وسنديان الرمضاء.

ها هي الصحراء قد فتحت فاهها المخيف تنفث الرياح السموم تستّعد للعزل للبلع للهضم للقتل... ومن حواليك تتلاشى الحدود وتتبخّر الأشباح. تشعر أنّك وحيد أمام الوحش وكم من مسافر انتظر الموت رحمة تنقذه من الاصطلاء بالنّار المكنونة والاختناق بالرمل الحارق.

يتمكّن منك الرعب وانت فجأة وجها لوجه مع الصحراء المصروعة. تمدّ يدك فلا تراها وتصرخ فلا يجيبك إلاّ صفير الوحش وتمشي أمامك قدما فإذا بكلّ طريق لا طريق.

انحفرت كلماتها يومئذ وإلى الأبد في ذاكرة ومخيّلة الطفل.

- خرجت من الخيمة. قام الريح. ابتلعتها العاصفة. تاهت. لم توجد إلاّ بعد أيّام ميّتة مردومة على بعد بضعة أمتار من الخيمة.

قال يروي رحلة صيد كادت تنتهي بها الرحلة...

سبقوني فركضت وراءهم. فقدتهم ولمّا وصلت الشمس إلى فوق الرأس ترمي بأشعتها الجهنمية كمن يرمي صيدا بالنبال أيقنت أنني موشك على الهلاك. حفرت لي في الرمل حفرة ودخلتها. انتظرت أن تذهب اللّعنة التي فوق رأسي إلى مستقرّها وراء الأفق. عشت يوما آخر. ثمّ إنني خرجت من الحفرة وقد كفت السماء عن رمي النبال والخناجر وبقيت هكذا أحفر الحفر نهارا وأمشي ليلا إلى أن وصلت الواحة.

وقالت: مشت المرأة أيّاما وأيّاما تدور في ألف حلقة مفرغة وقد تساوت أمامها كلّ الثنايا. كانت على مرمى حجر من القرية ويوم استقام لها الطريق لتصل خيمة بدوية تهاوت ميّتة.

لا شيء يروى على ضفاف الصحراء أو في قلبها إلاّ وفيه قدر كبير من قصص الضياع والتيه وهي الإشكاليّة الأولى للمرتحلين أينما كانوا وأيّا كان المستوى الذي يشقّون فيه طريقهم..

يتعلّم المرء في هذه المناطق أن أوّل ما يجب أن يعلمه هو كيف لا يضيعَ كيف لا يفقد الصلة بالآخر والصلة بالطريق والصلة بالنجوم والصلة بألف علامة وعلامة تنذر بقدوم العاصفة أو الغزاة.

أغمض عيني لأتصوّر كم من رحالة مرّوا وكم عبروا وكم تاهوا فلا تسعفني المخيلة ولا الذاكرة أعلم أنّهم مروا من هنا وأنّهم تبخّروا هناك. أعلم أنّهم ظعنوا وارتحلوا ودخلوا الفيافي نشوانين حذرين وأنّهم تلمّسوا الطريق أجيالا بعد أجيال ليرّوضوا الصحراء هذا الوحش الرقيق.... هذا التحدّي الكبير الذي يستنفر فيك أقصى الطّاقة لمواجهة أقصى الأخطار لأنّ فيها أقصى ما يمكن أن تظفر به الرّحلة.

هكذا كانت «الصّحراء» قاعدة الانطلاق ومنها خرجت إلى فضاءات أخرى أبحث بنهم عن قطع العالم الأخرى علّني أصل يوما إلى تجميع كلّ القطع فأعرف أين أنا وربّما من أنا.

أعود إليها مهما تباعد بي الطريق إذ هنا تتجلّى كلّ العظمة والأبّهة والجلالة والقسوة التي تعلّمت أنّها الخصائص الملازمة لعالمنا وتحت ضوء تلك القناديل التي تتلألأ في قبة الموجود وفي خضم ذلك الصمت الرهيب وفي ذلك الأنباط والاتساع والتباعد يشعر الإنسان بقربه الشديد من أولى الذكريات تراه يكاد يعمل المفتاح في قفل الذاكرة المغلقة وهنا يكاد يشعر بأنفاس الربّ تدغدغه وهو مفقود موجود جالس على ركبتيه كالطفل تدهدهه أمّه.

لم يعرف عن البحر أنّه أنجب أنبياء ولا عن الجبل ولا عن السهل ولا عن المدينة ولا عن النهر وإنّما إنجاب الأنبياء من اختصاص الصحراء والصحراء وحدها.

تتفجر النبّوة عند أبناء الصحراء من الإحساس بالقرب الشديد ومن شدّة الاقتراب إلى سدرة المنتهى. هكذا يقف ضرورة المرّة تلو الأخرى إنسان جاوز حدود الدور وحدود الملحمة وحدود الموانع والإقفال ليصرخ: لقد تذكّرت لقد تذكرّت.. لقد تذكّرت من أنا من انتم من نحن...

* * *

٣ ـ وبخصوص أن للعالم أصابع ماهرة تنقر على أوتار الرّوح تعتصر منها كلّ ما قبل لآدمي بمعرفته من أحاسيس ومشاعر قال الرّاوي:

تصل الموجود وتدخله من باب ضيّق فلا ترى منه إلاّ ما يرى من وضع أنفه على لوحة تحتلّ جدارا.

لابدّ لك أن تتباعد وأن تأخذ كلّ الوقت ولابد أنّك رفعت الرأس مبكرّا لتكتشف الجزء الأعلى من العالم المهيب. إنّه الجزء الذي يتشارك فيه كلّ بني سفر مهما كان موضع الباب الذي دخلوا منه. هكذا ترانا نخلق عالمنا من صورة خاصّة وهي الجزء الأسفل من العالم أي الجزء من الصورة الذي نضع عليه الأنف وصورة عامّة هي الجزء الأعلى ونحن نمسح بالنظر كلّ مجال الفضاء.

يجلس الطفل على قمّة «العرف» ويتصادف أن الواحة الفقيرة لا زالت تجهل الكهرباء لحسن الحظّ وأن الصمت لا زال فيها قيمة ووقارا.

يرفع الطفل رأسه إلى أعلى فيحير لبّه.

يضع العالم أمامك روائعه وتحير في اختيار أجملها وتبقى تواجهه كما تواجه الغانيات تتابعن فينسيك جمال آخر عابرة سبيل جمال من سبقتها.

لا شيء في اللّغة قادر على أن يصف تلك اللحظات والحلّ أن تبحث في ذاكرتك عن مثل هذه التجربة وأن تسارع إلى الصحراء لتجلس ليلا إلى النجوم إن لم تفعل إلى حدّ الآن. فهل يعقل أن تغادر الموجود وانت لم تر أروع ما فيه.

أذكّر أنّني اكتشفت ليلة أن فوقي مثل هذه الرّوعة ولكنّني لا أتذّكر متى كان ذلك اللّقاء.

أذّكر أن خطاي لا زالت دوما إلى الصحراء بحثا عن ذلك التلاقي وأنّني كنت أنجح دوما في إثارة ذلك الشعور الذي عرفه الطفل لأوّل مرّة والذي لم يكن يعرف له آنذاك اسما.

إنّه شعور لا ينبثق من الأعماق ولا يطغى ولا تستسلم له كما تستسلم للنوم بعد طول الأرق إلاّ إذا اجتمعت النجوم والصّمت والصحراء.

تسمّى اللّغة هذا الشعور خشوعا وأتذّكر أنّني لم أجده يوما في تلك الأماكن المغلقة التي يفترض فيها سهولة تحريكه داخل الذّات والتي تسمّى معابد وإنّما فقط في مثل هذا التلاقي.

تستبطنني الصورة وأرفض أن أرفع الرأس ليلا لأنظر إلى النجوم والسحاب الدّاكن يحتلّ أرجاء السّماء وكم أكره أن أنظر إليها والأضواء الكثيفة المنبعثة من المكان تضفي عليها وشاحا متراقصا من ضباب يفقدها لمعانها استهجن أن أنظر إليها والزعيق يتصاعد من حواليّ أو بالي منشغل بمشاكل الرّحلة اليومية.

لا أرفع الرأس لأواجهها إلاّ إذا توفّر المحراب اللاّئق وهكذا كنت أعود للصحراء كمن يضرب عصفورين بحجر واحد أرضي حاجة الجسم إلى لمس الرمل وأشبع حاجة الخشوع عند الروح.

ياما عبرتني من أفكار ومن صور وأنا جالس المرّة تلو الأخرى أناجي العالم وهو في هذه الحالة.

أذكر أنني رفعت طفلا مرّة إصبعي أبدأ العدّ أضحك من نفسي ومن المحاولة.

أذكر أنّني أخذت يوما طفلتي وهي في الرابعة وأنّني أريتها النّجوم وأنّني طلبت منها أن تختار إحداها وإنّها اختارت وأنّني أهديته لها وأنّني سمّيته باسمها وأنّها ضحكت وأنّها كبرت ولا تزال تتذكّر وتفاخر بأن أباها أهداها يوما نجما من نجوم السّماء.

أذكر أنّني كنت أجيل البصر بين نجمين أقول لنفسي لقد ربطت بينهما في أقلّ من لمح البصر على ما يقال من غلوّ تباعدهما ومن ثمّة فهناك ما هو أسرع من الضوء... ذهني.

أذكر أنّي رأيته من نافذة قطار يشقّ عتمة اللّيل بضوئه وصراخه وكأنّه اعتداء بالفاحشة على عذراء وأنّه كان يطلع من فوق الأفق وقد أوشك الصبح على البلج وأذكركم أبهرني بحجمه وبريقه ثمّ تعلّمت أنّ إسمه نجم الراعي وأنّه كوكبٌ وليس نجما.

أذكر أنّني بحثت دوما عن نجم لامع رغم أنّه لا حاجة لي بمعرفة شمالي من جنوبي لأن ركّاب الموج جعلوا منها دليلهم في مجاهل اللّيل والبحر.

ولنا طفلة أسميناها «سها» والسّها بلسان العرب نجم لا تراه إلاّ العين الحادّة الثاقبة ولم تكن لعيني قدرة اكتشاف السها لكنّني أذكر كم تمرنت كجلّ المسافرين الذين سكنت أرواحهم دوما تلك العلا على مقارنة اللّمعان واكتشاف الأشكال الهندسية التي اختلقتها مخيلة أجيال المسافرين وأذكر أنّني كنت أشعر بزهو طفولي وأنا أردّد أسماء لها جاءت بلسان قومي وأذكر أنّني أملت أن تتلألأ فجأة قرب ذلك المكان الذي أودعته نجم طفلتي نجم كأنّه شلاّل من نور وأن يكون ذلك دليلاً على أن أحدا أو شيئا قد فهم رجائي وطول

انتظاري وأنّه يشير إليّ أن لا ترهب ولا تخف وأنّك لست وحيدا تائها في اتّساع الزمان والمكان.

وأذكر أنّي لا زلت أحمل داخل مكتبتي الخيالية صورة عن نجم كهذا يقال أنّه لمع ببريق خاطف غير مألوف وأنّه أضاء جزءا كبيرا من عتمة اللّيل وأن من رأوه من المسافرين ذهلوا وارتعبوا واعتقدوا أنّها النهاية وأن ثلاثة رحّالة من الملوك اهتدوا به ليقودهم إلى مغارة يرقد فيها رضيع إله جاء لينقذ المسافرين من التيه والضياع.

أذكر أنّني أجهدت عقلي ومخيلتي لأرى أمّ النّجوم من خلال الزرقة والقرص الذهبي يخترق السماء من شرق إلى غرب غير مبال بأنّني أفضّل على أبّهته وجلاله من هم أقلّ منه حجما وخطرا وأذكر أنّني كنت أخشى أن لا يعود فلا أرى طلعته وأن لا يخرج أبدا من مجال البصر فلا أرى تلك الأضواء المتراقصة التي تخيّلتها يوما مشاعل لأقوام غازية تبحث لها عن طريق في ظلمة الكون اللاّنهائية.

يتخيّل الطفل أنّ السماء وهي تلتحق برداء اللّيل سبّورة سوداء كتلك التي يعرفها في تلك الأماكن المغلقة التي كان يرتادها ليتعلّم قصص قومه وليرتبط بها حتّى تتابع السلسلة يتخيّل أن تلك النقط البيضاء المتناثرة في فوضى رهيبة خطاب خطّه أحد ويبقى يجهد عقله ليقرأ الرّسالة التي كتبها مجهول إليه.

يتعلّم بمرور الزمان أن يربط بين نقط أكثر وضوحا بخطوط وهميّة وأن يقول مع من علّموه هذا النوع من القراءة إنّها منطقة كذا وكذا من الفضاء لكنّه لم يكن يريد تعلم جغرافيا اللّيل وإنّما هو كان يريد فكّ رموز لغته.

ترى ما الذي تعنيه هذه اللّغة وبأيّ شفرة كتبت ومن كتبها ولمن هي موجّهة يأتي سيّد السّماء الأكبر كلّ صباح ليمحو السبّورة وما كتب عليها ولا بدّ لك أن تنتظر ذهابه حتى تعود بإصرار غريب لمحاولة فهم تلك الرّسالة.

وقد تكون اعتقدت مثلي أيضا أنّها ثقوب في ستار اللّيل الدّاكن وأن هذا السّتار أسدل بين عالمين كما تسدله انت بين جزء الرجال وجزء النساء في خيمة بدوية سوداء. لطالما رأيت بدر الدّجى ثقبا مستديرا يفضح بعض النّور الأزلي الدّائم الموجود وراء السّتار كذلك رأيت النجوم ثقوبا صغيرة فيه وحلمت بأنّني أسترق النظر من خلالها لأرى ما وراء السّتار. كان لي اعتقاد يكاد يصل إلى مصاف اليقين أن عالم النور المخفي هو جنّة الرضوان التي سمعت المرأة ـ الأمّ تتحدّث عنها كما تتحدّث عن قرية «التوتة» التي كانت وراء غابة الزّيتون.

كنت أتصوّر أنّني لو نظرت من خلال الثقوب هذه لرأيت «الله» ذلك الكائن الغريب البالغ الأهمّية والخطورة في أفعال وأقوال المرأة ـ أمّي جالسا على عرشه.

ثمّ جاءت القصّة تطرد القصّة وهكذا أجبروني على أن أخرج من ذهني ومخيّلتي صورة ثقوب النّور ونقط خط غير مفهوم لأتصوّر اليوم مع من هم من جيلي ومن يشاركونني نفس القصص أنّها شموس مغالية البعد أنّها من طبيعة ذلك الذي يحرق جلدي أيّام توهجه وذلك الذي أبحث عن أشعته أيّام إعراضه والاحتشام.

إنّهم يقولون أيضاً إن تناهي الحجم في الصّغر وتواضع فعله وهو يلامس جلدي مرتبطان بغلوّ بعدهم في المكان والزّمان. يحار عقلي وهم يفسّرون لي إنني لا أرى إلاّ صورة قديمة بملايين السّنين وأنّ النّجم الذي أهديته لابنتي قد يكون مات منذ حقبة من الزمان لا قبل لي بتصوّرها ويزعجني إنني قد أكون أقطعت ابنتي وملّكتها شبح نجم مات أو انتحر. لا يبقى عليّ كالعادة إلاّ أن أرى ملايين الشموس هذه بعيني المخيلة وأتصوّرها بعدد حبّات رمل الصّحراء التي أنا جالس بين يديها وأتصوّرها بذورا يغرفها من سلّته مزارع كوني يبعثرها على مدى الامتداد الرهيب علّها تلد كواكب وأحياء وقصصا وأتصوّرها تتجمّع في مجرّات مختلفة الأحجام والأشكال وأتصوّر المجرّات تدور وتتباعد كما يقول من أقرأ لهم قصص العلم ومن أحبّ تصديقهم. يتراءى لي وقد أغمضت العينين نجم أزرق يبرز من قاع بحر ورديّ يرمي بأشعتّه الحارقة على صلب لزج. أتصوّر عالما ميّتا يكاد يحتضنه وحش أحمر منتفخ الأوداج ينفث لهبه ليحرق كلّ من مشت على سطحه به قدم وأتصوّر عالما بشموس ثلاث وآخر بسلسلة كاملة من الشموس تدور حوله وهو وسطهم كوكب - فريسة وأتصوّر نجمين وحيدين اختليا ببعضهما البعض في مجاهل الفضاء يتبادلان الغزل وأتصوّر نجما تسكنه كائنات مـن نور وأتصوّر امبراطوريات آدمية ولا آدمية حدودها هذا النجم أو ذاك أو أتصوّر شاعرا ينظر من هناك إلى سها هي هذا النجم الذي ندور في فلكه غير واع أنني أيضاً متشوّق إليه.

تستسلم المخيّلة. أقنع بأن أحدّق بالصورة المرسومة أمامي على ستار اللّيل وكأنّني أراها لآخر مرّة وأجيل بصري من تحت إلى فوق ومن اليسار إلى اليمين ببطء شديد أملأ عينيّ ممّا أرى دون أن أحاول أن أفهم وأن أصنّف وتتراءى لي وراء هذه اللّوحة الواضحة صورا باهتة مضطربة لفضاء أسود داكن لا بداية له ولا نهاية بجزر النّار والنّور التائهة في اتساعه المخيف. يحلّق الخيال بالطفل ويتواصل السّفر على متنه وقد قطع الكهل من الطّريق أكثره وكأنه الردّ الوحيد للمسافر المسكين أمام الامتداد المفرط والسرّ المهيب لعالم بلا نهاية.

* * *

٤ - وبخصوص أنّه مرآتك التي تعكس ذاتك وأنّك مرآته التي تعكس ذاته

قال الرّاوي:

تتكونّ أوِل صورة لك حسب ما أعتقد وأتذكّر عن سيّد السّماء بحاسّة اللّمس وليس بالرؤية.

أبقى مصرّا على أنّك لاتعرفه حقّا إن لم تراقبه في حالتيه القصويين حملا وديعا ووحشا كاسرا وهو لا يلبس هذين القناعين إلاّ في الصّحراء.

تداعب أشعّته الرقيقة بشرتك البضّة وانت لا زلت تلعب دور الرضيع ويخيّل إليك أنّها قبلات دافئة يخصّك بها دون كلّ الكائنات المتعطّشة إليه. تجرّب اللّذة الهادئة وهدوء اللّذة ثم تعضّك أنيابه وهو في أوج تألّقه فتجرّب بعضا من طعم النّار وينفتح باب الألم وتدرك تعقّد دروب الاسم ـ العالم.

هو يلمسك برفق أو بفظاظة لكنك لا تستطيع أن تلمسه بدورك يوم تنتصب لتبحث عن مصدر الدفيء والنّور. تمدّ يدك طفلا عبثا تريد تمرير راحتك على وجهه كما تفعل عندما تبدأ التعرّف على قسمات هذا الوجه الباسم الذي ما انفكّ عاكفا عليك منذ دخولك الاسم ـ العالم. يقيّ أن وجهه هو خارج المنال لا تلحقه حتى ولو وقفت على قدميك المرتعشتين.

تستبطن معاني البعد والمستحيل والعلوّ والسموّ. انت لا تستطيع كذلك أن تحدّق فيه ملّيا كما تفعل عندما تركّز عينيك على الأقنعة المبتسمة التي تتدافع لتتعرّف عليها وتتعرّف عليك. لا تحاول ذلك المرّة تلو الأخرى إلاّ وسارعت لتطأطىء الرأس كما يفعل العبد أمام سيّد مهيب لا قبل له بمواجهة اللّهب الذي في عينيه.

تدير له الظهر وتتركه يغمرك من كلّ الجهات. انت الآن في الحضن الدافئ لهذا البعيد المتعالي المغالي في الأبّهة والجلال.

إنّ له من الأسماء ما لا يحصى لكنّها مجرّد أصوات لسان وحشرجة حنجرة وتشنّج شفتين تحرّكهما عضلات جاهلة بما تقصد. لو عرفوا له اسما لكان واحدا بينهم وياما ستسمع من لغط حوله ومن قصص وأساطير تروي عنه.

لن يهمّك من القرص الذهبي الذي لا يعرف له أحد اسما والذي له كلّ الأسماء أن يكون إلها أو بعبعا آكلا.

يكفيك أنه معلم من معالم الاسم - العالم الذي ارتضيت اكتشاف روائعه وأسراره.

تتعلّم باكرا أنّه لا يخرج عن مسار ولا يبرز بشكل غير الذي عهدته منذ وطأت قدماك هذا الاسم - العالم وله دوما نفس الألوان أو هكذا خيّل لي دوما.

انت لا تعلم لماذا يأتي ولماذا يذهب وأين يختفي عندما يختفي ومن أين له إصراره الهادئ وثباته الدائم على حركة لا تتسارع ولا تتباطأ.. لا تتأخر ولا تتقدّم.. لا تحيد عن مسار ولا تخرج من سكة.

هولا ينقسم ولا يتفجّر وهو دوما أين تتوقّعه وكيف ما تتوقّعه.

تبلى فيك هذه الألفة اللّعينة قدرة الملاحظة والاستغراب قدرة التأمل والإعجاب باستثناء بعض الحالات التي تستعيد فيها فجأة قدرة ومتعة الانبهار.

تجلس على الرّمل النّاعم عاشقا ولهانا ويد الحبيبة بين يديك والصّحن الذهبي ينزل بتؤدة وجلال إلى أعماق البحر ويخيّل إليك أنّك تراه لأوّل مرّة. لاغرابة في ذلك لأن من وظائف الحبّ أن يزيل عن عينيك ألف غشاء وغشاء.

ترفع عينيك المثقّلتين بالنّوم لتراه فجأة يتوسّط إطار نافذة قطار مسرع وهو بصدد الخروج من المجهول فتدهش لجمال أخّاذ نسيته وهو دوما ماثل بين يديك.

تمرّ الرّحلة وهو حاضر غائب مذكور منسيّ محبوب مكروه وهو فوق رأسك دوما لا تعلم له رأيا فيك وفي كلّ ما يجري تحته.

يأتي اليوم الذي تتعلّم أنّ الوجه المشرق الوضّاء للعالم يعطيك ولا ينتظر منك شيئا يعد ولا يخلف يغمرك بعطائه ولا يبخل على غيرك يفضلّك ولا يفضلّك لك وليس لك وأنّه البعيد القريب العظيم المتواضع السيّد - الخادم.

تلاحظ وانت طفل انّه صحن ذهبيّ مستدير باستثناء لحظة دخوله أو خروجه حين يبدو نصف دائرة تكتمل أو تتناقص.

يتأرجح لونه بين صفرة فاقعة وبياض برّاق مرورا بكلّ أصناف الحمرة وتتعلّم لحظة أن تشير إليه بهذا الاسم أوذاك لتسمّيه وتبني به صورتك للعالم.

أذكر يوم تجلّى لي في كلّ غرابته وسرّه ومهابته وجماله الأخّاذ.. وذلك يوم رأيته كما لم أره يوما وكما لا أظنّ أنني سأره مرّة أخرى وكنت آنذاك بين البسيطة وسقف العالم جالسا في تلك الآلة العجيبة التي اخترعها الحجّاج لاكتشاف دروب الاسم - العالم من فوق.

وممّا أذكره خاصّة ذلك اليوم أن الكهل استعاد كلّ طاقات تعجّب طفولته.

لا شيء يستنفذ غرابة الاسم ـ العالم وجماله لا اللّغة ولا ما وراء اللّغة لا الصّورة ولا ما وراء الصورة وإنّما الفضل النسبي للّغة على الصورة إنّها تترك المجال لخيال من يقرأ ليرسم هو على شاشة فكره ألف صورة وصورة والاسم ـ العالم الذي يحبّ التنوّع والتّمظهر اللاّمحدود شكلا ومحتوى سيبقى دوما مدينا للحرف الإنساني لأنّه يولّد في كلّ فكر يقرأ صورا تضاف إلى صور تضاف إلى صور.

ها انت الآن مطالب بأن تساهم في إرضاء نهم الاسم ـ العالم إلى التغيّر عبر فكرك وكلّ فكر تواصل في مثل هذا التمرين خلق الخالق الخلاّق.

إنّ ما رأيته ذلك اليوم على ذلك العلوّ الشاهق ليفوق كلّ وصف وإنّما عذري مجدّدا أنّني أحسست بشعور جارف لأن أخطّ أسطرا قليلة مرتعشة على ورقة دفتر حتى لا أنسى.

إنّ أهمّ شعور ينتابك وانت تنظر من تلك العلبة المعدنية الطائرة التي تحميك في ذلك العلوّ الشاهق من أنياب الاسم ـ العالم المعقوفة هو مهابة الامتداد اللاّمحدود.

تتّسع الحدقتان وهما وحدهما المعنيتان بالوليمة فلا اليد بقادرة على تلمّس وجه السّماء ولا السمع بقادر على الاستماع إلى الهمس المتبادل في هذا العلوّ بين قطعان السّحب ولا الشمّ ولا الذّوق قادران على المساهمة ويقنعك من الوليمة ما ترى العينان.

وعلى يسار العلبة الطائرة ترى الاسم ـ العالم يرتدي عباءته المظلمة وعلى يمين العلبة الطائرة تبدأ لعبة مذهلة بين شتّى حالاته وسيّد السّماء على وشك الاختفاء التدرّيجي وراء الأفق.

هو يبدو في هذا العلوّ الشاهق وعلى مسافة يصعب تقديرها كفصّ بيضة مقليّة وضعت على طبق داكن اسمه السّماء.

تتلألأ صفرة الفصّ وكأنّها صفرة ذهب مصفّى لم يتجمّد بعد في سبائك باردة ثم هي تكتسب شيئا فشيئا حمرة الحمرة وكأنّ إلها ينفخ عليها لتتوهّج وترمي الأفق بأحرّ لهب.

ينقلب الجزء من السّماء الذي تتوسّطه الحمرة الملتهبة إلى بحر قان. تخطر ببالك فكرة رهيبة أن القرص الذهبي حيوان كاسر فتح له في جنب الاسم ـ العالم الحيّ منفذا ليتسلّل منه إلى مخدعه وأنّ الاسم ـ العالم بأسره هو الذي يدمى من جنبه وأنّ ما تراه ليس إلاّ بحرا من الدم.

لا تلبث أن تنحسر هذه الفكرة وانت ترى الظلام يزحف بدوره على الحمرة المستشرية وكأنّ السّماء كلّها أصيبت بنوبة من الحمّى. يمتزج السواد بالدم القاني فلا تدري هل هي

جزر من الدم تسبح في محيط من السّواد أم هل انت ترى أنهارا جبّارة سوداء تشقّ لها طريقا عبر الحمرة الدّاكنة.

وعلى أقصى اليمين تراها تفقد شكلها الكروي لتصبح خيطا رفيعا يتوارى شيئا فشيئا عن الأنظار. تركّز البصر تتابع ذهابه وكأنّك تخشى أن لا تراه ثانية. بدون سابق إنذار لا تعد ترى إلاّ نهرا من النّار يشقّ محيطا من الظلمة وتعجز عن أن ترى لهذا النهر الجبّار بداية.

وعلى أقصى اليسار أين يبدأ أو ينتهي الأفق يزحف الظلام بسرعة مهيبة يبتلع جزر وشظايا الحمرة. تتابع احتضارها وهي تمرّ من بهجة البريق إلي الشحوب فإلى العبوس القمطرير فإلى الدكنة المنذرة بأنّها أسلمت أمرها لصاحب كلّ قرار وأنّها أقرّت بالغلبة للّيل.

هكذا أضفت ذلك اليوم المشهود صورة رائعة له إلى صوره الأخرى وكنت قد تأملّته وهو حمرة واعدة في آخر هزيع من اللّيل يخرج بجلال من وراء هضاب الرّمل وهو كتلة من نار ونور عندما يتوسّط السّماء وهو ضوء باهت حين يضع على وجهه نقابا من السّحب الدّاكنة وهو تفّاحة حمراء تغمسها يد اللّه بلطف في مياه بحيرة هادئة.

إنّ ما أذكره انّني سألت يوما الرّجل أبي لماذا هو واحد فرد ولاأذكر انّه أعطاني إجابة مقنعة أو حتّى أنّه أجاب.

إنّك مهما حدّقت في الأعالي فلن تكتشف له شبيها فلا رفيق على يمينه أو على يساره ولا بطانة أو حاشية حواليه من صغار الشموس.

يبقى الطّفل يتساءل هل هو واحد لأنّه أراد ذلك لأنّه التهم الأخوان والأعداء ليستفرد وحده بالملكوت أم هل هو واحد لأنّه آخر سلسلة من ملوك السّماء.. أهو اليتيم والناجي من أعظم الكوارث.

تخامره الفكرة المجنونة أنّ لا بدّ له من رفيق حتّى لمثل هذه الكائنات الضخمة المغالية في البعد والعلوّ والتألّق وأنّه بأمسّ الحاجة لأليف بحاجة لمثيل يحاوره ويطمئن إليه ويكتشف ذاته في ذاته.

تستبدّ هذه الفكرة بمخيّلة الطّفل فيخلق للقرص الذهبي أخا زوجا أليفا ولأن هذا الاسم ـ العالم خيال من صنع مخيّلة عبقري ملهم فإنّه لا يضيره في شيء أن تعبث المخيلة داخل المخيلة بمكوّناته الخيالية.

تنتهي بإرادة طفل صغير عزلة الواحد الأزلية. أغلق عينيك ترى الآن مشهدا غير مألوف فعالمك الذي عرفته دوما ينام ويستيقظ على قرصه اليتيم قد أصبحت تتقاسم أيّامه رقصة التوأمين. يفقد القرص الذهبي عزلته ويفقد الاسم ـ العالم شيئا غاليا ثمينا. ذهب اللّيل إلى غير رجعة ولم يبق من مكان للسواد الدّاكن.

قد تفضّل أن يبقى القرص الذهبي يتيما وحيدا على أن تفقد اللّيل إلاّ أنني ما زلت أحلم إلى اليوم بعالم فيه شمسان أو حتّى ثلاثة. تصوّر كم سيكون المنظر غريبا رائعا وانت تنظر إلى صحن ذهبي مركزي توسّط السّماء وعلى أقصى يمينه أخ وعلى أقصى يساره أخ آخر وهم يتتابعون ويختفون حسب ما تشاء من السيناريوهات وأحمد القدرة على انّه ليس لنا مثل هذه القدرة وإلاّ كان موضوع تزيين الموجود والتحكّم في حركاته وسكناته مصدر مشاكل وخلافات في عالم آدمي لا تنقصه المشاكل والخلافات.

تتعلّم أن تطمئن إلى قدومه في الموعد وذهابه في الموعد ورجوعه في الموعد ولا ترى المعجزة.

إنّ من أقدم المخاوف وأعمقها عند بني سفر أن يأتي يوم من الأيّام نفيق فلا نجد أي أثر لـ «رع» كما يسمّيه لسان قدامى المصريّين.. سيهجرنا كما تهجر الأمّ أطفالا شبّوا عن الطوق وأرهقوا منها الصبر واستنفذوا منها كلّ طاقة الغفران.

يتصوّر الطفل الكارثة. ستفيق آنذاك على عالمنا وقد رمت الأقدار عليه عباءة الحداد. ستطلى الأرض بلون القطران ستصبح البحار سوداء. ستصبح حقول القمح والأرز سوداء. سيسودّ القطبان وستسودّ قمم الجبال الشامخة. ستحافظ السّماء على سواد سرمدي تلطّفه أحيانا أشعّة القرص الفضّي. ستطلى الغابات بلون القار. سيأكل السواد جمال أجنحة الفراش وجمال الأزهار وجمال السحب البيض.

ستتخبّط الكائنات في هذه الظّلمة الدائمة وقد ضاعت معالم كلّ طريق. سيلتهم السواد ملامحها وأشكالها وألوانها. ستموت كلّ الكائنات من فرط السواد قبل أن تموت من فرط الصقيع والخوف. سترعرع الأشباح والعفاريت لأنها وحدها القادرة على الظلام وأهواله. سينتحر كلّ آدمي حزنا وكمدا ناج من الكارثة إذ من أين له أن يسكن عالما ذهبت منه الألوان والكائنات وامتلأ أشباحا وعفاريت.

ستنتهي رحلة كلّ المرتحلين لأننا أغضبنا «رع» لأنّنا نسينا أن نقدّم له القرابين والمذابح لأننا أهملناه ولم نعد ننظر إليه إلاّ لماما لأننا لم نوفّه قدرة من الشكر والامتنان لأننا جرحنا فيه الكبرياء ولم نلتفت إلى حاجته هو الآخر إلى المحبة. حتّى لا يذهب «رع» ويتركنا يتامى فلا بدّ أن ننتبه إليه. يجب أن لا نأخذ عطاءه على أنّه فرض واجب وسخاءه على أنه جزء من وظيفة جعلت لخدمتنا.

يطلّق الطفل هذه الصورة لتغزوه صور من قصص تسمّيها اللّغة علما هو فيها مجرّد كتلة من النّار الملتهبة في أحشاء السّماء وممّا سمعته أنّه الأب الذي تولّدت عنه الأرض مع ثمانية من الاخوة وأنّه البعبع المخيف المترصّد بالأرض إنّه يحوم حولها كما يفعل الصيّاد حول فريسته وإنّ قدرها طال الزمان أو قصر أن تجد نفسها بين فكيه الملتهبتين نارا أنّه

سيشويها على نار هادئة ليبتلعها لقمة سائغة ساخنة عندما تنضج الكائنات الملتحمة بها. يبقى السؤال قارّا عبر تغيّر القصص: ما الذي بداخله ولماذا لا أستطيع أن أطأ أرضه أو سماءه تأتي هذه القصّة الأخيرة لتطمئن الطفل الكهل أن حلمه سيتحق يوماأنّ طريق الرحلة سيحمل أجزاءه إلى تلك الأعالي' أنّه عائد إلى جوف الشمس طال الزمان أو قصر.

* * *

يكتشف الطّفل بسرعة إنّ القرص الذهبي ملك النهار وسيّد النور لكنه ليس الساكن الأوحد لسقف الاسم ـ العالم ولسبب ما يقلّل هذا الاكتشاف من حسرته على كونه بدون أخ أو رفيق.

إن أوّل إشكالية لا حسم فيها مهما طالت الرحلة وتنوّعت التجارب هو من أي معدن قدّت أجزاء الاسم ـ العالم وهل هو مصنوع هنا من الواقع وهناك من الخيال هل مزيج من هذا ومن ذاك وما الفرق.

نحن لا نعرف الكائنات إلاّ بعد ما نتذوّقها ونلمسها ونشمّها ولا يكفي أن نراها وأن نسمعها. ألا نرى في المنام ونسمع.. نفيق فلا نجد بين أيدينا إلاّ الفراغ.

كان من الطبيعي أن يستثير فينا هذا المعلم القارّ من معالم الاسم ـ العالم كلّ الفضول وإن تتطاول القامة لعلّنا نلمسه ونمسكه كما نمسك بالتّفاحة والكرة الطّائرة.

لا غرابة أن يروي من سبقنا أن أجيالا متتابعة من المسافرين سخّروا له جزءا هامّا من حجّهم يصيخون السمع ليال طوال لعلّهم يسمعون له همسا أو ضجيجا. يجهّز بنو سفر من الآلات البسيطة والمركّبة ما جادت به القريحة يحسنّون ويزيدون ويزايدون على بعضهم لبعض لتلتصق الآذان بالجسم الصامت ليتلصلص النظر ليتوغّل في كلّ خافية دقيقة.

هم رصدوا تحرّكاته وتجسّسوا على كلّ طريق يتبعه وواكبوا تغيّر ألوانه لعلّهم يدركون من أي أتى وإلى أين مقرّ غريب يؤوب.

ثم هم بعد هذا صمّموا السلّم ورموه من فوق هوّة الظلام وتسلّقوا درجاته درجة درجة ليصلوا ما كان وراء وفوق كلّ أفق.

ذلك اليوم وقد اعمل الحرّ أنيابه في المدينة المترامية الأطراف وفي تلك السنّة التاسعة والستّين بعد مرور ألف وتسعمائة سنة على انتهاء قصّة وبداية قصّة بطلها مسافر علّق على خشبة تناقلت مناقبه ومآثره أجيال من المسافرين شاهدت تحقّيق الحلم القديم. وذلك اليوم رأيت المسافر ينزل من دابّته اللاّمعة التي حملته من عالمنا إلى عالم آخر يضع قدمه على صلب ليس صلب هذه البسيطة التي نشأنا عليها.

يضمن جيلي لمن سيأتي بعدنا من أجيال بني سفر أنّ الرحلة إلى بدر الدّجى ليست أسطورة أخرى وإنّما هي وقعت فعلا وأنّ منّا من ذهب ووصل ووطأ وعاد من ذلك المكان.

هم عادوا حقّا ليقصّوا قصّة محزنة عن عالم بلا روح لا تتدافع ولا تتزاحم على عتباته الكائنات لا تملأ بضجيجها وبألوانها وبروائحها المكان ولا تخلق بحركتها المحمومة زمانا يكون المقياس والمعيار. هم اكتشفوا عالما ميّتا أو عالما لم يولد بعد وخيّل لنا ولهم أنّهم وصلوا متأخرين أو وصلوا بعد انتهاء كلّ القصص وإغلاق الراوي سجلّ كلّ الرحلات.

يبقى أنّنا تأكّدنا كلّ التأكّد أن بدر الدجى ليس وهما ولا سرابا ولا حلما ولا خدعة وكم تنفسّنا الصعداء ونحن نرى بأم عينينا أنّه لم يبتلع الرّحالة ولم يلتهمهم بأسنان غير منظورة وكم تنفّسنا الصعداء وهو لا يميل ولا يترنّح ولا يصاب بالارتجاف والرعشة وروّادنا يقذفون الخطوة وراء الخطوة.

إنّه فعلا موجود وحقيقي إنّه صلب متماسك لم يتبخّر ولم يتفرقع إلى آلاف الشظايا ولم ينفجر كالبالون الذي ترشق فيه مسمارا.

يدعونا تأكّدنا الكوكب الدّري ليس صورة ملوّنة من ورق يحرّكها كائن ما إلى الاعتقاد بأن الصّحن الذّهبي نفسه موجود فعلا أن الثقوب البيضاء التي تشبه قطع السكر والتي توشّح رداء اللّيل موجودة في شكل ما قد نلمسه ونتذوّقه ونأكله في يوما ما.

ومن أجمل الصّور عن عالمنا تلك التي رآها الآدميون القلائل الذين أسعفهم الحظّ أن يطئوا صلب بدر الدّجى والتي شاركناهم فيها ونحن جالسون إلى أجهزتنا السّحريّة نتابع مشدوهين مشيهم القافز المضحك على سطح الكوكب الرّمادي الفارغ.

يقف المغامر الآدمي أمام الكاميرا كما أقف أنا وانت أمام الأهرام للصّورة التذكاريّة التي ستحتلّ أجمل وأبرز مكان في الصّالون لكن من سيمسك بالصّورة مبهورا يوما في ذلك الصّالون لن يرى وراء ظهر الرّجل المحظوظ المنفوخ أبّهة وكبرياء معلما لعالمنا وإنّما الكوكب الأزرق المكتظ... عالمنا نفسه أو بالأحرى جزؤه الظّاهر.

* * *

لكم تنسى لكثرة ما تنهمك في مشاكل الرّحلة أن ترفع الرأس إلى الفوق لتتأمّل سيّدة اللّيل الشاحبة الجمال وقد لبست قناع قرص فضّي يطلق عليه الآدميون ما لا يحصى من الأسماء والنعوت.

إنّ أهمّ ما تتعلّم منه ثباته هو الآخر على الموعد وذهابه وقدومه في الوقت الذي تنتظر. هو كالحبيب لا يخلف الوعد وكالصديق الذي لا يأتيك بشروط أو خاوي الوفاض هو كالمعلم الذي لا تبحث عنه إلاّ ووجدته أين يجب أن يكون في الوقت المحدّد. هو

سيعلّمك أن تألف منه الغياب والرجوع وأن تألف منه الاختفاء والبروز وأن تألف منه أنّه واحد ومتعدّد الأشكال.

وإبّان هذه الألفة تراك من أين تدري ولا تدري تتشبّع بما يريدك أن تعلم وأن تتصور لأنه شكل آخر من أشكال الموجود ـ المعلّم.

وهو لا يقوم وحده بالوظيفة فكلّ أجزاء الاسم ـ العالم تسرّ في أذنك بجزء من السر وانت تستنتج منها وتتعلّم. تنطلق منها لتضع لبنة فوق لبنة القصّة وإنّها لإحدى أغرب غرائب الرحلة. توحي هذه المعالم المعلّمة ولا تفصح. تشير إلى الاتجاه ولا تتبعك فيه. تضع الإطار ولا تملؤه. تثير فيك الفضول ولا تشبعه. تتكلّم وهي مغرقة في الصمت.

إنّ وظيفتها أن تبدأ الأحرف الأولى من الجملة ولا يبقى عليك إلاّ أن تكون نحويا بارعا وقصّاصا مجدّدا وإن بدر الدجى لخير والـمعلمين لأبلغ معلّم صامت.

يساهم هو الآخر في وضع الحدود والنقط على الأحرف وأنّك لتتعلّم منه حالة بدونها لا تستطيع متابعة السفر.

تصوّر أنّك استيقظت يوما لتكتشف خروج القرص الفضّي عن هذا الإيقاع الموسيقي الصامت لغدوه ورواحه وأنّها لدهشة ما بعدها دهشة لو طلع عليك قرص فضّي من مكان وثان من مكان آخر.

لا خوف عليك في مثل هذه المفاجئات فليس هناك في سقف هذا الاسم ـ العالم إلاّ مصباح واحد للنّهار ومصباح واحد للّيل ولا خوف من ذهاب بلا رجعة أو تباطؤ بلا سبب أو تغيّر في المسار لأحد منهما.

ها انت جالس ترتجف من الرعب في قعر كهف باردة وأنياب اللّيث بارزة تلمع في مدخل سدّت منه منافذ الهرب أوها انت تحت اللّحاف تتخيّل أياد تتحسّسك لأشباح هربت من المدافن والقبور وقد تتصوّر أنّك مريض ملقى على فراش الألم تحتضر تحدّق ببصرك الشاخص في الفضاء تنتظر قدوم ملكوت «الموت» وقد ارتدى عباءته البيضاء وعلى ظهره كيس مملوء بالأرواح المحصودة.

إنّها بقايا وفتات من قصص روّيت ومسرحيات مثّلت وأدوار لعبت وتراجيديات وقعت تتداولها ألسنة الرحّالة عن عالم أمّه الفظاعة وأبوه العجب وهي ككلّ الجروح الغائرة تاركة أثرا والفظاعة بضاعة تلفّ في رداء اللّيل الأظلم حيث تختبيء في طيّاته كوابيس الكائنات.

يأتي هو لينفض عنها العتمة فإذاً بها تظهر أقلّ وحشة وغرابة وكأنّ النور طهّرها ممّا فيها من كل مرعب ومخيف.

يرتفع بدر الدجى في كبد السماء فتراجع كلّ الأشباح وكلّ الكوابيس. لا شيء يتحرّك في مدخل الكهف ولا شبح يدغدغك وانت تحت اللّحاف ولا شيء غير ممرّضة مبتسمة تحمل لك الدواء وانت على فراش الألم.

لكم يبدو اللّيل وديعا مسالما وقد استوطنه بدر الدجى ولكم تلفّك الطمّأنينة والألفة ولكم تشعر بالأنس والرّاحة وهو معلّق فوق رأسك فانوسا تمسك به يد خفيّة رحيمة تخيف الأشباح تردع العفاريت وتبعد ملكوت «الموت».

تكتسب الكائنات في تلك اللّيالي التي يستدير فيها وجه الكائن ويمتلئ نورا هدوء جميلا وجمالا هادئا. تنتفي عن الاسم ـ العالم تلك الوحشة المزمجرة وتلك السحنة المكشّرة. يتبدّد منه ذلك الخوف السرمدي هكذا وهو معك يطمئنك البحر وتطمئنّ إلى البحر. تلج الصحراء مبهورا لا مرعوبا تتحرّك في طيّات اللّيل تشقّ أمواجه خببا ولا تواجهه عبابا أسود يجثم على الصدر ويخنق منك الأنفاس.

يواصل بدر الدجى وضع النقط على الحروف وهو يهيكل لك ملامح الاسم ـ العالم وينظّم بعضا من مقاطعه تتعلّم منه انّه الشيء ونقيضه.

هو الآن الوجه البشوش المطمئن المشرق للعالم العجوز. لذلك هو بدون تمييز صديق العشاق وصديق اللّصوص صديق الفريسة وصديق الصيّاد صديق الصغار وصديق الكبار صديق البحر وصديق السماء.

ولأنه العالم في حالة أقصى رقّته فقد جعل خيال الطفل من القرص الفضّي كائنا من جنس لإناث.

حذار أن لا تنتبه إليها تمرّ فوق رأسك لا توفّيها قدرها من التبجيل والتعظيم لا تطيل النظر إليها هي التي لا تأتي إلاّ لتتغزّل وتشبّب بها. حذار أن تشيح عنها النظر وكأنّها عابرة سبيل لا خير يرجى منها ولا شرّ يتفادى.

جرّب أحيانا أن تفاجئها وهي كالروح الهائمة أو كالآلة العمياء تتّبع طريقها من أقصى الأفق إلى أقصاه. ستتفطن مثل كلّ الأطفال بأعينهم البرّاقة الجديدة إلى طموحها أن تحاكي سيّد النّهار وانت ستفاجئها في هذه الحالة وهي قد وثبت للتوّ واللّحظة من قاع البحر أو هي تتسلّق القبّة البلورية تريد بلوغ ذروتها بأسرع وقت لتبسط نورها على كامل خشبة المسرح. أنت ستراها آنذاك وقد انتفخت أوداجها وقد صبغ الأحمر وجهها وكأنها طفلة أغمضت عينيها وأوقفت تنفسها تتحدّى نفسها أو أحدا.

ما أشبهها في هذه الحالة بسيّد السّماء. إنّها تبدو بحجمه وضخامته وحمرته القانية إلاّ أنّ الطفلة لا تلبث أن ترخي عضلاتها تعود إلى استنشاق الهواء بلذّة. ها قد عادت ربّة الظلام إلى شكلها الحقيقي بعد أن لفظت بقيّة من لون الورد جاهدت للحفاظ عليه عبثا.

لا يلبث الشحوب الحزين أن يستعيد حقّه ولا تلبث تلك الضخامة المفتعلة أن تعود إلى حجمها الأصلي.

كنت أراها تأتي خشبية الاسم ـ العالم متردّدة وجلة لا تفصح عن نفسها إلاّ بقوس رفيع من نور يتّسع شيئا فشيئا خرق يتوسّع ويستدير في ثوب الظلام الدّاكن لكنّها كانت دوما تزداد شحوبا على شحوب تتآكل من أطرافها لتتضاءل وقد زحف نقاب اللّيل على وجهها يغطّيه ويحجبه عن الأنظار كعاشق غيور لا يرضى لغيره برؤية الوجه الصبوح.

إنّ إحدى الأفكار التي كانت تأتيني وربّما أنّها قد أتتك يوما وانت تواجهه في أبهته وصمته وتباعده أنّه ثقب مستدير... خرق يتّسع ويستدير ويتكوّر ثمّ ينغلق رويدا رويدا يأكله من أطرافه ظلام اللّيل الداجن ليعود مجدّدا وبإصرار غريب وأن النّور الذي ينبثق منه نور عالم ما وراء ظلام اللّيل عالم آخر لا قبل لك بتصوّره.

يتصوّر الطّفل أنّه لسبب ما انفتحت هذه الكوّة ليتّصل العالمان وهما يجهلان أنهما جيران. تتسرّب عبر الثقب أسرار هذا إلى الغازي ذاك تتوازن قوي روحية غير منظوره.

يبقى الطّفل يحلم بقصّة عمّن فتح الكوّة ومن أغلقها ويسيل لعابه وهو يتصّور كلّ القصص الممكنة التي حدثت والتي تسترسل من ورواء حجاب اللّيل في عالم قوامه النّور لا غير.

وقد تحلم مثله بأنّك ضربت الهواء بذراعيك ودفعت الأرض بقدميك فإذا بك تطير إليه مباشرة تعبر الكوّة المفتوحة بين العالمين تلج عالم النور تسبح فيه كما تسبح في لجّة البحر. تنفتح أمامك دروب لرحلة من نوع آخر وقد تنسيك رحلة الأرض إلاّ أنّك تبقى مسمرّا ملتصقا بالصلب الذي لا يرضى بإطلاق عقالك لأنك جزء من قصّته هو.

تغلق الكوّة الخيالية التي تفصل بين العالمين وينكفئ كلّ عالم على كينونته وقصصه.

هي بداهة لا تنتظر منك شيئا ولا تطلب منك أن تكون لها مدينا بشيء إنّها تتألّق وتمنح نورها دون منّ أو غاية ويقال في بعض حلقات السمر إنّ البحر يهتزّ لعناقها وأنّه ينتفض ويتشنّج وأنّه لا يعود إلى قعره وسكونه إلاّ بعد ذهابها وكذلك عن كلّ الكائنات فهي لا تعبر السماء دون أن تثير في كلّ من يشقّ طريقه هنا مشاعر مضطربة مبهمة.

نحن لا نعرف ماذا تثير من لواعج أو من أحزان مكبوتة أو من ابتسامات مشفقة راضية عند بني حيوان أو بني نبات وبني جماد أو عند الأشباح والعفاريت وشتى أصناف الجنّ والآلهة. نحن لا نعلم أيّ أحاسيس غامضة مبهمة تثيرها وهي تمرّ فوق الأرض نفسها خاصّة عندما تقف بينها وبين بعلها السماوي تفصل بينهما بعد أن أضنتها الغيرة وذهب الألم بعقلها أو هي تخلي السبيل مدفوعة مجذوبة بقوى لا قبل لها بالتعرّض إليها.

إنّ هذا الصمت المطبق وهذا اللاّمقول في علاقات بمثل هذه المتانة والديمومة نقط

استفهام والخرقة الحمراء التي تحرّكها اليد الخفيّة أمام ثور الفضول الآدمي. إنّها المساحات البيضاء في القصّة التي لا يملؤها إلاّ خيالي وخيالك.

آن الأوان لأن تخرج من تمتمة ذاتية لا تنتهي تجترّ مقطعا من دور أو تتحسّر على بطولة لم تنلها تعاتب كاتب السيناريو الوهمي تتجادل وتتشاجر بسبب ما وبدونه مع ممثّلين فاشلين يبحثون عن مخرج عبقري ونظارة ذوّاقين لفنّهم المخفي. نعم اخرج من ذاتك لتنظر إليها لا يغرّنك منها ألفة أو عادة أنّها كالاسم ـ العالم لا تثبت على قناع ولا تقنع بشكل وإن حافظت على تماسك ظاهري.

هي الأخرى تعيش آلافا من الأحداث وتتعامل مع بقايا معالم الاسم ـ العالم بألف صورة وصورة وانت لو بقيت طول زمن الرحلة تحدّق فيها ولا ترى إلاّ هي لما رأيتها مرّة واحدة تكرّر نفسها في كلّ التفاصيل.

لا بدّ إذن أن تتعلّم أن تفاجئها لتفاجئك هي بدورها ولا لقاء بين الكائنات إلاّ فجأة. يتمّ التصادم في ذلك القبس من الزمن تتفجّر الأحاسيس والمشاعر والأفكار وكأنّها النّار انقدحت من تلاقي الحجر والحجر. انظر إليها مثلا وهي تواصل اختفاءها وراء الجبال السود ها قد وشّح النور حافة هذه الجبال يضيئها بفرشاة ذهبية ترسم تعرّج خطوطها.

إنّ التأكد أن ما نرى ليس ضربا من الهوس أو زينة كالتي نرسمها ونصوّرها على ستائر المسرح لا يلغي بقية الإشكاليات التي يثيرها وجود هذا الفانوس السماوي المعلّق فوق رؤوسنا.

لا عجب أن ترى بني سفر يأتون بقصص لاحصر لها ولا عدّ عنه وهو لا ينفجر ضاحكا لا يغمز بعين ولا يصرخ معاذا اللّه ولا يفتح فمه دهشة. ولأنّه صامت مغرق في الصمت لا ينفي ولا يكذّب فإنّ المسافرين ما زالوا وسيبقون يحكون عنه ما تجود به قريحتهم ومخيّلتهم الخصبة.

إنّها قصص يأخذها المغفّلون من الرحّالة على أنّها وصف حقيقي لصديق اللّيالي الظلماء ويغضب مسافرون أكثر جهلا وغفلة عندما يكذّبون هذه الدعاوي ليطلقوا دعاويهم هم. ولأنّ السرّ هو ملح القصّة والمحرّك الذي يجعل كلّ القصص تتزاحم وإن هي لا تتساوى جمالا أو تشويقا فإن سرّ وجود مصباح اللّيل سيبقى دوما حافزا لخلق القصص وتنوّعها.

هل فكّرت مثلا في ما يمكن أن يعنيه أن تكون قصّة القصص أن الاسم ـ العالم حيوان حيّ أننا خلايا جسمه الحيّة بينما تشكل أجزاؤه الصلبة العظام والعمود الفقري ماذا لو كانت القصّة أننا أحداث لحلقة من مسلسل طويل بصدد روايتها قصّاص ملهم ونحن نتخبّط داخلها مصيرنا ما تفعله بنا مخيلّته.

أترى هل سيدفعه انسياق المخيّلة إلى أن تخسف بنا الأرض.. هل سيجعل البحار تفور

وتخرج من الحفر التي رسمت داخلها وهل سيعوّض القصّاصّ مصباح الدّجى الذي نعرف بمصباح جديد ناصع البياض لا نرى على سطحه تلك البقع والبثور التي قد تكون علامة ترهّل وشيخوخة.

افترض الآن القصّاصّ الذي هو بصدد رواية قصّتنا الكبرى قد جعل من الاسم ـ العالم محتشدا كونيا رميت على سطحه كلّ نفايات الكائنات فعقاب هذا أن يكون صلبا متخشبًا شاخصا يبصره إلى السّماء لا يتحرّك ولا يستطيع ردعا للكائنات وهي تقضم جسده أو للفأس وهو يجتثّ عروقه من أديم الأرض وعقاب ذاك أن يولد بأسئلة لا ردّ عليها وأوهام مسترسلة ومخاوف بدون موجب وأن يبعث ذلك السفّاح العاتي حملا مرتجفا تتابعه أنياب الليث في غدوه ورواحه في نومه ويقظته وأن يعيش اللّيث جائعا مترصّدا واثبا على عنق الضحية المرعوبة يتلمّظ الدم الفوّار يمزّق اللّحم المرتجف السمين هو الذي كان في قصّة أخرى روحا تتأمّل وفكرا يتلمّس مجاهل القصّة ونورا يستضيئ بوهجه كبار الرواة.

في هذه الحالة يكون مصباح اللّيل الفانوس المسلّط على المحتشد ـ المذبح لمراقبة المحكوم عليهم... العين الأخرى للحارس الذي لا ينام.

لو أعملت شيئا من النظر في هذه القصص لاكتشفت أنّها مداعبات فكاهات وغزل وتحبّب وتقرّب.. قصص تراود وتعاتب الحبيب المتعالي تحكي طبيعتهم لا طبيعته تروي مغامراتهم تعكس شهواتهم وأحلامهم ورغباتهم ولا شيء عنه هو ومن لونه ومن شكله استقينا كلّ أنواع المرايا.

يستبّد الحلم بالمسافرين يتناقلون جيلا بعد جيل قصص هذا الرفيق الغائب الحاضر. يفتح الخيال له طريقا في الفضاء يحمل الرّحالة نحوه ولأنّ السفر في الخيال هو أوّل مراحل الضرب في مجاهل الاسم ـ العالم فقد حصل ممّا لا بدّ منه. يجب التأكّد من الصورة التي ترتسم وتختفي من فوق ستار اللّيل.

* * *

ومن أجمل الصّور التي سأحملها عن عالم لا أتصوّر هناك عالما آخر يضاهيه جمالا صورة لقائهما وقد جمعتهما الصدفة أو الضرورة في سماء واحدة. تأمّل فيهما مليّا إبّان تلك اللّحظات النادرة وصورتيهما داخل نفس الإطار.

تكتشف حين تخرج من ألفتك الخطيرة للخوارق حين تعاودك فضيلة التعجّب والاستغراب أنّه قلّما يتّسع الفضاء على سعته لسيّد النّهار وسيّدة الليل في آن واحد هما يتتابعان بصفة متقطّعة لا يلتقيان إلاّ نادرا. لسيّد النّهار سؤدد الفضاء نصف الزمان ولسيّدة اللّيل البضع منه.

يتصادف أن ترفع رأسك لترى في لحظة نادرة تلاقيهما الخاطف وياله من منظر أن ترى الحبيبان اللّدودان أهمّ ممثلي وأهمّ معلمي مسرح الاسم ـ العالم وقد التقيا دون موعد انت ستراه مشّعا مضيئا متوهجا جبّارا تسترق إليه النظر لأنّه ككلّ جبّار عات لا يواجه مرفوع الرأس شاخص العينين لا تختلج لك عضلة.

هو سيجبرك بسرعة على أن تشيح النظر أن تغمض العينين أو أن تدير له الظهر وهناك في الأقصى الموازي للأفق ستراها في ذبولها وشحوبها واستدارتها المقضومة تواجه سيّد النّهار. يغمض الطّفل عينيه مجدّدا يعيد خلق عالم على مزاجه. يتخيّل الصّحن الذّهبي قد تبادل الأدوار مع ملكة اللّيل. ها قد برز القرص من أعماق البحر وهو يشبه حدوة الحصان. يتخيّل ذهول المسافرين وهم يلاحظون من يوم إلى آخر اكتمال هلاله الشّمسي.

ها انت تجيل النظر معي بينهما تقيس بعدهما. تفهم أنهما محمولان على الفراق محكوم عليهما بالتباعد وفي تلك اللّحظة والنّهار في طفولته تتجسّم روعة الاسم ـ العالم وقد استقرّ سيّد النّهار في أقصى طرف الفضاء وسيّدة اللّيل في الأقصى المقابل دعامتان متحركتان لفضاء محمول على كاهليهما كأنّك تشعر بنفاذ صبره وهو يشاهد تثاقل خطاها وهي تغادر الركح وتكاد تتصوّره يهشّ عليها لتتعجّل الحركة. أليس النّهار ملكه وحده لا شريك له فيه أليس ذلك عدلا وهو لم يحاول مرّة مشاركة سيّدة اللّيل في ملكها.

لا يبقى على سيّدة اللّيل إلاّ أن تخفي حياءها وراء الأكمات السود التي تعبر الفضاء ليلا نهارا قوافل مرتحلة آتية من المجهول وإليه عائدة. فجأة تراها قد اختبأت وراء أكمة سوداء تفتعل الخجل المفرط للصبايا وقد يكون بقية من حاسّة اللّعب عند طفلة بعمر الأبديّة غير مستعجلة أن تكبر.

يدير الصّحن الذّهبيّ بإصرار ظهره لبدر الدجى ويخرج من الركح بهدوء القادرين وجلال الواثقين من أنّه لا كفء لهم ولا منافس. يواصل مصباح اللّيل تسلّقه لقبة السّماء غير عابئ ولا مكترث بانسحاب من يجرّ أذيال الكبر والخيلاء وتلك دوما القاعدة. لا يظهر بدر الدّجى حتى يولّي هو الأدبار وأنّ هما تجاورا لبعض الوقت عندما يتردّد الزمان بين ليل ونهار فكأنّما عن غصب لا عن طواعية وهو لقاء وإن طال قصير.

تفهم وانت على أعقاب الباب المقدس أنّ الاسم ـ العالم موجود بالاختلاف والتضادد والتنافر والتنافس وأن محرّكه قدر من الحبّ وقدر من الكره حتّى على مستوى هذه الأفلاك الضخمة.

ويحلو لي أن أتصوّر أنّهما كانا في قصّة ما العاشق وحبيبته وأننا لا نشاهد عبر تجافيهما الدّائم وتلاقيهما العرضي إلاّ فصلا من فصول ملحمة فيها أكثر من سرّ.

يصرّ الطّفل على أنّ حدثا ما سيطرأ وإنّهما لن يديرا الظهر لبعضهما بعضا هذه المرّة أن

فصلا آخر وربّما أخيرا قد يكتب في قصّتهما الأزلية وأنّك ستكون الشاهد الأوّل لزفاف طال إرجاؤه.

من البديهي خلافا لما قرّرته اللّغة أن يكون بدر الدجى هو الأنثى وأن يكون «رع» الذكر وياما اختلفت لغات المسافرين في تحديد جنس هذا وذاك... لأننا لا تعرف جيّدا لا الكائنات ولا الجنس.

إنّ الذكر ليس بطبيعته فظّا غليظا وليست الأنثى كما تعلّمنا الرحلة بالضرورة رحيمة رفيقة ولكنّها الأفكار والأوهام الأكثر تداولا في سمر اللّيل وسمر النّهار وياعجبا من قدرة الأفكار الهائمة الضائعة التي تتقاذفها أمواج الزمن على أن تنحت وتخلق ما تريد وكأنّ الاسم - العالم مادّة خامّ يصنعها حسن الظنّ وسوءه.

يحاول الطّفل القصّاص عبثا أن يجمع وأن يصلح ما أفسده الدّهر لكن سيّد السّماء لا يطيق أن يجاوره أحد في سماء هو سيّدها الأوحد ومليكها الغيور أوقد تكون هي بداهة التي لا ترضى.

أي كارثة دهت السيّدة لكي تصبح بهذه الدّعة الشاحبة والهدوء الحزين والابتسامة الباكية. أتكون القصّة أنّه أعرض عنها مفضّلا الأرض التي ترضي فيه غريزة الأبوة وأنّها ككلّ أنثى عاقر لم تجد سلواها إلاّ في تسليم راض بقضاء ظالم وقدر لا يرحم أهل من باب الصدفة أن تكون المعشوقة المهجورة قبلة المحبّين والعاشقين وأنّها رفيقة درب كلّ شاعر كئيب.

يخطر بالبال أنّها كانت في قصّة أخرى الزوجة المفضّلة والحبيبة الأولى وأنّها هي أيضا كانت تلد وتفرض الفطام أنّها كانت كالأرض لا تكلّ ولا تخور قواها تخرج من رحمها كائنات لا عدّ لها ولا حصر أنّها كانت تغضب فتكون العاصفة وتبكي فيتهاطل المطر وترتعش باللّذة فتهتزّ السهول والجبال وأنّها كانت تبتسم فيرتسم الربيع على محيّاها.

قد تكون أتتها الجرثومة وقد يكون أصابها الكبر أو العته وقد تكون أغضبت بعلها الغيور وقد تكون أتت من الآثام ما أتت أو ما ادّعى ليهجرها ويبدّلها وقد تكون استأهلت ما نالها من عقاب وقد تكون ضحيّة انتقام رهيب أو خطأ قضائي مؤسف وقد تكون ماتت كمدا وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة وقد تكون تستعد ككلّ ميّت لولادة أخرى.

الثابت حسب ما نعرفه ونحن في هذا المقطع من القصّة الجماعية التي يتشارك الرّحالة في كتابتها وحسب الشهادات التي يرويها من أمضوا السنوات في استراق النظر إليها أنّها لولا ما يغمرها به من نور لكانت شيئا آخر. هي بدون ما يجود عليها سيّد السّماء بفيضه وجه أغبر ممتقع وجسم قوامه العظم وروح رسمت ملامحها الوحشة تسكنها الكآبة ويخيّم عليها العقم. تستقيم هذه القصّة في بعض مقاطعها مع ما يروى ومع ما يحدّث به الذين

وصلوا أرضها. ألا يقولون أن لها وجها كوجه مريض الجدري الذي حفرت فيه الجرثومة بقعا وأخاديد.

هل أصيبت سيّدة اللّيل بالعقم من جرّاء مرض حرمها من كلّ قصص اللّذة والوضع والإرضاع والتربية والتزويج ومراسم الدفن.

بداهة لسيّدة اللّيل قصّة عن كثب وقصّة عن بعد ومن ثمّة لا بدّ أن لها قصّة في سحيق الماضي وقصّة في أغوار المستقبل ما بين كلّ هذه القصص من تباعد واختلافات قصص لحاضرنا هذا.

نعم أتراها كانت أو ستصبح حبلى زاخرة بكلّ قصص اللّذة والحمل وصراخ الولادة وعويل مراسم دفن آلاف الكائنات أتكون ذاكرتها هي الأخرى حبلى بآلاف القصص التي لن يرويها من رحلوا.

لا نعيش نحن الرّحالة هنا على سطح الكوكب ـ الضبرّة إلاّ قصّتها عن بعد وقصتها في هذا المقطع من الزمان والقصّة أن تكون حبيبة مهجورة وأن نرنو إليها فنحنو عليها كما تحنو علينا أن نفرح بقدومها وأن نحزن لذهابها أن نفتقدها في تلك اللّيالي الحالكة السواد التي تخرج من طيّاتها العفاريت والجنّ وأرواح الموتى.

نحن نحبّ سيّدة اللّيل لأنّها تثير في أجسامنا المرهفة وأرواحنا المثخنة جراحا ارتخاء لذيذا. ألا تزيل عندما تستحمّ في أشعّتها عن ظهرك حملا ثقيلا إنّ ما في بدر الدجى من رقّة أنثوية ليبدو أكثر وضوحا إن انت قارنته بما في طبع سيّد السّماء من غلظة وشدّة.

يمدّ الطّفل يديه لأشّعة هذا أو ذاك ليتّضح له الفرق... تداعبه أنامل سيّدة اللّيل بلطف ما بعده لطف. يزداد وعيه بفظاظة ذلك الذي علّمه أهله مبكّرا أن يهرب من حريقه.

وأفهم بعد عقود أنها كانت صورة الأمّ وأنّه كان رمز الأب الجبّار وأنّني كنت أرى في السماء من قصص ما أرى حواليّ على الأرض وهكذا كان لي أبوين على الأرض من لحم ودم وأبوين في السّماء من نار ونور.

* * *

٥ - وبخصوص أنه عالم حرام وانّ له حالات من الغضب المقدّس تروّضها إن أنت قبلت التحدّي قال الرّاوي:

تداهمك يوما الفكرة أنّه عالم المحرّمات إنّه عالم الحرمة إنّه عالم حرام.

حرام عليك أن تلمس الشمس وحرام عليك أن تحرّك ذراعيك نسرا يطوّف فوق الجبال البيضاء وحرام عليك أن تعلم من أين أتيت وحرام عليك أن تعلم إلى أين انت ذاهب وحرام عليك أن تقرأ ما في بطون كلّ الكتب وحرام عليك أن تعبر الزمان في اتّجاه غير ذلك الذي تقرّر وحرام عليك أن تدخل البحر واقفا وأن تمشي فوق سطحه وان تكلّمه فيرد عليك التحيّة بأحسن منها.

وكما يشق كلّ الماء طريقه إليه عبر ألف شريان وشريان فإنّك انت الآخر ستهرع إلى البحر طال زمن الرّحلة أو قصر تتحرق شوقا تمثل بين يديه طائعا مختارا تقدّم فروض الخشوع والعبادة.

أجلس إلى اليوم على ضفافه كمن يجلس أمام باب شاهق العلوّ مغال في سمكه وفي عرضه مفتوح على فجوة في منتهى الضيق يتسلّل عبرها شعاع سحري يأتيك من ورائها أصوات وروائح تنبئك بأن خلف الباب روائع وأهوالا وانت مثلي لن تدرك من البحر إلاّ تلك الفجوة ويبقى كلّ ما عدا ذلك موصدا محرّما ممنوعا.

ها انت أمام محرّمات البحر وقد توقّدت داخلك مجدّدا كلّ مشاعر الحرمان.

حرام عليك أن ترى أين يبدأ البحر وأين ينتهي إن هو ينتهي هل هو أحد أم متعدّد هل يقف عند شاطئ الأفق كما يقف عند شاطئ الرمل أم هل هو ينحدر عنده شلاّلات تتكسّر أمواجه على بسيطة عالم آخرحرام عليك أن تفتح فيه طريقا وحرام عليك أن تنظر إليه وقد جفّ منه الماء وحرام عليك أن تبصر كلّ تلك الكائنات المختبئة داخله لا ترى منها إلاّ بعض الجثث الهامدة التي يرميها لك أو تفتكها منه غصبا وعنوة تقضمها بأسنانك مجرّد حيوان دموي يقتات بالجيفة والأشلاء.

يجاهد بعض الرّحالة لتطويق بعض من هذه المحرّمات فلا يزيد فيك ذلك إلاّ لوعة على لوعة ومنهم من دخل رحمه ومنهم من طوّف على سطحه معظم وقت الرحلة ومنهم من

تحدّاه ومن نذر نفسه لفكّ ألغازه وأحاجيه وكلّهم عادوا ليقصّوا قصصا لا تزيد إلاّ في تحسّرك على أن الاسم ـ العالم بهذه الضخامة وبهذا السرّ وبهذا التمنّع.

تقنع من البحر بما يمنحه إيّاك وانت أمامه دوما طفلا في حضرة معلّم مهيب.

هيا نتذكّر سويّا ما قلناه للبحر في أول لقاء تعارف وماذا حرّك فينا منذ ذلك اليوم من أوتار.

أذكر أنّني كنت أتخيّله حفرة ضخمة كتلك التي كانت تتجمّع فيها أحيانا مياه الأمطار في ذلك المكان الذي نزلت فيه بالصدفة وأنني تصوّرت أنني سأطوف حوله جريا وأنني سأقفز فوقه قفزة جبّارة تثير إعجابا صارخا وغيرة صامتة من أقران اللّعب.

أذكر أنني وقفت مدهوشا مرتاعا أمام صورة الأرض مرآة للسماء يوم أخذت إليه وأنا طفل في السادسة من سنوات الرحلة وكان النهّار آنذاك على وشك الرحيل.

يفتح الطفل عينين مبهورتين لا يصدّق أنّ شيئا بمثل هذه الضخامة وهذا الامتداد موجود حقّا وبالطفل أعني ذلك الذي كنته أنا وكنته انت وكلّ الأطفال على ما أعتقد.

يتقدّم هذا الطفل وجلا إلى الحدّ الفاصل بين المجهول والمألوف. تفاجئه الموجة بضجيجها وزبدها وهديرها وتسارعها نحوه. يطلق رجليه للريح وهو بين مرح وخوف داهم.

يجلس على الصّلب يستعيد طمأنينة المألوف والمأمون. يلتهم بعينيه كلّ هذه الروعة. تمتلئ خياشيمه بروائح جديدة. تغزو مسامعه أصوات غير معهودة لهمهمة الجبّار وهو يرمي بعض من نفسه على الصلب وكأنّه يعاتبه أو يهدّده.

يتمكن منه فجأة الفضول الذي بدونه لا ينفتح ولا يشقّ في جسم الاسم ـ العالم طريق. يضع بمنتهى الحذر رجلا يتبعها بأخرى ثم يفرّ صارخا يفتعل الهلع أو يعايشه وقد صفعته الموجة. يعود بعد لحظات ليمشي داخل الماء خطوتين هما أشجع ما أقدم عليهما منذ رمى به في هذه المغامرة.

وهكذا يتعلّم ككلّ الأطفال أن الاسم ـ العالم طفل لعوب ضحوك مثله يحبّ أن يفاجئ إنّ له معالم غير تلك التي عهد وأنّ عليه من الآن فصاعدا أن ينمّي له علاقات لا فقط مع تلك المعلّقة فوق رأسه ولا مع الكائنات التي تضجّ حواليه وإنّما عليه أيضا أن يتعلّم البحر.

يستجمع الطفل كلّ شجاعته. يدخله إلى أن يغمره إلى الركبتين. تفتر الحماسة وينطفئ بسرعة توهجها.

يذهل أمام كلّ هذه المسافة التي تفصله عن الأفق. يمدّ يده الصغيرة وكأنّه يريد أن يلمس ذلك الذي لا تطاله يد..

ولأن أوّل ما نعرف به الاسم ـ العالم هو الفم ومسامّ الجلد فهو جرّب طرق الباب باللّسان يتلمّظ البحر ويتذوّقه وكأنّه شيء للشرب والأكل.

يفاجأ الطّفل بطعم يعرفه حقّ المعرفة قريب في بعده مألوف في غرابته... طعم ذلك السائل الذي يتدافع من العينين عندما يتفجّر الغيض أو الألم من داخل الصدر والاسم ـ العالم يكشّر فجأة عن أنيابه يهدّد ويعضّ.

يتمكّن منه سنين طويلة السؤال وتأتيه إبّان التهاب الرّومانطقية فيه أيّام المراهقة إجابة عنه كانت بطبيعة المرحلة: إنّ البحر هو المكان من الاسم ـ العالم الذي تنصب وتتجمّع فيه دموع كلّ الكائنات منذ دخلت مسرحه... دموع كلّ الأطفال وقد افتقدوا ذلك الحضن الدافئ.... دموع الحيوانات الأليفة الصامتة وهي تساق إلى المذابح والمسالخ.... دموع تلك الأمّ التي بيعت فلذة أكبادها في سوق النخاسين في كلّ العصور.. دموع بريء يساق إلى المشنقة.. وهذه القطرة أليست دمعتي وهذه القطرة أليست عبرتك وعبرته وعبرتها.

لاعجب أن تتراكم كلّ هذه الكميّات الهائلة جيلا بعد جيل فالكائنات تبكي بصمت أو بصوت يصمّ الآذان من قديم الزمان وهي تواجه أهوال الرّحلة وآلامها.

يواجهك البحر بهدوء مرعب. هو لا يأبه أن تظنّ به مثل هذه الظنون وأن تلبسه ما شئت من الأوهام. إنّه موجود ليواصل تعليمك وتربيتك على شوؤن هذا الذي أتيته بقرار وعن رغبة لتستكشف جزاءا من ذاتك التي لاتحدّ.

تتابع الدّروس الصامتة ولا تجرب منها مللا.

يلامس القرص الذهبيّ فجأة سطحه ويزداد الطّفل انبهارا. هل هو ذلك المخدع السرّي الذي طالما فكّر فيه وهو يتساءل أين يذهب سيّد النور عند نهاية كلّ يوم.

يبتلع البحر رويدا رويدا القرص الذهبي ولا يتصاعد من الأفق دخان أبيض ولا يسمع تشتشة كتلك التي عرفها الطفل وهو يرى عناق الجمر والماء. يراه استقرّ في جوفه ويخيّل إليه انّه أماط أخيرا اللّثام عن سرّ طالما أرهقه التّفكير فيه.

وكان يفسّر الاختفاء الدّوري للصحن لفانوس النّهار بأنه «بالون» معلّق في السّماء تفكّ أياد مجهولة قد تكون يدي المسمّى «شيطان» عقاله فإذا بالريح تطوّح به إلى حيث يكون الظلام وان «اللّه» كان يعيد ربطه كلّ صباح في أعلى القبّة لتواصل الحياة واللّعب..

يؤوب الطفل إلى مخدعه وقد رأى بأمّ عينيه مارأى متسائلا بقلق مبهم هل سيلفظ

البحر ثانية سيّد النّهار أم هل أنّه سيحفظه درّة ثمنية... صدفة ذهبية في مستودع مجوهرات لا قبل له بتصوّرها.

تعبر نومه أحلام حمراء زرقاء ويتساءل القناع الباسم المطلّ على اضطراب غير معهود عمّا فعله البحر بابنها في أوّل لقاء تعارف.

يتنفّس الطفل الصعداء وهو يكتشف من الغد أن مانح الدفئ والنور ما زال معلّقا فوق رأسه لا تذروه ريح ولا يتساقط قطعا متناثرة وتستبطن الرحّالة الصغير فكرة أضحكت من حواليه وكان واثقا كلّ الثّقة من صحّتها أن القرص الذهبي هو الآخر يدخل البحر كلّ ليلة ليسبح ليغتسل ليتطهّر ليؤوب بعدها إلى فراشه ليخرج إلى الاسم - العالم جديدا مجدّدا وقد أزال البحر عنه كلّ الأدران والأوساخ.

يكتشف الطفل بسرعة أن فانوس اللّيل يخرج من البحر أحيانا.

يستبطن صورة أخّاذة للعالم تحتلّ أجمل مكان في «البوم» الرّحلة.. صورة البحر وهو بين يدي سيّدة اللّيل تغمره بشعاعها الشاحب يتلألأ سطحه. تأتيه وقد كبر إشاعات تقول إنّها تراقصه فيهتزّ ويرتجّ وإنّه يتراقص ويتمايل طربا وإنه لا يحرّك ساكنا إلاّ إذا أطلّت عليه بجلالها الباسم الهادئ الحزين.

يعود الطّفل إلى البحر مهما تباعد به الطريق ومرّ الزمان ينصت إلى الهدير وينظر إلى الزبد ويملأ عينيه من أصناف الزرقة والخضرة ويغمضهما حتى لا تلهيه مأدبة الرؤية عن شمّ العبير الذي ينضح به البحر. ها هو يراه ينصبّ في السّماء يمزج زرقته بزرقتها يضيع فيها ويشكّ الطّفل في انّه ينتهي في نقطة ما. وعند الخطّ الفاصل المسمّى أفقا أين يتمّ اللّقاء كان يخيّل له أن السّماء قد أدخلت رأسها تحت الماء لتعرف ما يجري داخل هذا الرفيق أو أن البحر قد تسلّق السّماء لينظر إلى نفسه من داخل المرايا التي ما انفكّت تعكس خياله.

وكم من مرّة جلس السّاعات الطّوال يراقب لوحة تلاقيهما يضيف إليها بفرشاة رسم من صنع الفكر والخيال هذا اللّون وهذه الفكرة.

وممّا يخطر ببالك وانت ذلك الطفل المبهور الجالس القرفصاء تستمع إلى هديره إنّهما ككلّ التوائم في سجال لا يدرك غيرهما سرّه وفي تبادل لخدمات لا تنتهي.

يتحاور التوأمان عبر لغة لا يفهمها إلاّ الطفل. تحمله قدماه المرّة تلو الأخرى يتابع تعلّيم البحر. تتفتّح كلّ الحواسّ وكأنها في حالة الإنذار القصوى لكي لاتفوته أيّ خاطرة.

إنّه يصيخ الآن بسمعه لصفير السماء وهي تنفخ على سطح البحر تهيّجه وتغيّظه يرغي البحر ويزيد وكأنّه أسد جذب ذيله. يرفع هامته إلى الأعلى فالأعلى فلا تنال شيئا من سماء متناهية في البعد والتعالي. تكفّ عن عبثها. يعود للبحر هدوؤه السرمدي فتخاله هرّا كسولا يتمطّى تحت أشعّة سيّد النّهار الدافئة منكفئاً على نفسه بين يقظة وإغفاء. تنخزه

السّماء فجأة لا همّ لها إلاّ إخراجه بين الفينة والأخرى من كسله تستفزّ فيها دوما حاجتها للّعب. يدفع كلّ من فوق ظهر البحر ثمن غضب هائج يزيد من سخطه عجزه عن ردّ الفعل. إنّه يبقى أعجز مهما ارتفعت هامّة البحر عن أن يلحق بالسّمـاء بللا أو أن يطفئ تلك المصابيح المتلألئة عندما يؤوب سيّد النّهار إلى مضجعه السّري.

لا يبقى للبحر في مخيّلة الطفل الخصبة إلاّ ابتكار الحيل والأساليب. يبعث إلى الفوق بتلك الجبال القطنية التي ينفثها من صدر خانق ويا له من منظر غريب أن ترى البحر يسبح في عباب السّماء.

تبالغ هذه الأخيرة في استفزازها ليكشّر عن أنيابه هو الآخر. تستبدل قطعان السحاب لونها الأبيض بلون رمادي يميل إلى السواد تعبّر عمّا يختلج في صدر البحر من غضب وانزعاج. يحتدم الصراع مجدّدا واللّعب بين التوأمين. يزمجر البحر يطوّح بكلّ ما يمتطي سطحه وكأنّه حصان جامح ضاق ذرعا براكبه. يكفهّر وجه السّماء وقد تراكمت داخلها جبال غبراء مسودّة تحجب بسمة سيّدة اللّيل الشاحبة أو جلال سيّد النهار المتوقد. تنتهي المعركة ككلّ خصومة لا هدف من ورائها سوى استعراض العضلات وكسر رتابة الكمال ومللِه المقرف بصلح يعيد للسماء صفوها وللبحر كسله الطبيعي.

يواصل الطّفل تتلمذه علي يدي هذا المعلّم المرعب.

هو يمدّ أمامك الفضاء لتتعلّم معنى الرحب والسعة وهو كالفنّان المبدع يأخذ فرشاته لتتعلّم أن هناك ألف لون للأزرق وهو يفتح لك عبابه لتنغمس فيه تملؤه ويملؤك تحيط به ويحيط بك تسكنه ويسكنك.

تداهمك وانت بين يديه ألذّ الأحاسيس وأغربها. تجرّب وانت فيه أو على سطحه قرب «الموت» ومتعة الحياة وقد تسترجع ذكرى تلك الأيّام العصيبة وانت على وشك دخول الاسم ـ العالم. ألم تكن تسبح راضيا في سائل لزج كهذا الذي يدعوك لتتخبّط فيه فلا تقاوم له إغراء.

* * *

تتعلّم أنّك لا تستطيع أن ترسم فيه طريقا انّه لا يحفظ لك خطوة ثانية واحدة لذلك لا تدخله إلاّ زاحفا على بطنك مطأطئ الرأس أمام تدافع موجاته لا تطفو على سطحه إلاّ مجاهدا مناضلا دافعا من جهدك ومن عرقك ضريبة باهظة. أنّك لا تستطيع أن تواجهه بالقوّة الفجّة فلا خرق يمكن أن تحدثه به ولا ثقب يمكن أن تثقبه فيه لا تستطيع أن تلصق فوقه تلك الأشرطة من المعادن أو من الزفت التي توثق بها لجام البسيطة.

تتعلّم أن تهاب وان تحترم وان ترهب ليثا هصورا يستعصي على الترويض مرعباً مخيفاً

حتّى وهو رائق المزاج فيه تهديد مبطّن وأعراض مشوب بكلّ الكبر والتعالي.

ينتقل الحلم بأهوال البحر وعجائبه كما ينتقل مرض معدي لا شفاء منه إلى كلّ أطفال العالم ولا يزيدهم اتّساعه المخيف إلاّ شوقا إلى المزيد من الجري نحو الأفق.

ينتهي طريق الرحلة بالأغلبية عند لقاء الماء والصلب ولا يتواصل إلاّ بالنسبة لكبار المغامرين.

تحضر ابن الصّحراء قصّة مشهورة بين بني قومه: يقف طريق الغزو بالفارس الآتي من قفار الرمل عند الشاطئ البعيد. يعاوده الإصرار إلى التقدّم هو الذي اخترق البراري الصفراء لا يقف عند عقبة. يدفع الرحّالة بالدّابة التي ألصق نفسه على ظهرها عنوة واغتصابا إلى الأمام. ترفض أن تتقدّم تعلم أن ليس لها في هذه البراري السائلة من حظوظ لعب أو ركض. تزمجر الأمواج في وجه الدّخيل أن لا تتقدّم فهذا عالم لا يدخله الغزاة على دواب حيّة.

يستشيط الفارس غضبا هو الذي نذر نفسه في القصّة أن يفتح الاسم ـ العالم بأسره لبني دينه وجلدته ولا يعبأ البحر لا بسيفه المشهور ولا بتمتمة سيردّدها رواة القصص والملاحم جيلا بعد جيل.

يصمّم الطفل على أن يكبر وأن يشتدّ عوده ليدخل هو الآخر البحر غازيا ليعرف ما الذي يخفيه الموجود وراء الأفق بطلا من بين الأبطال الذين انطلقوا من الواحة والشاطئ لاستكشاف مجاهل خطيرة كانت روحه الملتهبة تحنّ إليها لأسباب كان غير قادر على فهمها أو دفعها.

تحضره وهو جالس بين يدي المعلّم الفخم صور من قصص عمّن ركّبوا البحر وبينهم والغضب المكتوم سرج من معدن صلب أو من حطب الشجر قشّة طافية على عباب اللاّمتناهي يغالبون الغثيان والوحدة والخوف والدوران والبحر يهدهدهم. كان ينظر إلى البحر فيرى حصانا جامحا أو ثورا هائجا لا يقبل على ظهره شيئا. هكذا شعر به قلقا متبرّما بالضرورة بما فوقه ومن فوقه يتمايل في البداية بكسل كأنّه يتأدّب مع زائر ثقيل ولسان حاله يقول اذهب ما دامت لك فرصة فلست منّي ولست لك. هو بداهة ككلّ دابّة حيّة ركبت من غير إذن أو مصلحة لا همّ له إلاّ التخلّص من المنغصّين عليه راحته الداخلين إليه عنوة... لا يفتح مجالاته الرّحبة إلاّ لمن عرفوا كيف يسرجوا ظهره وكيف يضعون في فمه اللّجام. ها هو من جديد يحلم ويبلور من خلال الحلم المتواصل بعضا من الصّور التي ستتراحم داخل ذاكرته لتشكّل زاده من الرّحلة.

يتصوّر الغضب المكتوم وهو ينفجر. ترتفع حدبة الحصان ثمّ تخسف بالراكب. يرمي بالزوّار إن هم لم يتعلموا فنّ الإسراج وفنّ الالتصاق بالسرج إلى الأعماق لتنفتح أمامهم طريق مؤدّية إلى «الموت».

يحاول الطّفل التغلّب على التردّد الذي تثيره في نفسه فكرة مصارعة الغول الهائج.

أليس على سرعة غضبه وطول تبرّمه بمن جعلوا منه مطيّتهم لاكتشاف مجاهل الاسم ـ العالم أرحم من اليابسة ألا نعلم أن لا مخلب ولا ناب على ظهره إلاّ للمرتحلين أنفسهم وانّه لم يعرف عنه في قصّة أنّه قد خرجت من عبابه كائنات تترصّد بالمسافرين لأنّ قطّاع الطريق من بنات أفكار اليابسة وحدها.

أليس واضحا انّه لا يقيم في وجه المرتحلين تلك العوائق التي تزخر بها اليابسة وانّ المسافر يتقدّم على ظهر دابته فلا تعترضه جبال لا تخترق وغابات مخنقة وصحاري العطش.

أليس متأكّدا أن المرء لا يحتاج على سطح الماء إلى لفّ أو دوران حول أيّ وادي سحيق وان الرّحلة تسهلّ وهي في أوج صعوبتها وتصعب وهي في قمّة السهولة.

كم من قصص غذّت نهم مخيّلته تروي عن أولئك الذين جعلوا رغم الأخطار من البحر حصانهم ومن صدفةاللّوح أو المعدن سرجهم ومن بينهم قصّة ذلك المسمّى.

«هانون» الذي انطلق من البسيطة التي شاءت الصدفة أن أنزل بها عند دخولي الاسم ـ الموجود.

يتغلّب ألف طفل في ألف مقطع من الزمان والمكان على كلّ تردّد والشجاعة ليست أن لا تخاف وإنّما أن تتغلّب على الخوف.

ها هو يقرّر رفع تحدّي هذا القفر الأزرق الذي لا يشير إلى اتّجاه الذي لا يحفظ طريقا الذي ينتفض غاضبا عندما لا تتوقّع. الذي يدخل في إغفاءه تنذر بالخطر... هذا القفر المخيف السطح المخيف الأعماق المخيف الأتساع المخيف الرتابة المخيف المفاجأة.

يتجسّد شبح البطل الأزلي في أحلام الطّفل المنبهر. يكتسب حياة ما بعد الحياة لأن الرّحلة وراثة لاتفريط فيها. يلبس الطّفل ثياب البّحار مثلما كان يمتطي ناقة «أبو زيد الهلالي» وجواد «عقبة» لغزو الصحراء الأخرى.

تتخذ الرحلة في مثل هذه الحالة كلّ أبعادها الدرامية وتكتمل فيها كلّ عناصر الملحمة وطوبى لمن رحل في الاسم ـ العالم كما رحل إليه «هانون» لأنّه سيصل إلى مشارف أقصى حدود آدميته.

لا مناص له الآن من التقدّم. لم تجبره ضرورة قاهرة على أن يرمي بنفسه في هذه الصحاري الهائجة المائجة. لكنّه كان يعرف أنّ شعوراً مبهم بأن هذه العقبة الهائلة في وجه الرّحالة المترجّلين قنطرة تربط بالجماعات الآدميّة المتفرّقة والتائهة في الأتساع والعتمة.

يخرج الطفل «هانون» إلى البحر ميمّم الوجه صوب الغرب حذو شواطئ إفريقيّة يتابع

تعرّجاتها ونتوءاتها راسما في ذهنه وفي ذهن الأجيال المقبلة من المسافرين طرق البحر وملامح البسيطة. هو لا زال ملتصق الأنف بالصّورة ولابدّ له أن يتباعد كثيرا وأن ينتظر كثيرا وأن يتعذّب كثيرا قبل أن تتوضّح المعالم الكبرى لهذا الذي أتينا به ومن أجله.

يبقى الغول يتقلّب بين غضب مفتعل ورضاء عابر. يشقّه «هانون» على متن القشّة التي وضعها بينه ويغرّه منه أحيانا سهولة الولوج والتقدّم تلبية لنداء البحر... أن تعالى لتكتشف نفسك في مرآتي واكتشف نفسي في مرآتك.

يواصل «هانون» الأعمى الضرب في اللّيل المدلهم لا يعلم أين هو وإلى أين هو ذاهب. يسلم الفارس قياده إلى الفرس لتقوده أين تشاء ولا يبقى عليه إلاّ أن يتشبث بالسرج المترنّح. يتقاذف البحر «هانون». يعلّمه دروسا تلو الدّروس. يجبره على أن يغوص داخل ذاته ليّسمّي مزيدا ومزيدا من حالات تمرّ بها نفس تعكس تقلّب مزاج الاسم ـ العالم.

هو يعلّمه أن يعي وان يسمّي تلك الحالة التي تعتريه عندما تعتصر الأمعاء وتلك الحالة الأخرى التي تعتريه وهو يشعر بعميق ضعفه وهول هشاشته أمام هذه الأمواج المتلاطمة التي تأتي من اللاّنهائي وتعبر إلى اللاّنهائي. هو يعلّمه أن يسمّي وأن يعي بشعوره وهو يرتعش بردا وهويتضوّر جوعا وهو ينقلب من جنب على جنب يبحث ويهرب من النوم ومن الكوابيس الآتية عبره.

هو يعلّمه الحلم بالآفاق والحلم بما ترك وراءه. يضع المعلّم البحر الذّات في أقصى الظروف لتكتمل الرّحلة داخل الموجود. وهل للأماكن من دور آخر إبّان الرّحلة غير اعتصار كلّ الممكن من الأفكار والأحاسيس.

تأتي اللّحظة التي يصاب فيها «هانون» بالإحباط فلا نهاية لهذه الصحاري المتشابهة المتباينة ولا نهاية لهذه المتعة المعذّبة والعذاب الممتع ولابدّ من نهاية لما يبدو بدون نهاية. يعتصر البحر من النفس مشاعر في غاية القوّة والعمق والحدّة والحالات هذه على صعوبة تحمّلها وضرورة الخروج منها بين الفينة والأخرى لاسترجاع الأنفاس هي مطمح كلّ رحّالة.

ما أسعد حظّك يا «هانون» وانت قشّة طافية تتقاذفها الأمواج وقد تمكّن منك كلّ الممكن من الرعب وكلّ الممكن من الانبهار. ألم تدخل الأمواج لمثل هذا الذي تجاهد للخروج منه.

يشرف «هانون» على الشعور بأنّه لم يعد كلاّ متماسكا وأنه سينحلّ في كلّ هذه المبالغة السائلة وأنّه أضاع كلّ طريق ولم يعد للاتجاه معنى أو أهميّة.

لا بدّ له من لحظة لاستعادة الأنفاس وإلاّ قتلته تلك الحالات العنيفة المضطربة التي تعصف بروحه. يكفّ الصفير والنفخ لحظة. يتعلّم أن بعد العسر يسرا وأنّ بعد.

العاصفة لا بدّ من طمأنينة الرّاحة وأن الاسم ـ العالم وحش بارزة أنيابه لكنّه يتأتّى للّيث أيضا أن يبتسم. يلتجئ «هانون» إلى البسيطة لالتقاط الأنفاس المرّة تلو الأخرى وقلّما يبتعد عن هذا الحائط الذي يتحسّسه كالأعمى. هي تبقى دوما في متناول البصر الحبل الوريد الذي يربط الطفل الآبق بالأمّ الساهرة المطمئنة الحامية من الضياع في مجاهل هذا الغول السائل المتموّج.

يضع على الشاطئ البعيد الذي وصل علامة. يعود إلى القشّة الطافية التي حملته إلى هذه المجاهل. ينتظر أن يخرج من المجهول كائن شبيهه ومخالفه قد يضع علامة فحواها أنا هنا وموجود وأقبل بك مخاطبا وقد لا يجد «هانون» شيئا فيعود إلى البحر وقد تكثّف الغموض وتعمّق السرّ وازدادت غرابة عالم لا يفصح عن نفسه إلاّ بالأحاجي. يحطّ «هانون» رحله ليقول هنا تنتهي الرحلة ولا بدّ من الإياب لتلك البحيرة الهادئة القابعة تحت حراسة جبل بقرنين.

يتواصل انطلاق الأطفال من ألف مكان وزمان إذ لا أجمل من تجدّد الملحمة. يبتلع البحر منهم الجحافل تلو الجحافل بعد أن أشبعهم روعة وارتياعا. يلفظ التّاجين من حنانه وأنيابه نحو اليابسة المتلهّفة لأخبار البّحر. كم من مسافر تابع رحلة «هانون» وليس له إلاّ همّ أوحد أن يعرف أين ينتهي الماء ويقال أنّه ركب البحر هو الآخر على متن خشبة مقعرة وأنّه عرف ورفاقه على متنها من الأهوال ما لا يوصف انّه أخفق ككلّ الآخرين في اكتشاف الشاطئ الأخير الذي ينتهي عنده البحر.

يتّضح يوما لكلّ أطفال العالم الدّرس داخل الدّرس: أنّه ليس هناك شاطئ بمثل هذه الصفة... أن الرّحلة تحملهم دوما من البحر إلى البحر... أنّ الموجود دوما بلا حدود وانّه دوما الواحد الذي يبدأ أين ينتهي الواحد الذي ينتهي حيث خيّل إليك أنّه بدأ.

لا يبقى عليه ككل الأطفال إلاّ مواصلة الحلّ والترحال بفتور متزايد وقد بدأ اليقين يتسلّل إلى الوعي أنّه لا نهاية للمغامرة وأنّ السراب لا يلحق.

وقد تأتيك مثله أحيانا خاصّة أيام الارهاق الشديد أن المغامرة على مرمى حجر وأنّك لست بحاجة للرّكض المحموم خلفها في كلّ الاتّجاهات.

تجد ما تبرّر به التعب والاحباط إذ لا حاجة فعلا للجري نحو أقاصي المكان والموجود يلبس ويخلع أمامك ما لايكفي عمق الزمان لمعرفته من الأقنعة.

* * *

٦ ـ ثمّ تطرّق الرّاوي إلى ما لاحظه عن عدم ثبات عالمه على حال وانّه حركة هوجاء وتراقص متذبذب ورقص أنيق وان خاصيته هذه هي التي تجعل منه خلقا متواصلا ومن الرّحلة مغامرة كلّ لحظة فقال:

لم أره يوما مستقرا على حال حتّى وهو يناور مفتعلا الدعة والاستقرار.

تتعلّم انه عالم قانونه الأوّل الحركة وان عليك الامتثال للقانون طائعا أو مكرها.

تسكنك الحركة ثم تجرفك الحركة ثم تدوّخك الحركة ثم ترهقك الحركة وقد يأتي وقت تصرخ فيه مهلا أو كفى فلا تسمعك الحركة بل تتسارع بك وتنفجر ثم تنزلق بك إلى أن تتفكك أجزاء وأشلاء متطايرة تواصل بدورها حركة حرّة لا تحدّها إلا حركة متحرّك آخر.

تدفع اليد المجهولة في دوران لا ينتهي أصغر أجزاء الكون وأضخمها. يتساوى أمام الحركة الكلّ والجزء الواحد والمتعدّد الذكر والأنثى الصغير والكبير البسيط والمركّب فلا قدرة لكرة اللّهب التي تخرج من وراء الأفق أو من خضّم الماء على أن لا تتسلّق درجات سلم السماء ولا ينفع مصباح الدجى أن يغيب بين فترة وآونة لأنّه ليس في راحة أو سكون وراء ستار الليل إنّما هو هائم متنقّل يتسارع إلى موعد لا مفرّ منه لا حقّ له في توقّف أو تباطيء أو تثاقل أو تأخير أو تكاسل أو رخصة مرض لإرهاق فاق كلّ حدود أو تقاعد مبكّر لخدمات جليلة.

وكذلك تتحرّك الذّرات والمجرات وكذلك تتحرّك النجوم والكواكب وكذلك تتحرّك البحار والوديان وكذلك تتحرّك الجبال والغابات وكذلك تتحرّك السحب والسماء وكذلك تتحرّك النّار والأقمار والأزهار والأمطار والأبصار والأفكار وكذلك يتحرّك الداخل والخارج كذلك يتحرّك الماضي والحاضر وكذلك يتحرّك الفوق والتحت وكذلك يتحرّك البعد والقبل وكذلك يتحرّك الطول والعرض وكذلك يتحرّك العسر واليسر وكذلك تتحرّك الشياطين والآلهة والأشباح وكذلك تتحرّك الكائنات تزحف وتطير وتسبح وتمشي وتجري وتهرول وتلتقي وتفترق وتقفز وتنّط وتنتصب وتنحني ولحظة يخلد الكائن إلى ما تظنّه أخيرا تباطؤ الحركة أن لا شيء داخله إلاّ وهو يتحرّك أحلامه حركة وسوائله حركة

وجزيئاته حركة وكلّ محيطه حركة داخل حركة داخل حركة داخل حركة.....

تصفّر الريح فترتفع حبّات الرمل وبين أرض وسماء تراها تتلاقى وتفترق تذهب وتجئ تعلو وتنزل بفعل بها الريح ما يشاء لا هدف لها ولا إرادة وعند مجيء الليل تواصل اليد الخفية التي لا تترك كائنا أيّا كان في دعة أو سكون همزها. يتحرّك الثور المرعوب يرجو الحياة يتحرّك على ظهره الموت من وراء الأكمة وقد لبس قناع أنياب الليث.

تشرب الأرض دموع السماء على مهل وتتحرّك الدّرر التي تزين نقاب اللّيل وكأنّ أمامها الأزل لا تعرف عجلا ولا وجلا.

لا فرق بين الكائنات إلاّ بسرعة وكثافة الحركة وهي تذرع الفراغ الملآن المتحرّك ذهابا وإيابا كأنّها تبحث عن شيء أو أحد.

إن «الموت» نفسه غير قادر على ايقافها. إنّه ليس أكثر من حركة تبعثر ذرات كانت متماسكة وتبقى تتحرّك وقد أنفرط عقدها. تملأ الحركة فراغ الاسم - العالم فتلد المكان. تتحكّم في سرعة ملء صهريجه وإفراغه فتلد الزمان ومن ثمّة هي حياة الموجود نفسه. تحكم عليك هذه الضرورة أن تكون الرحلة جريا لاهثا تبحث عن حالة مضت تريد تثبيتها أو تفرّ من حالة تلاحقك كما تلاحق اللعنة الملعون.

تصاب بالدوران أمام كلّ هذه الحركة المجنونة التي لا تتوقّف لحظة. قد تحاول أحيانا أن تسكن وأن تتباطأو عالمك العجوز الرّضيع يحلم عبرك بلحظة يسترجع فيها أنفاسه... عبثا تأتي الحركة كالمكنسة تدفعك بفظاظة كما تدفع غبارا تراكم تحت السرير.

ولمّا يأتيني منها اشدّ الإرهاق أستنجد بمخيّلة الطّفل الذي لم يمت فيّ لنوع من الثّأر الصبياني.

أقرّر أن يتصدّر سيّد السماء كبدها لا يتزحزح قيد أنملة. توقّف غدو ورواح قطعان السحاب البيضاء. أوقفت عقارب ساعة الزمن على لحظة نشوة لا توصف. سكنت حركة الذّرات وتوقّف دوران الكواكب والنجوم. انكبت الكائنات على نفسها لا تشغل بالا لها يوم مضى وغد غير آت. توقّف البحر عن الهدير والريح عن الصفير تسمّرت الصحراء لا تزحف على بطنها كالثعبان تلتهم ما يعترضها. انتهت كلّ قصص الكائنات تلك التي اكتملت منها والتي لم تكتمل تلك التي نجحت والتي أخفقت أيّما إخفاق. انتهى تضارب الأضداد وتزاحم المتنافسين ولم يعد هناك نقص يصلح ولا إصلاح ناقص يولّد مزيدا من الحركة.

تتواصل داخلي المشاعر المبهمة والأفكار المضطربة والخواطر الهوجاء تحرّكها يد خفيّة لا تأبه بأمر أن قف أيها الكون لحظة.

تتعمّق إرادة الانتقام وأحاول أن أنصب له فخّا.

انت الذي يحبّ التغيير لماذا لا تذهب بتغييّرك هذا إلى تجربة حالة الجمود النّهائي.

تستبد بي الرؤيا. ذهب الاسم ـ العالم إلى غير رجعة اختفى بأشكاله وحركته الهوجاء بقصصه وظروفها ولم يبق إلاّ فكر مبهم معلّق في فضاء يملؤه العدم.

أفتح عيناي أعلم أنه كالكلب الوفي مقعى ينتظر أن آمر وأن أؤتمر.

أبدا بالسلام أقرأه عليه.

ـ السلام عليك أيها الاسم ـ العالم.

يغرق في صمته ولا يردّ أو يردّ بألف لغة لا أفهمها.

أنظر إليه أحيانا بغضب مفتعل أو حقيقي.

تتعمّق لامبالاته ولا يبقى عليّ إلاّ أن أدوّن ملامح وجهه هذا اليوم ذلك أنني أجلس إليه كثيرا عند قدوم الفجر وفي نفس الموضع دائما أدوّن في مذكّرتي بعضا من حركة قسماته.

لقد أولع مصباح في تلك النافذة حيث لم يكن هناك نور البارحة في مثل هاته اللّحظة لقد وضعت السّماء على وجهها نقابا رماديّا ينذر بنزول الماء مدرارا وكانت لساعات خلت بلون البحر. ها قد ظهر القرص الذهبي على عادته لكن متأخرا بدقيقة أو أكثر وفي مثل هذه اللّحظة البارحة عوى كلب إلاّ أنّه صامت الآن. أترى لازال يغفو وبماذا يحلم وهل تحلم هذه الكائنات.

يرتفع فجأة لغط بني آدم وأنظر إليهم مليّا وهم يعبرون هذا الركن المتناهي الصغر من الاسم ـ العالم الذي جعلت منه برج المراقبة وكان البارحة خاليا من أجسامهم وأصواتهم.

لقد تغيّرت ملامحه في أكثر من جزئية: اتّجاه هبوب الرّيح لون الشفق أشكال السحاب عبير الهواء ارتعاش الأوراق وظهور هذا واختفاء ذاك. لامجال مع هذا النّوع من العوالم أن تحاول التنبؤ بما قد يأتي. تنتظر منه حالة فتأتيك حالة أخرى وإن أتتك في أوانها الموعود فهي مختلفة مما عرفت أو تتوقّع. تتعلّم منه أن المفاجأة هي إحدى احدى طرق تواجده وتصرّفه.

هو هذا الصّباح على غير ما كان عليه البارحة وهو غيّر ألف تفصيل وتفصيل في سحنته بهدوء وكأنّه لصّ في أوقات الشّغل لايريد إثارة انتباه أحد.

حذار إنّه ليس دوما بمثل هذا المزاج. لا يغرنّك منه أبدا أنّه هدوء اكتمل تتوسّد صدره تختبئ في حضنه آمنا مطمئنا.

والعادة انّك تخاله قطّ ناعم تمرّر راحتك بلطف على جسمه الأهيف. تفاجأ وانت لم تصل رأسه بأنياب معقوفة قد غرسها فيها نمر هائج وبينما انت تصرخ مرعوبا ينقلب حمامة لها سجع فاتن. هاهو من غير إنذار مياه جارفة نار حارقة أرض متمايلة أمواج مغرقة صاعقة

آتية من أعماق المجهول رمح موجّه إلى صدرك انت بالذّات وهو كذلك دوما بين تبسّم وتكشير.

تمرّ كامل الرحلة ولا يستنفذ بنو سفركلّ الأقنعة التي يضعها ويخلعها وكلّ هاته الحلّي التي يلبسها ويتركها وكلّ الأدوار التي يلعبها ويهجرها.

انت لا تعرف الاسم ـ العالم في تقلباته وتمظهراته الهامّة إن لم تره في حالاته القصوى وقد اتخذت الحركة صبغة هوجاء في شكل ثورة بركان أو لحظة تزلزل الأرض زلزالها.

هو يبدو في مثل هذه اللّحظات الحرجة وكأنّ به مسّ من الجنون. تأتيك من هنا وهناك إنذارات مبهمة عن تصاعد الخطر وقد يثب عليك حتّى قبل وصول التنبيه. .

إنّه إذا هاج وماج عصف بالبحر راميا أمواجه على أعتاب الصلب كأنّه يريد قلب الأرض بحرا والبحر أرضا. إنّه يصفّر بين أسنانه فتتهاوى الكائنات أو تجتثّ من عروقها لا تقوى على مقاومة.

تثب آنذاك من الحضن إلى المخبأ لكن أين المخبأ تتعلم في مثل هذه اللّحظات مثل كلّ الكائنات إلى أيّ مدى انت ترتحل في عالم مصنوع من الخطر وإبّان مثل هذه الثورات من الهيجان وإبّان هذه النوبات من العنف العاتي يستحسن منك أن تكون حذرا كلّ الحذر.

والحذر أن تضع بينك وبين الاسم ـ العالم الهائج المائج غضبا أو شهوة إن أمكنك ذلك حاجزا فاصلا تتّقي به ما يسقط من السّماء أو ما سيتصاعد من الأرض أو ما سترميك به جبال الماء الآتية من البحر.

وإبّان هذه الأزمات الحادّة يعلّمك الاسم ـ العالم أنّك وإن كنت شيئا ليس كمثله شيء فإنّك أيضا شيء كلاشيء.

يدوّي صوت رهيب آت من أعماق الأرض ينذر بقرب الكارثة وفي أقلّ من لحظات ينهار ما كان مرتفعا. يتساقط ما كان واقفا. يتفتّت ما كان متماسكا. يجتث.

ما كان متجذّرا يتقطّع كلّ ما كان ممتدّا. يفرغ ما كان ملآن ويحترق كلّ ما كان قابلا للإحتراق.

قال مسافر شهد يوما صرع البسيطة: لقد رأيت بحيرة كاملة فقدت ماءها ونهرا عكس مجراه وساعات توقّفت وسمعت أجراس الكنائس تدقّ نفسها بنفسها كأنّها ترحّب بكتائب عزرائيل وهي تحصد آلاف أرواح الكائنات المرعوبة.

يصاب العالم وهو في ذروة نوبة الصّرع بكلّ هذا الجنون ولا نعرف لا السبب ولا المتسبّب. هل تضيق بنا البسيطة ذرعا لأنّنا بالغنا ولكن في ماذا بالغنا يا ترى. هل هي تغضب في مثل هذه الحالات لأنّنا لم نقدّم لها مراسم العبادة لكنّها لا تطلب شيئا في

العادة وهي تعطي دون مقابل ولم يرو لنا راو أن علينا أن نقيم لها الصلوات والذبائح لإرضاء نرجسية نعلم أنّها منّا وليست منها.

هي في هذه اللّحظة قناع مرعب لعالم بألف قناع. تنتفض فجأة تضرب بعرض الحائط الجبال وتلك المباني التي نشيّدها ولا من تهكّم عليها أو أسمعها ما لا ترضى.

هي بقدر ما تعلّمك الطمأنينة بقدر ما تربّيك على الاعتقاد بعالم صلب متماسك متواصل بقدر ما تأتيك بالصّدمة والمفاجأة لتقول لك إلى أي مدى هي تستطيع أيضا أن تكون رخوة ميّادة تفتح السراديب والأخاديد تخسف بكلّ قدم تطؤها أو بناية ترتفع فوقها أو نهر يعبرها غير واع بأنّه يمتطي حصانا جامحا وإن طال هدوؤه.

يقال في حلقات السّمر أن الاسم ـ الموجود في مثل هذه الحالات لا يتشنّج لهوا ولا عبثا ولا يتحرّك طيشا ولا نزقا وإنّما لأمر أعظم وأخطر. إنّه يعيد ترتيب شؤونه ويتخلّص من فائض فاض. هو لا ينتقل من حالة إلى حالة إلاّ لأنّ فيها أمرا وضرورة لأن فيها توازنا مفقودا وتوازنا منشودا لكنه ليس بالبراعة التي يتصوّر وبالدّقة التي قد يعتقدها في نفسه وليس بالحنكة التي يفترض أن تكون في عالم مرّ بكلّ هذه القصص الموغلة في القدم والتكرار.

تتجاوزه أحيانا عنفوانيته وكأنّه عجز عن التحكّم في كلّ هذه القوى الجبّارة التي يحرّكها وتحرّكه لذلك تعلّمت الكائنات أن تحترز. هي تعلم أنّه في مثل هذه الأزمات الصاخبة سخيّ بـ«الموت» سخاؤه بالحياة.

لا يغرنّك مظهر القوّة في كلّ هذا فوراء القوّة افتعال القوّة ووراء افتعال القوّة ضعف ورقّة ولين وميوعة وتناقض.

* * *

تتّخذ الحركة صبغة حادّة وبعنف أقلّ.

هو لا يدخل في إحدى فصولها إلاّ وحملت نفسي على أن أراقبه من بداية النوبة إلى انتهائها كما تابعت العديد من المرّات تطوّر نوبة الصرع عند المرضى من رفاق السفر.

انت مثلي الآن لا تسمع منه إلاّ حفيفا رقيقا وهمسا متقطّعا.

ها انت مطمئن إلى استمراره على هدوء أعصابه ورواق مزاجه فلا شيء بينك وبين قبّة الاسم ـ العالم إلاّ تلك القطعان البيضاء من القطن ترعى حقولها الزرقاء وذلك المعلم القارّ الذي يغمر الركح بنوره. ها هو فجأة قد عبس وتجهّم.

تختفي فجأة من ملامحه كلّ بشاشة. لقد وضع فوق البسيطة خيمة رمادية خانقة لا تنذر بخير ستتفجّر منها بعد لحظات النقمة والنعمة.

يتواصل اكفهرار وجه السّماء. تشعر بأنّ شيئا ما لا بدّ أن يحدث وانه لن يكون هناك أدنى رتابة أو ركاكة في تجدّده.

ثمّ يخيّل إليك أنّه أصيب بسورة غضب عات. إنّه الآن يصفّر ويصرخ ويزعق في وجهك وكأنّ لك معه ثأر قديم.

يتصاعد الضغط فوقي وفي الدّاخل وتتصبّب انت أيضا عرقا وتتشنّج أعصاب كلّ الكائنات بانتظار الخلاص.

هاهو الذي يزمجر فوق رأسك أسد جائع أو فيل أهوج تمكّنت منه شهوة جامحة. يدوّي قرع الطّبول من اللاّنهائي إلى اللاّنهائي فلا تدرك له مصدرا أو اتجاها.

تتّضح فجأة ملامح الوجه العابس المكفهّر للعالم وقد أضاءته لهنيهة موجة خاطفة من الضياء. تتالى ومضات النور العصبيّة وكان إلها يقدح ولاّعة تعاكسه أو كأنّ عفريتا أشعل في كبد السماء مصباحا من «النيون» يرفض أن يضيء. ترى بين الومضات تكدّس جبال سوداء بعيدة مبالغة في البعد عالية مغالية في التعالي وتشعر أن أزمة الاسم ـ العالم في احتداد وأنّها بالغة ذروتها عمّا قريب وانت لا تعرفه حقّا طالما لم تره وهو بين ألم ومخاض وهوبين صرع وارتخاء وهو بين تشنّج وهدوء وهو في قمّة الغضب وقمّة اللّذة.

وككلّ الكائنات ستدخل انت أيضا قوقعة ما وستتراجع خطوة إلى الوراء لتشاهد وانت ما بين رهبة وخشوع جماع السماء والأرض.

تتزايد سرعة ومضات المصباح الخفّي ويتردّد دويّ الطبول هدير حيوان سماوي استفحل به الشبق. تصبح الأنفاس المتقطعة الساخنة صفيرا مسترسلا ما بين طبقة الصراخ والحشرجة فإذا بالكائنات تتراقص رعبا أو طربا.

تتطاير الأشياء كفراخ الحجل وقد أطلق نحوها الصيّاد طلقة النّار. تملأ السّماء بأشلاء بقاياها وبقايا أشلائها. ثمّ تتمكن الرعشة من بني نبات هي الأخرى وانت لن تراها قد خرجت من صمتها الدّائم ووقارها المتكلّف إلاّ في مثل هذه اللّحظات.

فجأة تحني تلك الكائنات الهيفاء الفارعة الطول قدودها يمنة ويسرة ثم تبدأ رقصها على إيقاع الصفير. يتزايد التمايل والتثّني. تراها تنعطف تشير بهامتها إلى الأمام والخلف بصفة مضحكة وهي تتبع إيقاع لهاث الاسم ـ العالم وهو بين لذّة وعذاب. تتسارع حركتها كلّما احتدّ صراخه وإن هو هدأ لحظة يسترجع أنفاسه تباطأت واسترخت هي الأخرى وبينما هي تتراقص لا تدري رعبا أم فرحا تتّصل أطراف الحديث بين أوراق كائنات أخرى أضخم حجما وأقصر هامة وأرزن رقصا.

ها انت تسمع لها حفيفا ووشوشة وكنت تعرفها دوما صامتة بكماء. تصيخ السمع

إليها بانتباه جديد علّك تفاجئ نميمة أو لكنة أجنبية لكنّ لغة هذه الكائنات عزيزة الفهم عزيزة المفاجأة.

إنّها فرصة لا تعوّض لذلك لا بدّ أن تقف وأن تتوقّف. إنّها لحظات ثمينة عابرة يتكلّم فيها الأبكم يطير فيها من لا جناح له وتتحرّك فيها الكائنات المشبعة في ركح الاسم - العالم.

تعبرك لحظة فكرة رهيبة أنّه قد يكون أصيب بلوثة من جنّ أو عته لا دواء لهما إنّه قد لا يثوب أبدا إلى رشده إنّه استقرّ على قرار لا رجعة له وإنّه سيتواصل على مثل هذا التسخط والغضب إلى أن ينحر ما فيه وينتحر. تستبدّ بك الرغبة الجامحة أن يسارع للعودة إلى سابق عهده من الألفة والرّتابة. تطلّق بسرعة هذه المخاوف الطفولية فكم من مرّة استبدّت به مثل هذه الحالة فآب منها وكأن شيئا لم يكن ولم يحدث.

إنّها حالات لا مفرّ منها ولا خوف. هي دليل الصحّة وعنفوانية شباب لا يعرف هرما. إنّها لحظات التجلّي والتجدّد. يخيل لك وانت على أعتاب خشبة هذا المسرح وانت تحاذر لتبعد جسمك عن كلّ هذه القوى المطلقة من عنانها إنّك لست معنيّا والحال أن الاسم - العالم يشكّل منك معالم الروح كما هو بصدد إعادة تشكيل ملامح الأرض والسّماء.

إنّك دوما في تفاعل مستمرّ معه لكنك في مثل هذه اللّحظات تتشكّل وتصاغ في مستوي تلك الأعماق المطمورة التي يتفجّر منها كلّ شيء.

ها انت من جديد مبهور تدرك فجأة أيّ قوى رهيبة تعتمل في أحشاء هذا الحيوان الكوني الذي ظننته حملا وديعا تعايش شكلا أو آخر من الخوف والرهبة وقد احتدّت الأزمة وارتفع الصفير ودوّت الطبول تملأ السّماء ضجيجا ما بعده ضجيج.

هل بوسعك أن توقف كلّ هذا بأمر صارخ ونبرة محتدّة.

وبينما يشتدّ لغط الأوراق وهي تتهامس تحكي رعبها أو نشوتها وبينما الكائنات الهيفاء تواصل تثنيّها تتحرّك من نباتات أخرى أغصانها المحمّلة ورودا حمراء وكأنّها أذرع أخطبوط أسطوري تضرب في الهواء تدفع وباءا داهمها.

تنعطف مرّة أخرى التغييرات المتتابعة بسرعة لا تترك لك الوقت لرأى أو موقف. يدخل ممثّل جديد الرّكح. فلا تخطئ التعرّف عليه وقد تكون مثلي تنتظر دخوله بفارغ الصّبر. فجأة تبدأ قطرات السائل المقدّس بالتّساقط من القبّة الرمادية. ترتطم بالصلب في إيقاع متسارع متناسق متناغم. تعبرك قشعريرة لذيذة وكأنّك انت الذي يروي بعد طول العطش فهذا الذي يتزل مدرارا منذ بداية القصّة الوصل والوصال الواصل الموصول الذي به كلّ حياة وكلّ القصص.

تسمع البسيطة ترتشف بنهم ما يأتيها هديّة وبركة. تتلمّظ تتذوّق تبتلع تختزن تحتضن

هذا الذي كانت تتماوت شوقا إليه. تتضوّع طيبا وتتمازج رائحة الترّاب وقد صار رخوا رطبا أملس برائحة نباتات شتى تطلق الآن عقيرتها بصراخ اللذّة الصامت.

تتباعد الومضات. تضعف الزمجرة. يتباطأ اللّهاث والصفير. تستعيد الكائنات الهيفاء وقارها. تنتصب من جديد ترنو شاخصة البصر إلى الفوق. تكفّ ذراع الاخطبوط النباتي عن صراع مع حيّ غير مرئي. يصبح حفيف الأوراق همسا متماوتا.

لا يعلو إلاّ صوت البسيطة وهي تشرب بنهم هادئ. أنّها الآن رضيع أحكم فمه حول حلمة ثدي السّماء تمتصّ منها الحياة. إنّها الآن سكران لا يريد فراق الكأس إنّها عاشقة ولهانة تمتص ريق الحبيب فلا ترتوي.

وفي أحشائها وهي لم تكمل بعد جماعها يبدأ الحمل ومراسيم الوضع الولادة.

تتحرّك في ظلمات التربة اللّزجة كلّ الأجنّة أخبثها للآدمي كأطيبها له وقد بعثت في عروقها نشوة الحياة وخيلاءها. ها قد أصبحت البسيطة المبلّلة أمّا تتدافع داخل أحشائها آلاف المشاريع لقد انفتح فجأة باب الإمكانيات اللاّمتناهي لألف قصّة وقصّة.

آن الأوان لكي تعجن البسيطة لبنات الحياة من كلّ الأشلاء وكلّ البقايا من كلّ الجثث التي التهمتها لتحفظ لمثل هذه اللّحظة بكلّ حظوظها. أنّها الحالة التي تنقلب فيها المقبرة رحما رحيما.

وبينما السائل المقدّس يتسلّل عبر كلّ الأعطاف والثنايا إلى أين يكون الإخصاب وبينما الأجنّة في تكاثر مرح وبينما البسيطة في نشوة تحقّقت وآفاق انفتحت وبينما انت بين روع وانبهار تنتهي حالة الصرع التي انتابت الاسم ـ العالم.

تستعيد الملامح العابسة اشراقتها المحبّبة الأليفة. تتسلّل من بين الاكمات السود أشعة الضياء لتقول أن سيّد السّماء لم يعبأ كثيرا بكلّ هذا اللّغط.. إنّه البعل الباق أبدا.

تستعيد السّماء صمتها على استحياء وخجل وكأن كلّ هذا الزعيق التي ملأت به الأجواء فاجئها هي الغارقة دوما في صمت الكبرياء والتعالي. تستعيد الكائنات الملتصقة بظهر البسيطة خصائصها المعتادة فلا ثرثرة ولا تثنّي أو ميدان نشوان لكائنات جبلت على الانتصاب وقلّة الحركة والزعيق.

وبينما الصمت يمتدّ ويلفّ الاسم ـ العالم وقد هدأت حشرجته وانتظمت أنفاسه وتوقّفت تشنّجاته تعود للكائنات المتحرّكة رغبتها المحمومة في احتلال كلّ الفضاء المسموح به تذرعه ذهابا وإيابا لا غاية لها إلاّ ملئ الفراغ بالحركة بعد أن اتّضح لها استحالة ملأه بالحجم. ولأنّ هذه الكائنات المتحرّكة جبلت على الضجيج فإنّها لا تلبث أن تطلق عقيرتها بكلّ أنواع الصراخ المنكر يعوّض ما فاتها لمّا فرض عليها دويّ الطبول السماوية أن تخرس رهبة وإجلالا لقوى لا تجادل ولا يتكلّم في حضرتها.

ولأن داخل الاسم ـ العالم هو خارجه وخارجه هو داخله فإنّه من الطبيعي أن تكون الزوابع خارج حدود جلدك وداخلها.

ها انت تستعيد أيضا هدوءك وهو يستعيد هدوئه وها قد انتهى درس آخر متجدد أضاف بعض العلم إلى جهل لاشفاء منه.

إذا أتتك العاصفة فلا تقبع منتظرا نهايتها تتقاسمك الرهبة أو اللاّمبالاة.

أخرج لها حاسر الرأس مرفوع الوجه إلى الأعلى ممدود اليدين والذراعين كأنّك تريد أن تعانق كلّ هذه الطاقة المخزونة وكأنّك انت الذي دوّت الطبول تدعوه إلى المثول بين يدي الموجود لدرس لا يعوّض.

ترتطم القطرات بالجبين الملتهب. ينحدر على طول جانبي الأنف لتمسح وتداعب الوجنتين. أخرج لسانك ليلتقط نصيبه ممّا يتسلّل بين الثياب والجلد. تابعه وهو يدفع على طول الظهر موجات متتالية من قشعريرة لذيذة. افتح عينيك كمالم تفتحها يوما لتشاهد عبر الومضات الخاطفة الأشكال الغريبة المخيفة للجبال السوداء المتزاحمة لاحتلال الفضاء لا تضيّع شيئا من تموّج القطرات المتساقطة والرّيح تدفعها في اتجاه ثمّ في عكسه.

لا تغفلن بين دويّ وآخر عن متابعة روعة ذلك النهر من نور وهو يقسم فجأة سقف الاسم ـ العالم إلى جزئين. إنّها المرة الوحيدة التي سترى فيها سمائين واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه ولا من قنطرة فوق شرخ النّار. أجعل لأذنيك عليك واجبا. إنّها لا تحبّ ولا تستمتع بصوت قدر استمتاعها بذلك الذي يحدثه السائل المقدّس وهو يتسارع نحو الأرض.

ها انت تعبّ من كلّ هذه اللّذة والصوت بين تسارع وتباطىء واحتداد وهدوء. ها قد بدأت الروائح تتصاعد من النباتات ومن الثرى. جنّد ما استطعت من الانتباه لتتعرّف على كلّ مساهمة وعلى كلّ طرف يعلن نشوته.

أن أولى قواعد الرحلة حتّى لا تكون تلميذا غبيّا للعالم لا يفقه ما يقوله أو يكرّر ولا يبالي بما يسمع ولا يتذكّر منه شيئا أن تكون حاضرا منتبها كلّما دعاك إلى درس جديد وهو المعلّم الذي لا ينسى لحظة أن عليه تربية كلّ من حملته البسيطة على ظهرها.

انّك من بداية الرحلة إلى نهايتها أمام الاسم ـ العالم كتلميذ لا زال يتدرّج في حفظ الأبجدية أو جدول الضرب أمام أستاذ لا أحد يعرف له عمرا أو حدّا لعلم. يتلحّف العالم بالسرّ والغرابة في شتّى تمظهراته وعلى كلّ المستويات. تذكّر كم كنت لجوجا مرهقا بأسئلتك وانت طفل يكتشف عالما طفلا.

ترى من أولع البرق وأين توجد الطبول التي يصمّ قرعها الآذان وأيّ إرادة خفّية تحرّك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء أين ذهبت اشراقة الاسم ـ العالم ولماذا هو غاضب مكفهّر الوجه وهل هو حقّا غاضب أم هل هو يتكلّف ويمثّل وأين تحتدم كلّ هذه

المشاعر في أي فكر وداخل أي قلب هل لهذه الأسئلة من معنى ولماذا تتساقط من قبّة السّماء كلّ هذه الدّموع وهل هي دموع أم عرق آلهة تئن تحت السوط لماذا تصفع البسيطة يد الرّيح وتحني هامة أطفالها وهي لا تحرّك ساكنا ولماذا تأتي العاصفة هنا ولا تذهب هناك ولماذا تختار أن تكون تارة رحمة وتارة نقمة ولماذا تصمت البسيطة آنذاك ولا تجيب على كلّ هذا الضجيج بضجيج أقوى لماذا لا تواجه التشنّج بمثله تردّ على التحدّي بتحدّ أكبر لماذا لا تنفث حمم براكينها في وجه السماء ولماذا لا تسمعه هي الأخرى أن لها ضجيجا مرعبا إن أرادت. ولماذا تسقط السوائل ولاتتجه إلى فوق.

أين يذهب البرق عندما يغادر الرّكح وأين يختفي الدوّي وأين توجد الأيادي والطبول ومن أين تخرج فجأة جبال السحاب وفي أيّ مستودع تختفي إلى حين استعمال آخر من ينفخ كلّ هذه الرّيح ومن أيّ صدر تخرج لاهثة ساخنة أو ماذا يحرّك كلّ هذه التراجيديا ولأي غرض أو وظيفة.

وقد تكون أتتك مثل هذه الأفكار الهوجاء.

لماذا لا أستطيع أنا أن أولع البرق وكيف لي بإحداث مثل هذا الدويّ وما السبب في عجزي عن اصفّر لهذه الجبال القطنية السوداء لتأتي سراعا.

لماذا لا تسمع لي إن أنا أمرتها أن تبدأ هنا وأن تكفّ هناك ولماذا دوما هذا اللّون المنعدم اللّون في هذا السائل النازل من عنان السّماء فهل لي بمطر بلون القرنفل ويوما آخر بكلّ ألوان قوس قزح.

تألف منه اللاّمألوف. يتبلّد منك حسّ العجب أو يتعمّق.

تمثل أمامه إبّان هذه الحالات كالحجر بين يدي نحّات عبقري.

هو عندما يرغي أو يزيد لا يعطي الحياة أو الموت فقط وإنّما هو أيضا يربّي. إنّه يصنع آنذاك المشاعر والأحاسيس الأعمق والأبقى. هو يهندس الروح ويعيد تركيبها كما يفعل بالجسم يحضنه ويطحنه ينشئه ويمزّقه يداعبه ويحطّمه يملؤه ويفرغه.

انّه دوما وفي آن واحد الفاعل والفعل والمفعول به وانت أمام هذه الشطحات الخطيرة المنذرة بكلّ خير كالعادة جزء خارج الاسم ـ العالم وجزء داخل الاسم ـ العالم.

ها انت الواحد المفكّك تنظر من خلال عين الغير والغير انت وهو ـ انت الذي نسي أنّه «هو».

يمكنك الآن أن تركب ظهر الريح أن تكون البرق الخاطف أن تتراكم جبالا سوداء من السحب. ها انت العاصفة أطلقت من عنانها كلّ القوى التي تسكنك هاجسا ونذيرا تمتدّ البسيطة تحتك ساكنة طيّعة مطيعة خاشعة راجية.

تمدّ راحتك تداعب شعرها تمسح عن وجهها المرهق سحنة مغبّرة لجائع أنهكه جوعه وعطشان أرهقه البحث عن الماء وجسد مهجور طال به الأمد إلى وصال كاد أن لا يصل أبدا. تصفّر من بين أسنانك الريح بلهاث الشهوة وهمس الحبّ.

تشخص ببصرك وقد أصبحت كلّ عين لكلّ من رأى لتبصر داخل طيّات البسيطة كلّ الأجنة وهي بين خوف ورجاء. ها انت ترغي وتزبد كفيل هائج أو تضرب صدرك براحتك كما تفعل الغوريلا ليتردّد منه صوت كقرع الطبول.

تارة كقبضة تضرب حائطا وتارة كإصبع ينقر برفق على باب الحبيب النائم وأيّا كانت طريقة الوصل فإنّها راضية تتقبّلك أينما نزلت أتيتها.

تلجها عبر ألف طريق وطريق. هي تفتح أمامك كلّ مسام جلدها لا تريد أن تضيّع قطرة تشربك أينما تراكمت وتصرّفك أنهارا متدفّقة إلى أين هي لك بأمسّ الحاجة. تجذبك إلى أغوارها المظلمة الدافئة العطشى هي الأنثى التي ولدت وربّت كلّ أنثى وهناك في أعمق أعماقها تنتظرك كلّ البدايات المبهمة لتجعل منها الأجنّة التي ستواصل النّص.

انت دائما في حالة يقظة قصوى لا تضيّع شعورا مهما كان طفيفا أو إحساسا مهما كان مبهما أو فكرة مهما كانت عابرة.

لا زلت العين التي تنظر والثقب الذي تنظر من خلاله العين والحالة التي استبدّت بك وبه والتّي لا تضيّع العين منها شاردة. إنّك الآن حلقة الوصل وانت لم تعد حاجزا أو فاصلا بين حالتين للعالم وإنّما جهاز ترجمة ينقل لغة داخل الخارج إلى لغة خارج الدّاخل.

آن الأوان لكي يستعرض الاسم ـ العالم الطاووس ريشه الملوّن بعد أن شبع غزلا وجماعا آن الأوان مرّة أخرى للانبهار انت الذي لا يملّ من تأمّل ذاتك والإغراق في نرجسية لا حدود لها.

ينطلق فجأة من وراء الأفق قوس من الألوان. يتسلّق بسرعة خاطفة الفراغ الأزرق وكما رأيت إبّان هذه الحالة لأوّل مرّة سقف الاسم ـ العالم سقفان يشقّهما واد من النّار سترى الآن وللحظات معدودات إحدى روائع عالم فنان. يبدو لك القوس وكأنّه غرس في أقصى البسيطة وأنّه انطلق من رحمها غصنا وارفا ميّادا اعترضت انطلاقته إلى أعلى الأعالي يد لوته نازلا لينغرس في الأقصى الآخر.

يفاجئك منه كمال الشكل والألوان الصارخة. إنّها الحالة الوحيدة التي سترى فيها الفراغ الممتدّ فوق رؤوسنا بكلّ هذه الألوان المزركشة.

ترى هل تزاحمت أيادي الكائنات لتلوين القوس لأن على سطح البسيطة أكثر من ممثّل غيّور.

أترى أوّل الألوان مساهمة الورد أم شفاه النساء أم النّار التي تزمجر وتغلي تحت سطح البسيطة أيكون اللّون الثاني بصمة الصحراء التي تزحف كالحيّة الرقطاء شمالا وجنوبا تأكل كلّ أخضر يانع.

أترى اللّون الوسطي تذكار من البحار والمحيطات وهي تحاكي لون الغابات ويبقى اللّون الأخير وهو ضرورة إمضاء زهر اسمه البنفسج.

تملأ عينيك بكلّ هذه الروعة وهي تتجلّى في بهجة ساذجة.

انت الآن أمام عالم متفتّح منطو على نفسه مغرق في تعجّبه وإعجابه بذاته. تبقى تتابع مشدوها عاشقا متيما ولهانا انفصال الجسدين وقد أترعا لذّة.

يختفي تدريجيّا نصف القوس وكأنّ الفضاء ابتلعه. يمتدّ النصف الباقي كأنّه قضيب تصوّبه البسيطة نحو سقف الاسم - العالم تعاتبه أو تنخزه لكنّه لا يأبه كثيرا بالتهديد أو بالمعاتبة. يقضم القوس من طرفه الآخر لا تبقى منه إلاّ لطخة معلّقة في كبد الفضاء تجربة طفل مبتدئ يعبث بفرشاة رسم ويرمي بالألوان جزافا على كاغط أزرق يمتدّ من أقصى الفضاء إلى أقصاه.

تبقى اللّطخة الملوّنة معلّقة للحظات. تبهت رويدا رويدا إلى أن تنمحي لا تترك إلاّ خيطا رفيعا بلون الدم الشاحب يجاهد عبثا قدرا محتوما.

ها قد عاد سقف الاسم - العالم إلى سالف عهده وها قد فكّ كلّ ارتباط بين العروسين لقد انتهى الوصال.

لا أجمل من الاسم - العالم بعد الأزمة. تنفرج أساريره هو الآن يبتسم بكلّ نواجذه وتجاعيده وبريق عينيه ولكم يبدو لك في هذه اللّحظات هو الأنثى العجوز شابّا استعاد رونقه ونظّارته فكأن العاصفة قد غسلت البسيطة والسقف كما تنظّف خادمة عصبيّة بلّورا متّسخا. إنّها نفضت عن سيّد السّماء نفسه كلّ غبار أو رذاذ.

ومسحت ذلك اللّون الرمادي عن جبال السحاب تعيدها إلى بياضها المحبّب. إنّها رسمت هذا القوس السحري علامة الانتصار على كلّ قوى الشيخوخة و«الموت».

* * *

هو على حركته الهوجاء وتقلّبه الدائم واضح المعالم مستقرّ في مظاهره وهو ما يجعلك تتحرّك داخله بشيء من الأمان. إنّ له رغم قساوته رفقا خاصّا بك.

فجأة لسبب ما تكتسب الحركة تناغما وتناسقا. تتضافر حركات الأصوات وتتّحد بينها وكأنّها وجدت أخيرا ما تبحث عنه ومن عناقها يتولّد الرقص.

هو لم يضعك أو قلما يفعل أمام الحركة التي تطوّح بك في مجالات لا قبل لك بالعمل

داخلها. إنّه لا يستعرض أمامك من الحيّوية والنشاط والتجدّد إلاّ المقدار الذي يسمح لك بأن تكون وأن تواظب على هذه الكينونة.

هو أقفل أمام ذهنك الناشئ أكثر مجالاته حتّى لا تحكم عليك معايشة حركة اللاّمتناهي صغرا واللاّمتناهي كبرا واللاّمتناهي عددا بالهوس والهذيان. هو لا يغرقك في عمق فقد كلّ معنى وتماسك. ولأنّك مسافر لا ينشد هدفه إلاّ إذا تماسك الطريق ورسمت على حافتيه معالم قارّة فإنّه يفرش أمامك طرقاته المتقاطعة ويرسم على حافتيها معالم تتغيّر ببطء شديد لتألفها وتخالها قارّة ثابتة.

هو يعطي لحركتها ثباتا في نبض تغيّرها وهكذا تتعوّد على أن تبحث عن عين اللّيل وقد أرخى سدوله في نفس الأوقات ونفس الأماكن. لا تفاجئك حركة الصحن الذهبي وهو يتبع مساره من أقصى الأفق إلى أقصاه المعاكس لا يحيد عنه ولا يخرج منه وكأنّه قاطرة وضعت على سكّة.

إنّها حيل الاسم - العالم وطرقه الملتوية لكي لا يذهب عقلك لكي تدخل الخضمّ ولا تغرق فيه.

وأنت ستبصره يتأرجح بين حالة وأخرى لا يفارقها إلاّ ليعود إليها وستطمئن أيّما اطمئنان إلى هذا الأخذ والردّ إلى هذا المدّ والجزر إلى هذه المغادرة والعودة الأبدية.

يكتسب الزمن في هذا النوع من الحركة صبغة دائرية. تنطلق من أي نقطة فيه لتعود إليها إجباريا بعد دورة كاملة. تأتيك ورفاق الرحلة من هذه الحركة المتناغمة فكرة القانون والحتمية والنظام وإمكانية التنبؤ الصحيح فالعلم وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل.

لكنّك لا زلت طفلا في هذا الموضع من القصّة وأنت لم تتعلّم بعد وضع لجام اللّغة على مشاعر هوجاء. لنحاول معا تذكّر بعضها.

ها قد وضعنا أمامنا هذه المرّة عالما يتحرّك ببطيء بوقار وبجلال يستعرض أمامنا مفاتنه كالطاووس ينفخ ريشه المزركش.

إنّه في هذه اللّحظة ما زال متسربلا برداء الصمت والظلام. لا شئ أمامك سوى ستار قاتم السواد أسدل على الكائنات المختبئة في ملاجئها وقد يضئ هذا الدّيكور الفخم فانوس اللّيل وقد تتزاحم ثقوب النّور في أماكن من القبّة المعلّقة فوق رؤوسنا ترسم طريقا دائريا شاحب البياض تلمع داخله هنا وهناك نجوم ذات نرجسية مفرطة وشخصية قويّة.

يخيّل إليك أن هذه اللّوحة التي تتأ مّلها وجدت منذ الأبدية وأنّها ستتواصل إلى ما لا نهاية.

وقد لا تلاحظ بروز حمرة شاحبة هناك على مستوى الأفق اللاّمتناهي وقد تنتبه إليها

مثلما ما أفعل دوما عندما أراقب الموجود يخلع قناعا ويرتدي آخر أو قد تراها تتوسّع شيئا فشيئا لتصبح نهرا من النّار والنّور يشقّ بحر السواد.

تتواصل الحركة هادئة مسترسلة لا فواصل فيها ولا تغييرات هوجاء مفاجئة يتسلّل النّور من الأفق الشرقي. يلوّن ستار اللّيل بحمرة تميل بتؤدة وجلال إلى صفرة فاقعة.

ثم إنّك ترى ستار اللّيل ينمحي بنفس الخطوات المتأنية فتستعرض كلّ ما في السواد والحمرة والصفرة من إمكانيات شتى من أصناف مختلفة من درجات لا عدّ لها ولا حصر ثمّ إن الستار ينحسر فلا يبقى إلاّ النّور تجيل البصر لتكتشف كلّ ما كان موجودا غائبا كلّ ما كان مختبئا وراء الستار. يبرز القرص الذهبي من المجهول ولا تدقّ الطبول أو تنطلق المدافع لتحيّ مطلع ملك الملوك وهو يأتي كما يذهب بلا صخب ولا عنف. تخاله يتسلّل داخلا كما يتسلّل خارجا لا يريد التفات نظر أو الاستئثار باهتمام.

تأتي الألوان وتأتي الضوضاء. تتسارع الحركة. يتسلّق الصحن الذهبي سماء استعادت زرقتها ليبدأ حركة نصف دائرية تحمله من أفق إلى آخر وفي كلّ نقطة من تنقله تراه يغيّر هنا وهناك ألف تفصيل ألف خاصية.

تتغيّر الألوان بصفة لا تكاد تلحظها. تتسارع وتتباطأ الحركة قياسا على حركته فللعالم والصحن الذهبي على أهبة الانطلاق بجولته اليومية حالة وله حالة وقد تصدّر كبد السماء وله أخرى وهو يميل رويدا رويدا نحو الأفق الغربي وله حالة لا أدري لها رقما وهو على وشك الخروج من الركح.

تكتسب الحركة صبغة عصبية متميّزة وهو يطلّ بجلاله على الأرض ثم هو يبدو وكأنه أعطى إشارة التباطؤ وهو في كبد السّماء. ها هو قد أطلق حركة الكائنات من عنانها ليتزايد جريها المحموم وراء غاياتها المجهولة وهو يميل نحو الأفق الغربي.

ثمّ تتباطىء الحركة وهو يفقد لمعانه الفضّي ليصبح كرة حمراء ضخمة تصبغ السحاب بلون قان وبينما هو يغوص في البحر ويختفي وراء هضبة ويشق له طريقا إلى الأسفل بين كثبان الرمل ترتفع فجأة حدّة حركة الكائنات وكان مسّا من الجنون وأبقى أراقب طويلا كلّ الألوان التّي يخلفها وهو يؤوب إلى مضجعه المجهول وتفاجئني منه دوما نفس العبقرية في ابتكار التفاصيل الجديدة في الألوان والأشكال التي لم أرها البارحة.

ها هو اليوم قد جعل من سحاب عابر فرصته ليصبغ بأحمر بنفسجي ما كان دوما أبيض اللّون أو ها هو يتزحزح قليلاً عن المكان الذي كنت رأيته البارحة يرتكز عليه قبل أن يذهب في حال سبيله.

يعود السواد تدريجيا بهدوء متسرّبا من أفق إلى آخر. تتباطأ مجدّدا كلّ حركة ظاهرة. ينطلق ألف كائن غريب من المجهول ليغزو عالم الظلام. تخرج كذلك النجوم من أوكارها.

لا أعلم هل تبرز وفق بروتوكول خاصّ يعطي الأولوية لأشرافها وعلياء القوم منها أم هل هي تتناثر في فوضى لا معنى لها. ثمّ إن الظلام يكتمل ويحكم السيطرة وأمامه تتراجع كلّ الألوان كما تراجعت الحركة. تشعر بها كامنة في كلّ مكان نافذة الصبر لا تنتظر إلاّ ذهاب هذا المهيمن الذي لا مردّ لحكمه. تبقى تتابع حركة اللّيل تحاول جاهدا أن ترى هل هناك أصناف من السواد مثلما هناك أصناف من الزرقة ومن البياض والأمر كذلك لكنّك تعجز عن وصفها وتصنيفها لأنّها متقاربة متداخلة متماسكة ومختلفة في آن واحد. هكذا تقنع بالسّواد المائل إلى الزرقة عند خروج القرص الذهبي وبالسّواد الشاحب المائل إلى لون الرماد عندما تتجمّع النجوم في شكل لطخات شاحبة البياض وبالسّواد الداهم واللّيل خال من الفانوس الفضّي والسواد المائل إلى الحمرة والظلام على وشك الرّحيل بدوره.

وفي مثل هذه اللّحظة يخيّل لك أن الوجود بأكمله قد أمسك أنفاسه وأنّ كائنات اللّيل نفسها قد أصابتها رهبة ورغبة وأنّها تتوجه مثلك بأنظارها نحو الأفق الشرقي ورغم أنّك تعرف أن هذا الموجود أهوج وأن طابعه المفاجأة الدائمة فإنّك لا تشكّ لحظة واحدة أن لك موعدا قريبا مع ملك السماء، إنّه سيأتي أين تنتظره ولحظة تنتظره وأنّه لا يخلف موعدا.

وأنت مثلي تعرف منه تلك الحالات الأطول التي يتّخذها ليهجرها ثم ليعود إليها المرّة تلو الأخرى بدون كلل.

لكم أحبّه وهو يتعرّى من ألوانه الفاقعة وهو يشحّ بنوره وهو يرتدي مسوح الرّهبانية ذلك أنّ روحي تتآلف مع روحه وتتناسق فإذا هما للحظة على نفس الموجة.

وفي تلك الحالة تراه قد أسدل على وجهه نقابا رماديا وترى ألوانه الزاهية تنطفئ الواحدة بعد الأخرى أو قل إنّه يخفيها تحت مسحة من الشحوب وكأنّ الألوان أصيبت بالسكتة الدماغية ثم إنّك تشعر أنّه لا يتعرّى من ألوانه وإنّما من جلده أيضا هكذا تراك تمشي على قشور هذا الجلد وهي تملأ طرق الأودية والغابات وأنت أينما تجيل النظر لا ترى منه إلاّ أعوادا يابسة شاخصة إلى الأعلى وكأنّها سواري مراكب لا بحر أمامها وفي مثل هذه اللحظات التي تنسى أنّ له وجها مشرقا يفاجئك بحمرة داكنة يغطّي بها هامات الغابات وكأنّها آخر وهج لحرارة داخلية آخذة في الانطفاء وفي مثل هذه اللّحظات يخيّل إليك أنّه أصيب بالإعياء والارتخاء والحزن وأنّ له تلك الحالة التي تعرفها عندما يتسلّل إلى قلبك الإعياء والملل. هو يلتجئ إلى الظلام في مثل هذه الحالة متسارعا وكأنّ النّور الشاحب الذي يبثّه ويغمره عيب يريد إخفاءه. ثم هو يبعث فيك الكآبة التي ينضح بها قشعريرة غير لذيذة تنذر بأنه مقبل على مزيد من انطفاء اللّهب الذي في جوفه أو الذي في سمائه.

ثمّ تأتيه تلك الحالة يزداد فيها عبوسا وانكفاء على نفسه. تبهت الألوان حتّى تلك الحمرة الداكنة التي كانت آخر صرخة الغريق وفي مثل هذه الحالة يتجهّم وجه الموجود ويتعرّى من كلّ حلله القشيبة ويقنع من الألوان بأصناف السواد ويبعث في الجسم والرّوح رعدة تغالبها بأن تكدّس على جسمك من الثياب ما يخلع وفي مثل هذه الحالة تتبعثر الكائنات أو تختفي أو تراها مسرعة إلى وكرها وكأنّها تشعر بأنّها أمام عالم انغلق على ذاته يجترّ ما يجترّ من الأفكار القاتمة وفي مثل هذه الحالة ترى القرص الذهبي نفسه ي يسرع بالغروب عن وجه عالم مقطّب الجبين وترى البحر يرتجف بردا وترى القرص الفضّيّ يخفي خجله الطبيعي وراء جبال القطن الرمادية وفي مثل هذه الحالة تفقد الأرض كلّ غلاف أو هي ترتدي في بعض الأماكن فروا أبيضا سميكا كأنّه تغطّى به عراء فاضحا.

فجأة وبدون سابق إنذار ترى البسمة تحلّ محلّ العبوس وتشاهد مشدوها تغيّر العجوز الأصلع الكئيب المتكئ على عصاه واللاّبس من الأثواب أثقلها من الألوان الأسود والرمادي.

ها هو الآن صبيّة جذلانة تدلّت جدائلها الشقر على ثيابها الزاهية الفاقعة الألوان وكأنّك تسمع قهقهتها المرحة وهي تهشّ بعصاها السحرية على الكائنات الهامدة تبعث فيها روحا جديدة.

يتحرّك فجأة كلّ من فوق المسرح وثبا وقفزا ورقصا ويتصاعد الغناء والصراخ والزعيق من كلّ مكان.

تتراقص الأضواء بقوّة. تكتسب الألوان وهجا وبريقا لم تعرفه من قبل.

يتراجع اللّون الرمادي فلا تكاد تلحظه وقد غلبته الحمرة الصافية والصفرة الفاقعة وعلامات حبور عالم تغلّب على أزمة من الاكتئاب الحادّ.

أنت لاتجهل أنّه سيعود إليها عاجلا أو آجلا لما تعرفه منه من حالات الدوران في نفس الحلقة لكنّك تريد الآن أن تنسى أن لك موعداً لا مفرّ منه يوم تراه يضع بدون سبب على وجهه قناع الحداد.

وتتمناه أن يبقى على مثل هذا المزاج لأن مزاجك مزاجه ومزاجه مزاجك لكن هيهات هيهات أن تنتظر ممن جعل الحركة دينه وديدنه أن لا يتحرّك من جديد ها هو يبدو في حالته الجديدة وكأنّه فقد السيطرة على الأعصاب والتوازن وأراه يبالغ ويسرف في ألوانه وفي بريقه وفي وهجه وفي طول نهاره.

تكتسب حركة الكائنات حينئذ نسقا متسارعا وتخالها أحيانا قد أصيبت بمسّ من الجنون. وفي مثل هذه اللّحظات يأتيك الحنين إلى نسق أرحم بالأعصاب وإلى تباطؤ

الحركة وتفهم أنّك بدأت تدخل معه في الإعداد لتلك المرحلة التي كنت لا تريد إلاّ نهايتها.

وهكذا تبقى ترتحل معه من حالة إلى حالة وأنت لا تستطيع أن تتوقف أو أن تثنيه عن خيار الدوران في نفس الحلقة.

ينالك من هذا التغيّر الدائم كثير الضيق والعنت وفي آن واحد تدرك أنّه لذة السفرة بل هو مصدر وجودها.

تتعلّم انّه لا يقبل حالة تدوم أو شكلا يتواصل. انّه طفل عجول دأب على الحركة ونفاذ الصبر لا يصل موضعا إلاّ وأراد مغادرته لا يمسك شيئا إلاّ رماه ولا رمي شيئا إلاّ استعاده في إصرار غريب انّه لا يخلق شكلا إلاّ وأضاف إليه أو سحب منه صفة.

إنّه لا يرسم لوحة إلاّ وأصرّ على أنّ فيها عيبا لا بدّ من مراجعته انّه لا يكتب قصّة إلاّ وأعاد صياغة الفصول والجمل ومكان النقط والفواصل مرارا وتكرارا وان القاعدة التي يتّبعها أنّه لا ثبات عنده إلاّ في هذا الإصرار على عدم الثبات.

تتعلّم خاصّة أن هذه الحركة هي خلقه المتواصل أي خلقك المتواصل وانه لاوجود للرّحلة إلاّ بقدر ما تتحرك انت داخل الحركة تراقص الموجود ويراقصك.

يكتئب فيتسلل إليك اكتئابه. تعود البسمة والضحكة فترقص طربا. تكتئب انت فلا يعود للعالم طعم أو مذاق. ترقص طربا فتراقصك السّماء والأرض.

وبمرور التجارب وتكاثر القصص تتعلّم من تغيّر الاسم ـ العالم أهمّ الدروس تتعلّم أنّك قادر على تحريك من يحرّكك إنّه لا يوجد إلاّ بحركتك وأنّك لا توجد وأنّه لا يوجد إلاّ عبر تغيّراته المفاجئة منها والمتباطئة.

تتّضح أولى وأهمّ قواعد الرحلة ومتطلباتها أن لا تثبت على حال أن تواكب حركة كلّ من يتحرّك أن تسبق وتلاحق أن تتفادى وتعترض أن تتصدّى وتسرع أن تتباطأ وتتخلّف أن تنتهج طريقا خاطئا وتصوّبه أن تتقدّم فيتقدّم بك الطريق المتحرّك وإن انت اخترت الموت اخترت أن تحرّكك إرادة لم تعد شريكا فيها.

انت لو أعطيت عمر الكون كلّه لما استنفذت ما تأتيه حركته الهوجاء من خلق متواصل والقاعدة أنّ منها تأتيك كلّ متعة ومنها يأتيك كلّ الهول.

* * *

الجزء الثالث

ضياعهم في العالم، معاناتهم وحاجتهم إلى الدليل.

١ - وبخصوص انك لا تتمتع بروائع العالم إن لم تدفع ضريبة المعاناة وأنها في آخر المطاف مقايضة عادلة قال الرّاوي:

هل نظرت يوما إلى القادم الجديد وهو يجيل بصره حواليه والألم صامت للحظة.

لا شكّ أنّك لاحظت مثلي أنّه كما تقول اللّغة مشدوه ومبهور.

منّ منّا لم يعرف هذا الشعور أمام الشمس والقمر أمام وجه برز بين الوجوه أمام حدث أو فكرة أو نغمة.

أتذكّر ما اجتاحتك آنذاك من مشاعر فيها ذهول ودهشة واستغراب وفيها أيضا شيء من عدم التصديق.. أيمكن أن يوجد شيء كهذا.

إنّها اللّحظة التي تكتشف فيها إلى أي مدى يستطيع الاسم - العالم أن يفاجئك ما وراء كلّ أنواع المفاجأة وأنت إبّان هذه اللّحظة التي تبقى فيها فاغرا فاك من الدهشة صامتا بالضرورة.

إنّها اللّحظة التي تجد فيها نفسك وجها لوجه مع الاسم - العالم.. اللّحظة التي تكتشف فيها أنّك حيّ عبر الانبهار أن الحيّ كائن مبهور أن الحيّ كائن مبهر أن الاسم - العالم منبهر بنفسه أنّه انبهار منغلق على ذاته وأن انبهاره هذا ناجم عن وعيه بأنّه المعجزة المتكرّرة والمعجزة التي لا ينتج عن تكرارها رتابة أو ملل.

تتحرّك الحركة وهي فوضى وهذيان فإذا بها تؤلّف اللّوحة والسمفونية والقصيدة العصماء.

يأتي الانبهار لتولّد الشيء من نقيضه لروعة ما جادت به قريحة لا زالت تبحث عن كمال داخل الكمال داخل الكمال.

تتحرّك الحركة فتصيب المرمى وهو في مستوى البعد اللاّمتناهي داخل كلّ أصناف اللاّمتوقع واللاّمحتمل فلاً ممكن.

يأتي الانبهار لتحقّق الاستحالة داخل الاستحالة.

تتحرّك الحركة وقد فقدت كلّ تماسك لتكتشف قدرتها على خلق كلّ شكل وكلّ الأشكال.

يأتي الانبهار لوجود كلّ هذه القوّة داخلها وهي لا تعلم أنّها قوّة أن لها قوّة وأنّه لا قوّة إلاّ منها وإليها.

تتحرّك الحركة ويتخلّلها الخلل والعطب فإذا بها تعيد التوازن الذي فقد تصلح كلّ خلل وتبرئ كلّ عطب وتنسج كلّ جزء تمزّق من الشبكة الشفافة.

أنظر حواليك. لن ترى إلاّ كائنات معرضّة للتبخّر في كلّ لحظة معرضّة للعطب معرّضة للوهن للضعف للإنكسار زجاج ملوّن فاخر صنعه فنّان عبقري تناثر على الأرض قطعا.

تأمل مليّا الشبكة التي نسجها في كلّ اتّجاه. ستبدو لك رقيقة رقّة أشعّة النور خفيفة خفّة نسيم عليل شفّافة وكأنّها لم تقد من مادّة ميّادة تتمايل تحت وقع رياح غير منظورة ولا تفاجأ وانت ترى أجزاء منها تتفتّت وأخرى تنطفئ وثالثة تختفي وكأنها لم تكن.

انّك تجرّب هشاشة الاسم ـ العالم في كلّ ثانية ولحظة وهي هشاشة وجوده والنظام الذي اتّخذه وهي ليست خاصّيتك انت كمركز للعالم وإنّما خاصية كلّ ما يدور حولك وفي فلكك من أشياء وكائنات.

إنّها من خصائص الشمس والقمر والغطاء الصلب الذي تتحرّك فوقه الكائنات وجحافل الآدميين وما ينونه فوقها من امبراطوريات وحضارات وما يأتون به من حقائق وأحلام. تفرض الحركة أن بإمكان الحدث أن يتوقّف أن ينقلب على ذاته أن ينهار على نفسه أن يتبخر أن يتّخذ له اتّجاها آخر أن يتفكّك أن ينحلّ أن يتجزأ أن يصاب بألف عطب وعطب وأن يحدث كلّ هذا فجأة بسابق إنذار أو بدونه.

وقد تكره الهشاشة وقد تسمّم عليك الرحلة وقد تحاول تخّطيها وإنكارها وقد تحاربها بكلّ ما أوتيت من قوّة التوهّم والإنكار وقد تروم التحصّن وراء ألف قلعة وأن تلفّ حولك ألف درع ودرع. عبثا ها قد تهاوت القلاع وها العدم يتسلّل من ثقوب كلّ الدروع ليمتصّ الاسم ـ العالم كما يمتصّ دراكولا دم العذارى.

تمرّ الرّحلة وانت تستعرض بالضرورة آثار زائل قد زال أو آثار زائل سيزول.

الأمر دوما هو: قد لا يكون هناك شيء بعد هذه الفاصلة. عليك أن تسرع لكي لا تفوّت ما قد يولّي بظهره وانت تبرمجه لغد هو الآخر قد يولّي لك ظهره إلى الأبد. يتّضح أنّ كلّ اللّحظات تتساوى كلّها على قدرة الانفتاح على الهاوية إن تنزل سلم الزمان ترمي قدما على درج ثم ترمي الآخر على درج قد يوجد وقد لا يكون في الموعد.

تبقى الهشاشة هذه النّقمة الشّرط الضروري لكي تكون النّعمة الكبرى: التجدّد والخلق المتواصل.

تصوّر عالما صلبا جامدا متكلّسا لا يحدث فيه طارئ ولا تحرّكه المفاجأة. ألن يكون عالما بليدا ركيكا ثقيل الظلّ لا تجرب منه ولا تعرف عنه إلاّ مللا لا حدود له.

إن قوّة الموجود الحقيقيّة في تلك القدرة الفائقة التي يبديها على تطويق كلّ ضعف على إصلاح كلّ عطب يلحق بالشبكة المتأرجحة بين الكينونة واللاّكينونة على الثبات والدوام والتواصل في الخلق على قهر كلّ يأس وكلّ إرادة النكوص على الأعقاب على التغلّب على أفدح أنواع الخسارة على التجدّد الدائم على الثبات على أمل لا ينطفئ.

يأتي الانبهار أمام هذه الإرادة التي لا تدرك نفسها إرادة.

أجاهد ضدّ حدودي وحدود اللّغة لأبلور أفكارا مبهمة.

إن ارتحالك في الموجود كتنقّل رقّاص يمسح نصف دّائرة من أقصاها إلى أقصاها الآخر ثبّتت عليها كلّ الممكن من الحالات الحسّيّة الشعوريّة التي تسمح بها استعدادتنا الآدميّة والرّحلة ليست أن تكتشف عالما مخلوقا من المكان والزمان وإنّما أن تتجوّل عبر حالات يخلقها تفاعلك وتداخلك مع الموجود في شتّى تمظهراته ومنها تلك التي يلبسها وهو مكان وزمان.

هي أن تجرّب ما معنى التجلّي آدميّا وآدمية التجلّي أن تعرف الأحاسيس والمشاعر والأفكار التي لاتأتي الموجود وهو في شكلك آدمي التمظهر.

عبثا تحاول أن توقّف الرّقاص عند حالة لايفارقها اسمها السّعادة أو الطمأنينة أو اليقين وعبثا ترهب أن لا يخرج بك الرقّاص يوما من حالة اسمها الحزن وأخري اسمها القرف.

والحالة القصوى التي ينطلق ويعود إليها الرقّاص هي الانبهار والحالة القصوى في الاتّجاه المعاكس التي ينطلق ويعود إليها هي الرّعب وما بينهما كلّ ما تعرف من أشكالهما وتدرّجهما.

ومن الرّعب تعرف كل الأشكال والألوان إلاّ أنّ ما تجرب من أصنافه حالة وسطيّة تتوسّط مساحة كبرى من تلك التي يمسحها الرقّاص وهو بين طلوع ونزول وتسمّيها اللّغة ألما.

ولقد عبرت أغلب حالات الرحلة زمانا ومكانا ولم أر الحيّ إلاّ والألم مصاحبه.

نحن أمام وفي عالم موجوع مكدوم يئنّ من أخمص قدميه إلى مفرق الشعر استحكم داخله ألم من كلّ الأنواع ومن كلّ الدرجات... ألم متجدّد سرمدي لا نهاية له ولا بداية.

هل الموجود «كائن» منفتح على كلّ تمظهراته وهو ماقد يعني أن كائنات حاسّة موجودة في أعماق فضاء ذلك الكون تتألم لأنّ طفلا وخز بإبرة هنا على سطح هذه الأرض. ترعبني هذه الفكرة لأنها تجعل منيّ ومنك نقطة الالتقاء والتواصل التي تتجمّع فيها آلام الكينونة.

هل وضع على العكس الحدود بين حالاته وأقنعته ليمنع تسرّب الألم من جزء إلى وهل أنّ الكثرة التي تصلك أحيانا مهرّبات أفلتت من رقابة الجمارك وهل هو في هذا السّيناريو تعذب فيك وفي كلّ كائن حيّ على حدة لا يمزج بين مختلف المكوّنات لئلا يصيبنا ويصيبه الجنون.

وقد يكون هذا ما ارتآه حلاّ إذ من أين لي ولك أن نتحمّل ألم موجود بأسره ونحن ننوّ بعبء ألم وجودنا.

والألم شغلنا الشّاغل أولى إشكاليتنا ومصاعبنا من الدّخول إلى الخروج.

يصاحبك منذ الأفاقة الأولى إلى الخروج من الركح معملا أنيابه المعقوفة فيك كالكلب الذي لا يريد أن يفارق ذراعك. عبثا تحاول أن تهرب منه وأنت لا تجني من محاربته إلاّ نوعا آخر منه باسم آخر وتحت قناع آخر.

رأيت اللّغة تبحث له عن ألف وصف ووصف. رأيت الشعراء يتغنّون به يعاتبونه ويتمرّغون على أعتابه. رأيت الأنبياء يهشّون عليه كما يهشّ الراعي على ذئب بأنياب معقوفة. رأيت المفكرّين يبحثون له عن تفسير وعن تبرير ورأيت أطبّاء الجسم والرّوح يبحثون له عن علاج. رأيت من يتخيّل عالما لا مكان فيه لشيء بهذا الاسم ولقد نلت منه نصيبي وكنت سببا في نصيب منه من أين أدري ولا أدري ولي عنه حديث مطوّل عندما يحين الوقت.

هو أيضا موجود بالضّرورة كإحدى ترتّبات ديناميكية الموجود وحركيته التي تأتيك بالانبهار.

إنّه الوجه الآخر للحركة وبلغة التفسير والتبرير هو ثمنها الطبيعي...

تتحرّك الحركة لتتجدّد فيأتي الألم ثمنا.

تتحرّك الحركة لتكتسب شكلا جديدا فيأتي الألم ضريبة.

تتحرّك الحركة وتخطئ المرمى فيأتي الألم إنذارا.

تتحرّك الحركة وتمعن في الخطأ فيأتي الألم عقابا.

هذا يعني أن الاسم ـ العالم رقيق شفّاف حسّاس سهل العطب أنّه يمرّ من عطب إلى آخر من محنة إلى أخرى أنّه لا يصيب المرمي في كل حركة أنّ قدمه تزلّ ولسانه يعرف

التأتأة أنه يخطئ وَ يمعن في الخطأ وأنّ لتجدّده ثمنا وضريبة أنه يجرّب إنّه كامل غير كامل أنّه ناقص غير ناقص.

تجري لذلك عبثا عن حالة طالما بحث عنها بنو سفر تتصوّر أنّك إن تنسحب داخلها وضعت الأقفال والحواجز وسلمت من عضّته. تبقى من الدخول إلى الخروج كلّ مسام الجسد والروح مفاتيح البيانو وأوتار العود التي تعزف عليها يده دون توقّف وكأن لا همّ للعالم إلاّ نخز الجسم الروح.

هكذا قدّر علي وقدّر عليك أن نمشي في دروب الموجود نئنّ ألما ونصرخ بصراخ الدّهشة واللّذة تتقاذفنا حالات من مشاعر وأفكار متواصلة متداخلة تحتدّ وتهدأ تنطلق من أقصى الرّعب إلى أقصى الانبهار.

يتواصل الاستكشاف يحرّكك سوط الألم والجري وراء الإنبهار وانت عاجز دوما عن التموقع الصحيح زمانا ومكانا وأبقى مصرّا على أن أعرف مكاني في سلسلة الأحياء ومكاني في الكون وشعوري يتعاظم يوما بعد يوم انّه لا نهاية ولامعنى للمحاولة.

* * *

٢ - وبخصوص أنّ العالم يواجهك بالإغراء والصدّ وأنّه لا ينفكّ يقيم أمامك الصّعوبات والعراقيل وان أولى خصائصه الخطورة قال الرّاوي:

تكتشف سريعا إذا أن هذا العالم الرّائع عالم مريع.. مريع التعقيد مريع الاكتظاظ مريع الاتّساع. يهالك أن اتّساعه لا زال متّسعا والامتداد لا زال ممتدّا مهما مشيت فوق الأرض أو طرت في السّماء. ينقر الموجود الفنّان فيك على وتر اسمه الرّهبة وآخر اسمه الرّغبة.

إنّه نموذج ومرجع كلّ غادة لعوب أكانت من إناثي الآدميين أو غير الآدميين. أليس هو الذي يعلّمهن كيف أن الصدّ دعوة وأنّ كل دعوة يجب أن يرافقها الصدّ.

هكذا تسافر شئت أم أبيت مدفوعا محمولا بقوى مجهولة تتفتح أمامك الطرق والعلامات لتكتشف ما وراء الحائط ثم ما وراء الأكمة ثمّ ما وراء الجبل ثمّ ما وراء البحار جريا وراء صورتك في مرآة عالم متقلّب.

تتعلّم اعتبار بعض خصائص العالم العابرة من بديهيات الرّحلة ومسلّماتها. هكذا تتعوّد على أنّ البسيطة بالضرورة متماسكة صلبة منبسطة ' أنها تهب دون مقابل الديكور والمتفرّجين صبورة إلى أبعد حدود الصبر تجاه المبتدئين أنّها متسامحة مع من يخطئ مخارج الألفاظ أو يلحن في هذا المقطع أو ذاك من الإلقاء أنها تعدّ لكلّ تمثيلية ولكلّ سيناريو ما يتلاءم من ألوان وإضاءة ومختلف المستلزمات أنها تفتح أمام جياد الأبطال المسافات الشاسعة للركض أنها تثبّت الأدغال والإحراش والغابات أين يجب أن تروي قصص الصيد والخديعة أنها تبسط الفيافي والقفار للمرتحلين داخل حلم اسمه قافلة الليل. أنها لا تنفكّ تتزيّن لك وهي ترتدي حلّة الربيع القشبية أو هي تلبس مسوح الرهبنة عندما يطؤها الخريف أو هي تضع على جسدها المكشوف خرق الصيف الملوّنة أوهي تفتعل الكآبة والتجرّد وقد عرّاها الشّتاء من كلّ لون فاقع.

حذار فللعالم دوما شكلا باسما وشكلا مكشّرا لنفس القناع.

تبدو لك البسيطة سهلة الولوج لكنّ قدرك أن ترتطم بكلّ العوائق والحواجز التي تضعها أمامك وما أكثرها.

يقف بك الطريق فجأة أمام تراكم الصلب وقد اتّخذ له اتّجاها إلى الأعلى وكأنّه ملّ الانبساط وعاف الامتداد.

تجد نفسك وجها لوجه مع حاجز مانع يحجب عنك الرؤية فتضع الخطوة فوق الخطوة تريد استعادة الانبساط وامتداد النظر.

ها قد تعالت الحدبة إلى عنان السماء لتصبح مواجهتها جزءا من مغامرة ورحلة داخل الألم والرهبة. هي آنذاك تمتحن فيك طاقة الإقدام وطاقة الأقدام تدعوك أن تتعالى وعلى قمّة الحدبة ينتظرك الاسم - العالم وقد وضع على وجهه قناعا جديدا.

وفي أعلى تجعّد وعلى قمّة الحدبة تجد نفسك وجها لوجها مع القبّة التي وضعت على البساط الصلب وكأنّها جعلت لتحميها من شرور وآثام قادمة من كلّ حدب وصوب وبين القبّة والبساط الصلب فضاء لا قبل لك بولوجه كما انت فهو كسهول الماء جزء محظور محرّم صعب ممتنع يستنفر فيك مشاعر الرهبة والخوف والفضول اللّذيذ.

هي تضع أمام خطاك أحيانا شرايينها تلك التي يتسارع داخلها السائل المقدّس وقد تضيق فتعبرها قافزا وقد تتّسع فلا ترى أين تستعيد البسيطة موقعها ولا يبقى عليك إلاّ أن تستنجد بما اكتشف من سبقوك من الرحّالة من وسائل لعبور العقبة.

ومن إمكانيات الطّريق أن يصل بك إلى نفق... إلى هاوية فوقها جسر مشبوه... إلى باب موصد.. إلى سرداب يأخذك إلى جوف الأرض.

آن الأوان لأن تضع أمامك البسيطة صحاريها الصفر بحرّها المفرط أو البيض بصقيعها المبالغ فيه أو أن تقيم في وجهك سدّا من تلك الكائنات الغريبة السّاكنة المتلاصقة بكثافة مخنقة والتي تسمّيها اللّغة غابات.

تجد نفسك يوما إن واصلت المسير فجأة أمام سهول مترامية لا يحيط بها البصر كأنّ أياد لعمالقة حفرتها في عمق الصّلب وملأتها بالمياه.

وأنت إن وضعت القدم على هذا السهل تريد عبوره رفض حملك لفظك وأبتلعك فتعود هاربا إلى المألوف ملتجئا إلى متانته.

تبدو كلّ العراقيل من هذا النّوع كلا شيء بالمقارنة إلى الأخطار الحقيقية.

لكم ستفاجأ بالحدود الواضحة وغير المنظورة التي تضعها أمام أنفك البسيطة ترتطم بها أينما ولّيت وجهك.

يخيّل إليك أنّ عالم الرّحلة فضاء مفتوح يعبره البصر سراعا لا يتوقّف إلاّ عند خطّ الأفق تحسب خطأ أنّك تستطيع أن تتقدّم ولا ما يمنع غير ما تعرفه من دلال البسيطة وتمنّعها.

ينطلق الطريق الذي قرّرت انتهاجه تتابعه إلى مدى فإذا به يتعرّج يهبط ويصعد ليرتطم دوما بكائن أو بكائنات هي أخطر وأهمّ ما في الرّحلة.

تتابع المخلوقات الملتصقة بظهر البسيطة على حافتي الطريق فلا تستطيع لها عدّا أو وصفا.

لا تحبّ البسيطة الفراغ ولو كان فراغ تلك المجاهل المقفرة ذات اللّون الأصفر.

إنّها الأمّ المرضعة التي تحمل على ظهرها وبين نهديها وعلى عنقها وعلى كلّ جزء مهما صغر من جسمها المقدّس أطفالاً شرسين متزاحمين علي لبنها الدافئ الرقراق وهي لا تبخل بشيء من جسمها أو من روحها تهب نفسها دون تحفّظ أو بخل.

وكأنّ الكائنات تدرك منها هذا الضعف فإذا بها تزحف من كلّ مكان قصيّ لا همّ لها إلاّ احتلال أبعد وأصغر جزء من جسمها المترامي الأطراف.

تملأ الكائنات الاتّساع وتحتلّ الامتداد لا همّ لها إلاّ ملء كلّ فراغ مهما علا وتباعد وانخفض أو شرّق أو غرّب لكلّ واحد منها قطعة اقتطعها وجزء خصّ به نفسه وطوّقه بالأسوار والأسلاك الشائكة وأبراج المراقبة والعسس وما تيسّر له من أصناف السلاح.

انت الآن مواجه بألف حدّ وحاجز وعائق يفصّل البسيطة إلى أعداد لا نهاية لها من القطع المجزّأة المفكّكة المتناثرة وقد احتمت كلّ واحدة منها بألف درع ودرع تخفي حدودا وأسرارا ممنوعة وقصصا محرّمة.

تضيع في الزحمة وانت وحيد تشقّ لك طريقا بين جحافل هذه الكائنات المنتصبة الصامتة المتماسكة الحاملة على قممها هامات كأنّها شعر ملبّد كثيف لوّن بالأخضر وقد تضلّ طريقك وهو يلّف بك ويدور بين الجدران المتماسكة المتعانقة المنتصبة تغلق عليك المنافذ وتفتحها تقسّم البسيطة إلى آلاف الشظايا المحاصرة.

تشعر بالاختناق وانت تتجاوز حائطا ليقف في وجهك حائط وقد تحنّ إلى امتدادها والعين لا تكتشف حاجزا واحدا بينك وبين ذلك الخيط الرفيع الذي تتلاقى فيه حدودها مع حدود القبّة الموضوعة فوقها.

يصرّ الطّفل أن يذهب بعيدا ليكتشف الفضاءات الرحبة التي طالما سمع عنها.

حذار فوراء تلك الأكمة الصامتة الجامدة كائن غيور وفي أعماق الصلب كذلك كائن غيّور وإن أنت رفعت حجرة صمّاء بالصّدفة تكتشف أنّ ما تحتها قطعة حرام يتوسّطها كائن غيّور.

تمشي أمامك قدما فترتطم بحائط سميك وتفهم دون أن تعي أنّك ستواجه خطرا محدقا إن انت حاولت القفز من فوقه لتدخل فضاءا يتوسّطه كائن غيّور... تتراجع وتولّي ظهرك للحائط لترتطم بأسلاك شائكة ثم تبقى أغلب الوقت تمشي وحواليك صناديق متراكمة متراصفة من الإسمنت متفاوتة الكبر والبشاعة وكلّها فضاءات مغلقة محرّمة لا تدخلها إلاّ في ظروف وحسب طقوس بإذن من الكائنات الغيورة التي تتوسّطها.

يتجمّع الآدميون وفق قواعد وأهواء ليقتصوا من الأرض جزءا يسمّونه وطنا ومدنا وقرى يخصّون بها أنفسهم من دون الكائنات الأخرى يدّعون أنّهم تملكوا من عليها ومن فوقها.

إنّ هذه الحواجز التي تقيمها الكائنات أتجمّعت أو تفرّدت أكانت من جنسك أو من آلاف وآلاف الأجناس الأخرى من المرتحلين هي من المصاعب الرئيسية للرحلة.

وهكذا حكم على أغلب روّاد الاسم ـ العالم أن يشقّوا لهم الطريق طوال حجّهم داخل وخارج وعبر الفضاءات المفتوحة المغلقة يقضون العمر وهم يتبعون ثنايا متعرّجة ملتوية لا همّ إلاّ تفادي هذا الحائط وذلك الغار لا همّ لهم إلاّ اكتشاف المسالك التي يسمح بالتوغّل فيها ويتوفّر فيها الحدّ الأدنى من الأمان.

إنّ أكبر رحّالة من يدعوه الفضاء فيقضّي العمر يثب من حاجز إلى عقبة يرتطم بحدّ ويراوده يقف عند سدّ ويطوّقه يتقدّم ليتراجع لأنه سقط في كمين أو لأنّه دخل مغامرا أو عن طريق الخطأ عرين كائن غيور.

قلّما يكون الفضاء فاتح الذراعين مبتسما لا يبغي إلاّ رضاءك. أليس ككلّ مفتوح محكم الغلق وهو من طول ممارسته لكلّ عابري السبيل قد ملّ التزاحم ونفس الطموح التافه لامتلاكه.

هو يلقاك إذن متجهّما يثير فيك مشاعر مبهمة غامضة لا ترتاح إليها أو انت بحاجة إلى كثير من الوقت لتتراجع تلك المشاعر ثم لتدخل معه في علاقة أرقّ وألطف. إن لكلّ مسافر حصيلته من هذه التجارب ولأنّها واحدة وإن تباينت في كلّ التفاصيل فهل لي بمحاولة استقراء ذاكرتك انت الذي تقرأ هذه الكلمات تبحث عن صديق وعن قصّة عن وصفة عن تفسير عن تبرير وعن شيء ما يشدّ أزرك وقد ضاعت معالم الطريق أو بدأت مشارف انتهائه تلوح في الأفق.

لا بدّ أن في ذاكرتك فضاء مغلقاً. لا بدّ أن هذا الفضاء المغلق كان موجودا في فضاء أوسع ومغلق هو الآخر وأنّك تعلمت أن وراءه عالم أهوج وخطير. لا بدّ أنّك تعودّت على الكائنات التي تملأ هذا الفضاء الذي شكّل عند دخولك كلّ الاسم ـ العالم أو أهمّ ما فيه.

لا بدّ أنّك تذكر المكان المطوّق الذي كان الوطن الأوّل وأنّه كان يتوسّطه كائنان غيوران بسطا عليك الحماية فيه إنّك لم تستطع يوما أن تمحي من الذاكرة ألوانه وروائحه وشكله لأنّك أخذت فيه الدروس الأولى في معنى اللذة والألم... تلك الدروس التي لا تمحي.

لا شك أنّك شعرت به يحضنك ويحميك من أخطار مبهمة المعالم والنوايا أنّه يجذبك ويمنعك من مغادرته ولا شك أنّك شعرت بكلّ الفضاءات المرمية بسخاء رهيب خارج الحدود تدعوك فلا تستطيع لها رفضا.

إنّها مشاعر لذيذة دافئة لا يثيرها فيك إلا هو وقد توسّطه الكائنان الغيوران المكلّفان بالسهر على شؤونك الخاصّة، إنّك في آخر المطاف لا تتصوّر نفسك إلاّ مرتبطا بهذه القطعة من الاسم ـ العالم وستبقى دوما ذكراها عالقة بالعملاقين اللذين اكتشفت وجودهما قبل كلّ الممثّلين الآخرين.

لقد ارتبطت مع هذه القطعة من الكون بعلاقات تستعصي على الفكّ. هي علمّتك

شعورا سمّته لغة الكلمات: الطمأنينة.

يأتي اليوم الذي تخرج فيه لاكتشاف ما تمنعه البسيطة. يصعب دوما البقاء وتصعب المغادرة.

تفاجئك الأرض خارج الحدود المألوفة بقناعها المعهود بعزف على مفاتيح وأوتار وآلات أوركسترا لتستخرج تلك المشاعر المضطربة المزعجة التي يسميها بنو سفر الرهبة والوحشة والغرابة. إن ما يكتشفه بسرعة كلّ عابر سبيل بعبر الاسم ـ العالم وطئ البسيطة أو غاص في أعماق البراري السائلة التي تحملها أو حلق في فضاء القبّة التي ترفع أركانها أن له أدوارا موضوعة. هو لا يمكن أن يقفز فوق أي واحد منها ومن أهمّها السائح الفضولي والمكتشف المقدام والحاج المتنسّك والطريدة الصيّاد.

يكتشف كلّ كائن أن أخطر الأدوار وأصعبها هو دور الطريدة ـ الصياد.

لا أحد يدري لماذا أراد الموجود أن يكون آكلا ومأكولا لا يقبل أن يرضى بغير نفسه طعاما لذاته. لا يسلم أحد من هذا الدّور المفروض.

خذ أودع الممثلين بهدوئه الظاهري وبراءته وجمال عينيه وأناقة جسمه الأهيف ذلك الجسم المعدّ لأنياب الليوث إنّه الطريدة المثلى لكنه هو الآخر صيّاد يفترس بوحشية بريئة تلك الكائنات المتواضعة الملتصقة بالثرى لا تصيّد إلاّ ذرّات ويبدو أنّها لا تئن عندما تطحن أجزائها.

خذ الآن ذلك الكائن المرعب الذي طالما أرهبتك به جدّة عجوز في قصص كنت لا تكفّ عن المطالبة بالمزيد منها. إنّه هو الذي سيقضم عنق الكائن الوديع البريء المستقيم على قوائمه الأربع يسلمها للرّيح رعبا وهلعا كلّما تحرّكت نسمة. هو الآخر معدّ للصيد والقتل يترصّده أحد من بني جلدتك ليفترش جلده أو ليعلّق رأسه بكلّ فخر واعتزاز في أجمل مكان من الفضاء المغلق الشاهق الأسوار الذي يؤوب إليه يختبئ فيه عند رجوع الظلام.

يعلم الصيّاد الآدمي في قرارة نفسه أنه وإن كان صيّادا ماهرا طريدة تترصّد بها آلاف الكائنات منها تلك التي سكنت جسمه على غير استئذان واقتسمته بينها لأنّه الصلب الذي اختارت والثرى الذي جعلته مصدرا للغذاء والراحة والأمان ومنها تلك المختبئة وراء كلّ أكمة تختلف في الشكل والقوّة وتتفق في جريها وراءه وأخطرها على الإطلاق بنو جنسه وكلّهم أنياب معقوفة وأظافر مقلّمة اطمعوا في الكثير منه أم في القليل.

تنظر إلى البسيطة فلا ترى إلاّ امتدادها أو تلك التضاريس والتجعّدات تلك البقع المختلفة الألوان الدّالة على خصبها أو عقمها على ألفتها أو تجهّمها على امتلائها أو فراغها بالكائنات.

أزل عنها هذا القناع لترى بعين المخيلة ذلك العدد الذي لم يحصه أحد من الفضاءات التي تخترقها خيوط وهمية تحدّها من كلّ حدب وصوب وتصوّر تداخلها وتقاطعها. أنّها فضاءات الصيد والتقتيل كلّ كائن عليها هو وقف على كائن آخر يتغذّى به يغذّى كائنا آخر وهكذا دواليك.

ترسم حدود فضاء الصيد الامتداد الذي تركض فيه الكائنات هربا من الصيّاد أو جريا وراء الطريدة. ترسم أيضا القسمة والنصيب الذي وهبه عالم شحيح بخيل لكائنات لا حدّ لرغباتها وشهواتها وحاجياتها ترتع فيه وتبحث عن أسباب وسرّ وجودها.

* * *

إنّ إحدى مصاعب الرحلة ما يتعرّض له المسافر وهو يخترق كلّ هذه الفضاءات طريدة وصيّادا فالأخطار أمامه والأخطار وراءه والأخطار تجانبه يمنة وتجاذبه يسرة تظلله وتتّبع خطاه من تحت الثرى الذي يمشي ومن فوقه.

هكذا تمرّ الرحلة والحاجّ المحارب يصارع يمنة ويسرة يحفظ ظهره وظهر من معه من الأنياب والمخالب والعيون والألسن والأيدي يشقّ طريقه بين كلّ هذه المحمّيات وهي في حرب ضروس بينها لا تضع أوزارها لحظة وتتخذ لها من الحدّة والأشكال ما لا طاقة لقصّاص مبتدئ ومحدود الوقت والعمر مثلي أن يرويها.

تبقى كلّ الفضاءات الأخرى تتلاطم وتتكسر كأمواج المحيط على تلك الجزر والقلاع التي اقتطعتها لنفسك طامعا في بقاء زائل وملكية آيلة وطمأنينة لا تنتهي إلاّ إلى ملل مستديم أو عودة الصخب.

إنّك بحاجة إلى هذه القواعد التي تنطلق منها كلّ مرّة تعود حتّى إلى أطلالها أحيانا لأنّك لا تستطيع مواجهة وحشة الاسم - العالم وغرابته ولا همومه وأخطاره بصفة مستمرّة.

هو خارج هذه القلاع الوهميّة وهذه الممتلكات المرهونة صخب وصراخ وامتلاء وفيض وزحمة وتغيّر لذلك تراك تحاول أن تخلق من الفضاءات القليلة المغزّوة مناطق صمت وثبات وفراغ وألفة وأمان.

إن قراءة جغرافية في رحلتك مثلا شتثبت أنّك كنت تغادر مكانا مروّضا حاميا ومحمّيا لتبني في الامتداد والأتساع مكانا آخر يوفّر نفس الشروط وأنّك كنت تضطرّ مكرها أو عن فضول جارف إلى اتّخاذ طريق في عتمة المجهول لا همّ لك إلاّ الوصول إلى بقعة تحوطها وتبني حولها الحيطان وأبراج المراقبة لتعود من جديد إلى تلك المشاعر الهادئة المهدئة تتوسّط لاهثا أي إلى المكان الذي غزوته واقتطعته من كائن غيور ومن عالم غيور.

هكذا تبقى ككلّ مسافر تجوب الطرقات المودّية من مكان مروّض إلى مكان آخر لا يقلّ ألفة ووداعة.

تغلق الكائنات فضاءاتها بمفاتيح وهمية وتسوّرها بحيطان خيالية وتضع على أبراجها المصنوعة من السراب عسسا مصابين بالهلواس.

هي تفعل كلّ هذا إذ لا خيار لها. إن الفضاء المغلق على استحالة غلقه هو المحمية

الحامية الذي تتحرّك داخلها الكائنات وقد احتمت بأبناء جنسها لتدرأ عنها خطرا قاتلا لينيم فيها الخوف وهم أحكام الإغلاق وصلابة الإقفال ويقظة العسس وشجاعتهم.

لكنّها حدود وهميةّ لأنّها رهينة صراع لا يفتر.

تتداخل الفضاءات والكائنات الغيورة في صراع لاينتهي. يتخيل الآدمي أنه اقتطع من جسد الأمّ قطعته وفي الوقت الذي يحرّم فضاءه هذا على سائر بني جلدته غير الذين ارتضاهم. ترى فضاءه هذا قد احتلّه ألف كائن وكائن وكلّ له جزؤه داخل الجزء داخل الجزء وكلّ يتوهّم أنه امتلك من الأمّ شيئا وهو عابر سبيل ومتسوّغ ذرّة من مكانها وذرّة من زمان الاسم ـ العالم.

بداهة يعاني هذا الاسم ـ العالم على اتّساعه من أزمة سكن مزمنة وخانقة.

انت لا تدخل فضاءا محرّما إلا وخاطرت بشيء قد يكون الحياة نفسها. إنّ أغلب وقت الرحلة يمرّ في التعرّف على الحدود في تحديد الحواجز المرئية منها وغير المنظورة في تعلّم تطويقها أو اختراقها أو تفاديها في التسلّل عبرها ومن خلالها في تعلّم الحركات والسكنات والقواعد التي تمكن من اختراق فضاء يتوسّطه ألف كائن غيور دون أن تسقط مضرّجا بدمائك.

يعلم كلّ كائن بالسليقة أن وجوده وصولا وتواصلا مرتبط بما يقتطعه ويستخرجه من البسيطة المغذّية المرضعة الحامية المطمئنة المثوى والمرقد الأخير.

لقد جزّأت الفضاء أيضا كما فعلت وسكنت البعض منه كما تسكنه كلّ الكائنات أتوسّطه وأتمركز فيه وأجعل منه محور الاسم ـ العالم ومركز ثقله.

حتّمت ظروف الرحلة عليّ مثلما حتّمت عليك أن ألبس المكان تلو المكان وأخلعه وأن يستضيفني ويلفظني هو الآخر. لا أضع في كلّ مرّة رجلي إلا وكان همّي من الأول أن أروّضه كما يروّض السبع.

يحملك المكان وتحمله معك أينما ولّيت وجهك وأين طوّحت بك الأقدار مثلك كمثل السلحفاة التي تتجوّل وسقف بيتها فوق رأسها.

أنّني أذكر سلسلة من الأماكن التي توسّطتها وأنا أظنّها ملكي على امتداد الزمان أظنّها قطعة مني وأظنّ نفسي قطعة منها.

أعود إلى البعض منها أحيانا بالذّاكرة أو بالقدمين فيتملّكني حزن خفيف لا أدري له دفعا. هي الآن تحتضن غيري من الكائنات ولا أظنّ أنّها حفظت شيئا من مروري عبرها وأخجل أن أتصوّرها تضحك من سذاجتي عندما تصوّرت أنّها أسلمت لي يوما قيادها.

وممّا أذكره شارع مغبّر منازل من الطين أشجار عجفاء من الزيتون وحولهم على امتداد البصر.... المجهول.

وممّا أذكره بيت من الحجارة بغرفتين وبهو كئيب في شارع يمتلئ ماءا وطينا أيام

الفيضان وحوله غابات الزيتون وممّا أذكره بيت على وشك التداعي والسقوط بالقرب من سكّة حديدية وأنّه كان يرتعش بكلّ حيطانه والقطار الأسود المصفّر يمرّ كالعاصفة من أمامه ومن حوله منازل بيضاء وشوارع ضيّقة أذكر أن القرية كانت تمتدّ من سفح جبل لطيف أبحث فيه أيّام الرّبيع عن وردة حمراء يسميها لسان أطفال البلدة «سيكلامان» إلى شواطئ بحر كان يجذبني إليه دوما حبّ جارف.

وممّا أذكره منزل أيضا بطابقين وأنّه كان أمامه بستان تفوح منه ليلا روائح مسكرة للياسمين وأنّه كان على ربوة مدينة بيضاء تطلّ على مضيق وأنّ وراء المضيق هناك قارّة بأكملها اسمها «أوروبا».

وأذكر أنّني كنت أجلس إلى صخرة قرب هذه الدّار وأنّني كنت أرقب ليلا تراقص أنوار تلك القارّة المجهولة الملفوفة في الغرابة وأذكر أنّني دخلتها حذرا وجلا وأنّني توسّطت فيها أكثر من مكان مغلق أجدّد فيه قواي لمتابعة الاستكشاف.

أذكر أنّني رأيت من نافذة إحدى هذه الأمكنة بيوتا حزينة اللّون بنيت سطوحها من حجر أحمر وأنّني رأيت مشدوها برجا ضخما يناطح السماء في شكل كتدارئية عملاقة وأنّني كنت أسمع منه طول الوقت قرع الأجراس خاصّة صباح يوم كان يطيب لي المكوث فيه تحت غطاء دافئ.

وأذكر أماكن أخرى كثيرة أقلّ وضوحا في مخيلتي وهي تلك التي تدخلها ليالي معدودات وانت تبحث عن صور جديدة للعالم في إطار تنقّل مضطرب تجري وراء الأحداث وتجري وراءك هي بدورها. وأذكر أنّها كانت أمكنة ضيّقة وأنّها كانت دوما من نفس الشكل وأنّك كنت تدخلها بعد أن خرج منها الآلاف وأنّك كنت تشعر بها باردة غير مبالية بوجودك ولا شكّ أنّك كنت تخرج منها غير آسف عليها وأنّك كنت تسارع لنسيانها كما تنسى مغامرة مع عابرة سبيل.

أذكر مكانا توسّطته مكرها وكان ضيّقا خانقا موحشا مغلقا كالقبر وأنّ الشمس لم تكن تعرف له طريقا وأنّه كان مضاء ليلا نهارا وأنّني كنت أضع على عينيّ قميصا أهرب من ذلك الضوء اللّعين وأذكر ساحة مربّعة على السطوح كانوا يأخذوني إليها مرّتين في اليوم وكم كان رائعا ذلك الجزء من السّماء الذي كان فوقها والذي كان يذكّرني بأن هناك وراء الجدران العالية لهذا المكان الموحش عالم فيه أحياء ليسوا أمواتا.

إنّني أستطيع أن أعدّد إلى ما لا نهاية أماكن عبرتها مسرعا أو مكثت فيها ردحا من الزمن لأكتشف بني جنسي لأتعامل معهم وأتعلّم منهم وأروي لهم ما أعرف من قصص ومن تجارب الرّحلة.

ها أنا اليوم بعد أن مرّ أكثر من الزمن المحدّد للرّحلة في آخر ملجأ أتوسّطه كما يتوسّط كلّ كائن مكانا مؤقتا إقتطعه من الموجود ليستجمع فيه قواه.

أنظر أطالبه أن يبوح لي بالسرّ فلا يجيبني إلاّ صدى أفكاري ومخاوفي.

لقد اقتطعت ترابه بإذن وبتراخيص من جحافل المسافرين التي تدّعي لها ملكيّة على الأرض وفق طقوس ومراسيم قد أعود إليها عند حديثي عن الآدميين الذين يملؤون هذا الفضاء والذين أحاول جاهدا نسيانهم لأتوقّف عند المعالم الأولى واللبنات الأساسية التي بنيت بها عالمي.

لقد بنيت حوله سورا وأقمت في وسطه جدرانا وفتحت فيها منافذ وسارعت إلى إغلاقها بالمفاتيح ثمّ قسمّت ما بين الحيطان إلى وظائف ومصالح وملأت جلّ فراغه بأشياء وأدوات وآلات متفاوتة القبح والغرابة تأتمر بأوامري بغباء وتعصيها كلّما سنحت الفرصة وهي بذلك لا تفقه ولا تعرف ولا تحاورني لتقول لي من هي ومن أنا بالنسبة إليها.

وفي وسط كلّ هذا وبعيدا عن كلّ عين أعددت لنفسي عالما خاصّا لا يقبل سواي أمدا طويلا أؤوب إليه من كلّ إرهاق وصداع أحتمي به كما يحتمي الطفل بذراعي المرأة أمّه.

وفيه غرفة مستطيلة.

طاولة ببقع الحبر وبقايا بري أقلام الرصاص.... كتب. كتب. كتب أي قصص لا عدّ لها ولا حصر تروي ما شاهده أجيال من الرّحالة وما اعتقدوه.

آلة سوداء لا تفارقني تنبعث منها أنغام تنسيني الخوف والألم. أوراق. وجهاز يربطني بالعالم. تمثال للكاتب المصري جالسا القرفصاء وهو وليّ الكتّاب منذ بدأ تدوين القصص بالأحرف وحاميهم وأضع يدي على لرأسه كما تتبرّك العجائز بالأضرحة أسأله الإلهام وأنا أمام فراغ الورقة البيضاء كمتسلّق الجبال أما قمّة شامخة.

كرسي مستقيم الظهر يجنح إلى اليسار لسوء توازنه مكتبة ورائي على طول الحائط تنوء بحملها مدفأة تملؤ الغرفة دفئا ونورا أيّام الشّتاء وتملؤها لأسباب أجهلها دخانا خانقا في بعض الأحيان وبجانب المدفئة أريكة وأمامها أريكة أخرى وبينهما منضدة صغيرة فوقها رزمة من الجرائد. زرابي ثلاث صغيرة خضراء. أريكة قديمة بألف بقعة وبقعة ووراءها حائط من الكتب وأمامها جهاز آخر ألتقط به صور الموجود المجنون وحذو هذه النافذة على الموجود المخيّل نافذة تطلّ عليه كما هو ومن حوالي المدفئة نافذتان أنظر منهما إلى حائط يفصلني عن مكان مقفل يتوسّطه كائن مجهول لا أعرف هل في فضائه المحاصر كتب ومدفأة ومكتب بنقط حبر وبقايا طعام.

على يساري الباب الذي أدخل منه هذا الموجود داخل الموجود والذي أوصده لكي أطرد الموجود من عالمي أو لكي أضع بينهما حاجزا واهيا يطمئنني هنيهة. وحذو الباب منضدة «فنيّة» وضعت عليها شهادات الاستحسان وقلائد النصر ترضي غروراً طفولياً وعلى الحائط صور كثيرة.

ورائي الرجل أبي وجه في إطار رخيص وهو شيخ أبيض الشعر وفي عينيه يلمع ذلك العزم

الفولاذي وذلك الذّكاء الوقّاد وشيئ مطمور من الإرهاق والقلق وبحنوه المرأة أمّي بابتسامتها الهادئة الحزينة وهناك صور للرجل أبي ثائرا شابّا يكلم ملكا شابا ينظر إليه بمودّة ولوحة كتبت عليها أن للإنسان حقوقاً وصنّفت فيها هذه الحقوق التي أصبحت في هذا المكان والزمان مسخرة وفضيحة ثمّ هناك صور كثيرة لأطفال العائلة لأنّني أحبّ الأطفال ويحبني الأطفال وهناك رسوم ساذجة لابنتي كانت تحارب بها استفحال مرض اسمه المراهقة.

لقد ملأت هذا الفضاء بأشياء حملتها من كلّ رحلة علّها تحفظ ألوان وروائح وأصوات أماكن اسمها «مراكش» و«موريس» و«كوالالمبور» و«بكين» و«أديس أبيبا».

وكما يمتلئ الفضاء بالصور والأشياء يمتلئ بالأشباح فهاهنا على الكرسي بحنو المدفئة يتراقص طيفها وهي تورّق آخر الأخبار الممنوعة وهناك أمام جهاز التقاط الصور يتراقص طيفها وهي تلتصق بالجهاز فأنهرها لأن ذلك مضرّ بعينيها وكانت لا تأبه إلاّ لصورها المتحرّكة وهناك يتراقص طيف الرجل أبي وهو مشرف على الموت ويقول: ياله من قصر هذا البيت وهناك يتراقص طيفهما وهما تورّقان البوم الصور وهناك يتراقص طيفهم لمّا دخلوا البيت عنوة يفتّشون الأوراق بعصبية مفتعلة يبحثون فيها عمّا يبرر اقتيادي إلى ذلك المكان المحكم الإغلاق: السّجن داخل السّجن.

نعم لكم هو ممتلئ هذا الفضاء الصغير هذا الفضاء الذي هو الآن ولا أدري كم من الوقت المكان الذي أحتمي به من الموجود والذي أخرج منه كلّ صباح لأبحث لي عن الجديد فيه. أخرج إلى الفضاء الذي هو بين السّور الذي أحتمي به من أخطار لا دفع لها وبين الحيطان العالية التي تنغلق عليّ وأختبئ وراءها. وفي هذا الجزء من عالمي الخاصّ أكتشف بدهشة أنّ فيه من صغار الحيوانات ومن الكائنات السّوداء اللّزجة ومن أصناف الحشائش والأعشاب ما لا طاقة لي بتعداده. أفهم أنّني لا أرى إلاّ جزءا طفيفا من هؤلاء السّكان الذين اقتطعوا مكانهم من مكاني دون إذن أو معلوم كراء متّفق عليه وخاضع لزيادة سنوية معقولة.

لسبب ما لرغبة قاهرة لضرورة لا تقلّ قهرا تراك مجبراً على مغادرة العشّ الأوّل والعشّ الثّاني والعشّ الواحد بعد الألف ذلك لأنّك ستظل ترتحل في المكان والزمان وإن طال المكوث هنا وهناك.

لقد عرفت من المسافرين من طلّقوا الحركة أو حاولوا ذلك.. ممن رضوا من الموجود بأضيق مكان أومن ألزموا عليه لأسباب قاهرة. عرفت أيضاً من لا يفارقونه إستسلاما وخوفا كأن الاتساع والوفرة والتجدّد أصابهم بالهلع.

عرفت من ينزوون في بيوتهم يغلقون مداخل الروح ومنافذها ويقنعون داخل ذواتهم وقد أصبحت جزيرة في محيط لا يربطها بقارة الموجود قنطرة أو باخرة.

حذار أن تستهويك هذه الوسيلة... حذار أن توصد كلّ أبوابك لأنّك تعلّمت أن

للقائك معه ثمنا من المتعة وأثمانا من الألم فلا مجال للاعتزال. تنفصل عنه لكنّك لا تغادره إلاّ إذا انتهت الرّحلة.

تحضرني هنا صورة الحلّ الآخر وهو أن أكون متجذّرا واقفا منتصبا كتلك الكائنات الغريبة التي تصادفها بكثافة مختلفة وانت تجوب أصقاع الموجود.

أتصوّر آنذاك أنّني امتلكت المكان وأن المكان امتلكني وأنّني محور عالم يدور في فلكي أن الكائنات هي التي تأتيني وكذلك الشمس والقمر والنجوم وأنا شاخص النظر إلى الأعلى ملتحما بالأرض - الأمّ أفتعل اللاّمبالاة.

يفهم الطفل الذي كان يريد أن يكون طيرا وسمكا وسحابا عابرا أنّه لن يكون ملك الأرض آنذاك وإنّما سجينها وتعين هذه الفكرة الكهل بعد عقود من الحلّ والترحال ليقبل أن ثمن الحرّية ومتعة السفر هو أن يلفظك المكان وأن تلفظه.

يتّضح للكهل وقد استكشف ما استطاع من الطرق الرّائعة والمريعة قاعدة أنّك لا تتنقل ولا تستكشف الموجود إلاّ وثبا من مخبأ إلى مخبأ.

تصل إذن براري الرّحلة طريدة صيّادا ولا بدّ لك من مكان آمن تتهيّأ فيه وتستعدّ ولا بدّ لك من علامات لتتّجه بخطواتك والحواسّ ولابدّ لك من مرحلة تتوقّف فيها لأن الموجود هائل الاتساع ولأنّ لك العمر كله على طول قصره للجري وراء الفرص التي تمتطي.

يشكّل لك المكان الآمن الصّورة المصغّرة للعالم وفيه إن انت أجدت النظر من الغرائب والعجائب ما يمكن أن يقنعك بالبقاء داخل أسواره الوهميّة. ثمّ إنّك تنطلق منه كما تنطلق جحافل الغزاة والمغامرين من قاعدة تموين وارتكاز واستعلامات. تواصل الحجّ والغزو والمغامرة إلى أن تأتي ضرورة التوقّف لسبب منك أو من الموجود. تبني لك القاعدة والمخيّم تستجمع فيها أنفاسك لتواصل.. لتدور على أعقابك.. لتهيئ آخر ملجأ تفتح في جداره الكوّة التي ستعبر من خلالها إلى عالم لا يعرف له الآدميون شكلا أو طبيعة.

هكذا تمرّ الرّحلة والمكان يتلقفنا ردحا من الزمان ليمرّرنا إلى مكان آخر وكأنّ الفضاء هو الذي يتقاذفنا كرة طائرة وكلّ مكان بداهة نقطة وصول ونقطة انطلاق ونحن نتفاعل كما نقدر مع إحدى أهم خصائص الموجود وقوانينه.

لابدّ لك في عالم متقلّب خطير كهذا من دليل بمستوى المغامرة وهل من دليل أضمن من العالم نفسه.

لكنّك تجوب الموجود تضجّ بالشكوى من ألم الضياع والمعلّم المهيب دليل تحت الذمّة قلّما تتبّع.

* * *

٣ ـ وبخصوص أن العالم هو الدليل الأوّل في مجاهله الخطرة وانّه.

لا ينفكّ يعطيك القدوة والمثال في كلّ أمر وأن أمهر الرحّالة أنجب التلاميذ قال الرّاوي:

أقول إنّنا نخلق الموجود بقدر ما يخلقنا إنّه يخلقنا بقدر ما نخلقه إنّه الطين والصلصال الذي نصنع منه حقائقنا وأوهامنا وإنّنا الطين والصلصال الذي يصنع منا أشكاله وتجاربه.

تسمع حول بعض حلقات النّار نقاشا لايفتر: أنضفي نحن خصائصنا على الأشياء والكائنات أم هل أنّ الأشياء هي التي استبطنتنا بخصائصها فأصبحنا نحكيها ونحاكيها نقلّد الشمس والماء والرّيح والقمر.

لا يضيرني رأي من يقول إنّ خصائص العالم منا ومن يقول إن خصائصنا من خصائص العالم لأن الأكثر احتمالا في مثل هذه المناظرات أن الموقفان على صواب وعلى خطأ في آن واحد ومن ثمّة لا داعي للتشنّج.

ليست القصّة بحاجة لأن تفترض أنّ هناك خارجا مستقلا عن الدّاخل أو أنّ هناك داخلا ليس إلاّ خارجا قد دخل واستبطن الذّات وبهذا أكون قد ألغيت الإشكالية برمّتها لأخلص إلى التّساؤل عمّا تتعلّمه ونتعلّمه جميعا بحضرة هذا الذي لا ينطق كلاما ولا يعطي دروسا ولا تملأ النصائح أشداقه زبدا.

هو يأخذ بأيدينا أطفالا ويسرّ في أذننا بالأبجدية ونظلّ نتشبّع ونحن نجهل أنّنا نتلقّى العلم في أصعب المدارس.

وفي هذه المدرسة الأساسية ترانا نستوعب دون أن نعلم أنّنا نستوعب وترى كلّ معلّم قدير يعلّم دون أن يعلّم يشرح دون أن يشرح يكرّر دون أن يكرّر كتاب مفتوح لا يغلق أبدا.

والماء دون شكّ ولا جدل من كبار المعلّمين إن لم أقل أكبرهم ذلك لأنّه يدلّك دوما على أضمن طريق.

هو الآخر يساهم في وضع الحدود لتعرف أنّك واحد متميّز.. أنّك لست كائنا هلاميا مزج أعضاءه بأعضاء الكون.... أنّك انفصلت وأن عليك أن تقبل هذا.

أعود بذاكرتي لأفهم كيف كنت تلميذا للماء وكيف علّمني الماء وكم أنا مدين للماء.

أذكر وأنا في خضمّه الدافئ أنني كنت أضرب بيدين بضتّين سطحه الهادئ ليتصاعد منه رشاش يثير ضحك المرأة أمّي وغضب فهمته بغير ذي خطر.

هو أوّل من علّمني ما تسميه اللّغة الدفئ والبرد والحرّ والرطوبة والرقرقة والسيلان وعلّمني أن أعرف أنّ دخول الموجود لا يكون بشروط وإنّما وفق شروط متقدّمة عليّ وجاهدت طفلا وأنا بين ذراعيه وهو بحر متلاطم هائل الاتساع وكان يلفظني دوما برفق إلى الفوق ينهرني عن لعب خطير. كان صوته ولا يزال من أحبّ الأصوات وياما جلست ومرافق سفر كان لي أخا وصديقا ننصت إلى الماء يتصاعد من نافورة وضعت خصّيصا وسط الحديقة الغنّاء وكانت النافورة محرابا وكنّا مسافرين مؤمنين نتعبّد في صمت للحياة عبر إنصاتنا الخاشع للماء. أصبحت لا أسمع بأن هناك شلاّلا هادرا في مكان قصّي من الموجود إلاّ وارتحلت إليه بالأقدام أو بالخيال وأذكر انبهاري وهو أمواج متلاطمة تتحرّك من أعلى إلى أسفل من علوّ شاهق إلى أغوار سحيقة محدثة صوتا كدويّ الرّعد.

لا أستمع إلى قطعة بيانو لرجل إسمه «بيتهوفن» إلاّ وخيّل لي أنّنا لا نفعل سوى الردّ على الماء بلغة قد يفهمها الماء أن نوبات الموسيقى التي تنطلق من آلة تسميها اللّغة «بيانو» أو «قيثارة» إنّما هي استبطاننا للقطرات ومواصلة حوارنا معها.

يجلس كلّ طفل إلى الماء وهو بركة وهو جدول وهو بحر وهو مطر ينزل مدرارا بنفس المزيج من المشاعر والأحاسيس المضطربة المتداخلة.

يتشبّع بالدروس الصامتة. يعود إلى الماء بدون كلل وكأنّه بحاجة إلى المزيد من تلك الدروس كأنّه يريد أن يتأكد من مقطع أن يشنّف مجدّدا أسماعه بصوت المعلّم أن يستزيد من دروس بلا نهاية.

يستنطق الطفل الصمت فلا يجيبه الماء إلاّ باللّغة التي هي ما قبل اللّغة. ينصت بشغف إلى صوته وهو يرتطم بالثرى قطرة قطرة وينصت إليه وهو هدير غير متقّطع وينصت إليه وهو رقرقة جذلانة تنساب من جدول هادئ.

ينصت إلى صمته وهو ينزل بخفّة ورشاقة قطنا أبيضا يتطاير حيث أهواء الرّيح يبسط غطاءه الناصع على أرض متشوقة.

يعرّفك على ألف شعور وإحساس من ذاتك وهو الدليل الذي بدونه لا تصلها.

لكم نسيت أنّك تشبّهت به وأنّك تمثلت به وأنّك حاكيته وأنّك استبطنته وأنّك قلدته في ألف خاصية ألف حالة وأنّك ما كنت أن تكون هذا الآدمي لولاه.

نعم كم نسيت أنّ آدميتك من تربيته ومن عزفه على الأوتار... من تشكيله المادة الخام... من نحته وإعادة الرّسم.

إنّ أسلوبه معك أسلوبه مع كلّ شيء ومع كلّ كائن.. أن يتغلغل أن يتباطأ في النحت أن يأخذ كامل وقته أن لا يستشيط غضبا أمام صعوبة مهمّة وطول الصعوبة.

هو لا يدير لك ظهره أبدا وقد اقتنع أنّك بغباء ميئوس منه وهو خلافا لكبار المعلّمين الآخرين لا يأخذك بالشدّة إلاّ نادرا. ينبسط الموجود أمامك بحيرة حالمة لا تختلج لها موجة رقيقة وتسمعه خريرا ساحرا وهو يطوّق صخورا برّاقة وهو يتدافع بمرح نحو غابات بعيدة. تجلس إليه ويجلس إليك. تفتح له أبوابك. تنقر أصابعه الرقيقة على هذا الوتر أو ذاك من أوتار الرّوح. تتصاعد من الوتر موسيقى شجية تطرب لها الأذن وتطرب لها بقيّة الأحشاء.

ها أنت تجرّب مشاعر تسميّها اللّغة الهدوء أو الدّعة أو السّلام أو الرضا ها أنت تجرّب لأوّل مرّة قدرتك على التعرّف ثم على التمتّع بهذا الذي يتصاعد منك وقد دخلك عزف الماء. ثمّ أنت تبقى بعدها تقف أمام ألف شيء وشيء تنتظر أن تتحرّك فيك تلك الأحاسيس أن ينقر الوجه الآخر للعالم على نفس الوتر بنفس رشاقة وخفّة الماء. يكون ذلك عادة عبثا.

أنا دوما ذلك الطفل الذي اكتشف خرير الماء أوّل مرّة يبحث في كلّ مكان يصله عن ذلك الإحساس الذي يبقى صامتا مهما كانت مهابة المعلّم الآخر وقدرته. وفي تلك الحالات القصوى النّادرة التي تكتمل فيها الرّحلة والتي للّغة في وصفها أكثر من لفظة متعثّرة تصبح الروح شفّافة كالماء. تصبح الرّوح رشيقة خفيفة كالماء تصبح الروح جذلى كالماء تصبح الروح متدفّقة مرحة كالماء. تغني الروح آنذاك على إيقاع الماء تنساب الروح آنذاك نحو الأفق كالماء.

وممّا سمعته من الرّحالة الذين تسميهم رجال العلم أنّك ماء في كيس أنّك كيس ماء لا غرابة أن يجد الماء الذي خارج هذا الكيس ما يخاطبك به وما يؤثر به عليك ولا غرابة أن تتفاهما وأنتما من نفس الطينة والفصيل.

إنّ ما أعي به اليوم أن الماء نظّم الماء أنّه أحدث فيه أشكالا وأنّه حفر فيه قنوات أنّه حرّكه وحدّده أنّه بعث فيه ألف حالة وحالة... أنّه ربّاه كما تربي الأمّ رضيعها.

تتابع التجارب غير متشابهة ويأتيك منها الألم وتأتيك منها المتعة ويأتيك منها اليقين ويأتيك منها الشكّ وهو دوما ككلّ المعلّمين الكبار يأخذ بيدك برفق ويوجّه هنا وهناك تنظر إليه دون أن تراه تعب من دروسه دون أن تسمعه. يتواصل نحت الروح وأنت لا تعي باليد التي لا تنفكّ لحظة عن كبس الأوتار عن غسل الجراح عن ردم الحفر عن إزالة كلّ ما ترسّب.

يعلّمنا الماء أنّ الكائن أيّا كان بالضرورة أشكال وأوجه مختلفة أنّه بالضرورة سطح وعمق أنّه هو هو أن تحرّك وإن سكن أنّنا لا نستحّم مرتين في نفس الماء وأنّنا نستحمّ دوما في نفس الماء.

ثمّ تأتيك الفكرة وأنت تفكّر لوحدك أو أنت تواصل قصص المرتحلين أنّه مصدر ورمز كلّ قداسة أنّه القداسة نفسها وأنت إن أجهدت المخيلة والذّاكرة لمكتشف بالضرورة صورا له اتّفق عليها بنو جنسك منذ وضعوا أرجلهم على بداية طريق الرّحلة.

تغمس يديك فيه تطهّرا وتشاهد بني جنسك يغوصون فيه في أماكن معيّنة يجدّدون فيها الحياة. تشاهد آخرون يعمّدون من دخلوا من أطفالهم إلى الوجود. تحجّ إلى ألف مكان ينساب منه ماء هو نفس الماء لكنّه ماء غير الماء. تشربه لتنساب في داخلك قوّة الماء وطهارة الماء وخلود الماء.

ثمّ إنّك تأخذ منه الصّور التي تتحكم في نظرتك إلى الحياة وكم من واحد منّا رأى الرّحلة سفرة على نهر يحملنا من أعلى الجبل إلى مشارف البحر على زورق ينساب تارة بهدوء وجلال وتارة تتقاذفه حركة النّهر الهوجاء وهو يرتطم بالصخور وينزل شلالات هادرة نحو الوادي.

يعلّمك الماء أن تكتشف مكامن الروح منك وأن تشعر بمشاعر لا يجيد إلاّ هو إثارتها ويعلّمك الماء عن خصائص الموجود الكثير ويعلّمك الماء كيف يجب أن تكون حتّى تملأ جرابك من الموجود وحتّى يكون بك رفيقا.

تتعلّم أن عليك أن تكون شفّافا كالماء أن تكون ساكنا متحرّكا كالماء أن تكون وديعا رقراقا كالماء أن تكون شلاّلا هادرا كالماء أن تبقى داخل الحدود كالماء أن تخرج من حدودك كالماء أن تكون متّسعا إلى أقصى الأتساع كالماء أن تقنع من المكان بأحقره كالماء أن تتسلّل أن تدخل أن تطال كلّ غور سحيق كالماء أن تكون واضحا جليا أن تسكن وأن تبسط وأن تكون هادئ السطح أن تشقّ لك طريقا في الصلب أن تتعرّج أن تقف أمام كلّ حاجز أن تتردّد لحظة ثمّ أن تتسلّل تحت أو من حوالي العقبة أن تواصل الطريق كالماء.

هو يعلّمك أن بإمكانك أن تكون رذاذا متطايرا وسائلا رقراقا وكتلة من الصلب البارد هو يعلّمك معنى أن تلبس كلّ الأقنعة وأن تكون واحدا وراءها.

هو يفتح أمامك كلّ الإمكانيات لتختار وأنت غير واع بما اخترت وبمن تقلّد.

وأنت كالماء ستولد من نبع صاف ولك مثله الخيار أن تتواصل جدولا رقراقا أو أن تنتهي مستنقعا آسنا تتربصّ داخلك الجراثيم والروائح الكريهة.

تتعلّم أن تكون كريما كالماء أن تكون شحيحا كالماء أن تعطي الحياة بدون منّ كالماء وأن تدمّر وأن تهدّم وأن تغرق كالماء. تتعلّم أن تكون النقمة الكبرى والنعمة الكبرى وتتعلّم

منه أنّ باستطاعتك أن تغمر وأن تنحسر أن تملأ وأن تكون أغلى وأبخس ما في الوجود.

وأنت ستتعلّم أن تخصب وأن تجدب وأنت ستتّخذه قدوة تغلي وتفور وأنت تستعيد الهدوء وأنت تفتعل الصبر وأنت تصبر وأنت تتقبّل ما يأتيك من مصائب تحاول أن لا تترك على سطحك جرحا أو خدشا.

ستحاول أن تغرق من يريدون أن يطأوك عنوة وتعسّفا وأن تكون جسرا وأن تكون حاجزا وأن تكون طريقا وأن تتعرج أمام انسداد كلّ طريق.

ستتعلّم منه أن تكون يقظا حذرا وأن تكون متناوما كسولا وأن تكون رذاذا وأن تكون أمواجا وأن تكون سحابا وأن تكون بلا قاع وأن تكون واضحا شفّافا.

يعلّمك الماء معنى الحاجة وأقصى الحاجة وأقصى أقصى الحاجة ويصبح العطش المرجع والمقياس لكلّ ما تسمّيه اللّغة الحرمان. هكذا ستتعطّش إلى المعرفة.. إلى الحبّ.. إلى الالتحام بالذّات المقدّسة.. إلى المجد. يعلّمك الماء إرضاء الحاجة لتتعلّم أنّه بقدر ما تكون الحاجة حادّة بقدر ما يكون إشباعها متعة وهكذا تروي عطشك من الماء وأنت تستبطن في ذاتك أن وصولك إلى المجد أو إلى الذّات المقدّسة أو المعرفة سيطفئ فيك ذلك الحرمان الذي ما انفكّ يتوسّع في داخلك كالخرق في ثياب بالية.

يواصل الماء دروسه الصامتة ويحلو لي أن أنطقّه:

لتكن مثلي همزة وصل ولتكن مثلي فاعل خير لا يطلب جزاءا. ولتكن مثلي حليما صبورا معطاء ولتكن مثلي متواضعا لا تتكلّف. ولتكن مثلي بلا خشية ولتكن مثلي لا تأتمر إلاّ بأمر أنت صاحبه لا تشق لك إلاّ الطريق الذي ارتأيت. ولتأتين عطاءك مثلي لمن استأهله ولمن ليس به جديرا ولتكن مثلي نقيّا طاهرا ولتكن مثلي حاملا قابلا لكلّ القاذورات. لتكن مثلي عابر سبيل لا يتوقّف إلاّ ليخصب وأن أخصب تجاوز ولتكن مثلي لا تحفظ الضغينة ولا تختمر فيك الجروح لا شيء يمكن أن يجرحك. ولتكن مثلي مغفيا يقظا ولتكن مثلي عاتيا إذا غضبت ولتكن مثلي قادرا على كسر كلّ الحواجز على تخطّي كلّ الصعاب. لتكن مثلي حرّا لا يخضع.

لتكن مثلي الدم المتدفقّ في شرايين كلّ حيّ. ولتكن مثلي الندى على العشب عند ولادة النّهار ولتكن مثلي ضبابا كثيفا يحجب الرّؤية ليتعمّق سرّ الوجود ولتكن مثلي جبّارا عاتيا إذا أتاك الغضب ولا يستخفّ بك شيء أو أحد ولتكن مثلي قويّا حليما هادئا كاللّيث يترصّد.

أقول وقد خيّل لي إنني فهمت بعد طول التتلمذ بعض ما علّمناه الماء.

لا خاب من جعل من الماء معلّمه وقدوته.

لا خاب من أخذ عنه ومن قلّده ومن استبطنه ومن أحبّه ومن فتح له الطريق في ألف مكان.

لا خاب من أساله على خدّيه دون حياء أمام آلام الكائنات. لا خاب من طهّره ومن تطهّر به. لا خاب من فهم ما يسرّ به إلى أعماق الروح من فكّ رموز صمته من أصاخ إلى نغمات شدوه. لا خاب من جعله مثالا يحتذي ومن جعله منارة. لا خاب من فهم تحذيره أن لا تتوقّف أن لا تكفّ عن السيلان أن لا تنكفئ على نفسك راضيا من سعة الموجود بحفرة اسمها الدعة والطمأنينة إذ ستكون آسنا متعفّنا تنطلق منه روائح كريهة.

لا خاب من كان مثله شفّافا من كان مثله عميقا من كان مثله حليما من كان مثله متواضعا من كان مثله معبّرا من كان مثله حياة الحياة.

لا خاب من عرف مثله كيف يتعالى وكيف يتسامى وكيف يصل إلى أغوار الأرض السحيقة وكيف يسقي الكائنات صغيرها وكبيرها طيّبها وشريرها نافعها وضارّها لا يفرّق ولا يميّز.

لا خاب من لم يرهبه أنّه أتى من المجهول لا خاب من لم يخف أنّه شقّ له طريقا عبر ألف صعوبة وصعوبة لا خاب من تسارع إلى البحر بشوق لا يخيفه أن يضيع في زخم هو جزء منه وصانعه لا خاب من ارتفع إلى عنان السّماء ولا خاب من تسلّل إلى أعماق الأرض لا خاب من أخصب ومن طهّر ومن روى.

لاخاب من ارتحل كالماء هذا الدليل الذي إن أنت صدقته وأصدقك فتح لك أبواب كلّ الرّوائع.

* * *

الجزء الرابع

مغالبتهم إتّساع المكان وشحّ الزمان بتبادل القصص وجهلهم انهم لا يرتحلون إلاّ داخل عالم من صنعهم.

١ - وبخصوص عبث كلّ جري وراء صورة شاملة له واستعصاء الاحاطة بجزئياته أو بكلّياته قال الراوي:

إنّ هناك بداهة حدود ومخاطر لتشبيه العالم بمكان نأتي لاستكشافه إذ انت لا تدخله كما تدخل دارا صلبة قدّت من حجر وخشب. إنّه كبيت دعائمه معادلات حسابية وجدرانه من بلّور شفّاف وسقفه مادّة تصلح بنفسها ما أبلى الزمن من أجزائها سكّانه أشباح وأجساد وكتب خزائنه تتحاور مع بعضها البعض وتتبادل مقاطعا من نصوصها ومن هذه النصوص تخرج جحافل السكّان الجدد لتشكّل الدار التي تسكن وفق ما يريده كلّ ضيف زائر. أيّ إمكانيّة يوفّرها للحديث المجدي عالم كهذا ثمّ إنّ له خاصيّة محبطة أخرى. أشعر إلى اليوم إنني أتجوّل فيه كمن يتجوّل ليلا في مدينة مترامية الأطراف أمشي قدما في شارع تتزاحم فيه الكائنات المسرعة وقد أضفت عليها الأنوار الضعيفة المتراقصة ظلالا مخيفة.

أصرّ على أن يكوّن لي فكرة واضحة عن هذه المدينة الغريبة التي أمشي في طرقاتها المحفوفة بالظلام وقنديلي في يدي اليمنى وسلاحي في يدي اليسرى. يتراءى لي بعد طول التّرحال والتجوال في أزقّتها أن أصل إلى أعالي المدينة فقد تتكوّن لي هناك صورة واضحة عن معالمها.

أكتشف بدهشة أنّ جلّ أحياء المدينة غارقة في الضباب وأنا أنظر إليها من أعلى هضبة أنني لا أرى منها إلاّ جزرا قليلة من الضوء بلا حدود واضحة ولا طوبوغرافيا يمكن لفكر تذكّرها أنّني لو بقيت أراقب كلّ هذا الذي هو تحتي الآن إلى لحظة الخروج لرأيت نقط الضوء تتحرّك باستمرار ولرأيت الضباب يلتهم هذه المنطقة المضاءة أو تلك. إن من طبيعة الرّحلة أن تنتهي من العالم كما بدأت.

بصورة غامضة مع فارق هامّ أن غموض البداية معطى لا تجادله وغموض النهاية فوضى رهيبة تحاول أن تنظمّها عبثا.

وفي إطار محاولتك اليائسة لامتلاك ما لا يملك هناك بعض الحيل لتغالب الاتساع وللطّلوع إلى أعلى ربوة يمكن أن تشرف منها على الموجود.

لا بد ان تسافر بالوكالة والتفويض ولا مناص لك من ان تتابع الرّحلة في قاعات مظلمة يتجمّع فيها بنو سفر يواصلون جريهم المحموم وهم جالسون.

تمارس في هذه القاعات وظيفة هامّة مثلما تمارس في الهواء الطلق وظيفة المشي أو التشبّع بالهواء النقي فيها يقع تبادل الأحلام وتغذيتها وفيها تستعرض البشرية هواجسها وتخطّط لأحلامها كما كانت تفعل وهي مجتمعة في الكهوف حول النّار المرتعشة.

يأتي بنو سفر للقاعة المظلمة ليروي لهم آخر فصل من قصّة إستكشاف المكان. لكنّهم جاءوا مثلي هذه المرّة غير معنيّين بتفاصيل أهوال المغامرة وتفاصيل السيرة الذاتية للبطل وما عرفه من روعة وارتياع وهو يشقّ طريقه وطريقنا في أحراج السر الخ الخ.... لقد أتوا لينظروا إلى الشكل العامّ للمسرح الذي تعرض على ركحه كلّ التمثيليات وقد أصبح ذلك ممكنا لأوّل مرّة في تاريخهم.

كم من مجهودات بذلوا لإشباع حاجتهم إلى هذه الرؤية..... إلى هذه الصورة بالذّات.

كنت أشعر بالاحباط دوما لأنني لن أعرف مهما طال المقام في العالم صحاريه الأخرى وجباله الشّاهقة وأنهاره الجبّارة وسهوله الفخمة وغاباته الكثيفة وقاع محيطاته العميقة وبراكينه الملتهبة. يا لسذاجتي ذلك اليوم عندما آملت أن أشرف على كلّ هذه الروائع أنظر إليها بعيني من سافروا باسمنا ومن أجلنا إلى الأعالي أودعها ذاكرتي وشغاف فؤادي.

يتكثّف السكون بانطفاء الأضواء التدريجي وكأنّ النّاس حبست أنفاسها. وفي هذه العتمة انتصبت مئات الرؤوس تركّز انتباهها على المساحة البيضاء الفارغة.

يتصاعد فجأة ضجيج المحركات ويتزايد هديرها وينطلق الصاروخ الجبّار وعلى جانبه المكوك وقد التصق به التصاق الرضيع بأمّه وهي تهمّ بالقفز من فوق هاوية.

تتابع كاميرا «الإيماكس» الخيط الرفيع الأبيض من الدّخان الصاعد إلى عنان السّماء ويدوّي الانفجار مرّة أخيرة يصمّ الأذان. يخيّل إليك لحظة ومن فرط دقّة تقنيات التصوير والتسجيل الجديدة أنك ستشعر بلهيب النّار يلفحك وبرائحة الدّخان تخنق منك الأنفاس ودخلت فعلا بعض الرؤوس الأكتاف.

ها قد انفصل المكوك عن الصاروخين الدافعين.

يعمّ القاعة صمت غريب سكون ما بعد دوي الرعد واختفاء البرق وتوقّف المطر ومرور العاصفة الهوجاء.

انتهت عملية القذف وتمركز المكوك في الفضاء ويداهمك الاسم ـ الموجود ـ المسرح وانت تنظر إليه من فوق ومن الخارج بكلّ جلاله. تمتلئ العين والقلب والدماغ والأحشاء.

ها هي الدرّة الزرقاء بكلّ جلالها. تتّسع الحدقتان لكي لا تضيّع مشهدا واحدا لكي تنطبع الصورة في كلّ خليّة من خلايا القلب.

تحضرني في هذه اللّحظة أنّ هذه الصورة صورة الأرض من الفضاء هي من دون شكّ أهمّ مساهمة لرحّالة هذا العصر وأفهم لماذا أصبحت أراها في ألف مكان ومكان... على غلاف الكتب والمجلاّت على الحيطان على شاشات التلفزة تفتتح نشرة أخبار بني سفر على قمصان المراهقين الخ...

أليست الصورة التي بحث عنها بوعي أو بدونه «هانون» وذرّيته على مرّ العصور وكانوا لا يدرون شكلا أو لونا للمكان الذي كانوا فيه تائهين لأنّ أنوفهم كانت ملتصقة به مهما سافروا وبعدوا.

أوّل خاطرة تنطلق من داخل الفكر وقد تجسّدت الروعة على الشاشة أنّ حلبة الرقص والصراع والصيد ليست كما اعتقد الطفل طويلا طبقاً وأنّها مربّعة أو مكعّبة أو مستطيلة أو مثلّثة إنّها ليست محمولة على قرني ثور إنّها لا تشبه بطيخة ولا اجاصة ولا موزة كما ورد ذلك في أكثر من قصّة قديمة.

إنّها كروية الشكل بل وتدور لكم ظلموا ذلك الرجل القصّاص قاليلي.

هي فعلا مستديرة استدارة البرتقالة والتّفاحة وكرة التّنس والقولف والسوار والقرط والخلخال والشمس والقمر.

تبهرك روعة الألوان.

أمّا السواد الذي يلفّها فهو الدّمقس الأسود للعلبة الفاخرة الذي وضعت فيها الزمردة الزرقاء. إنّه سواد ما بعده سواد داكن عميق مكتمل يستعصي عليك في تلك اللّحظات الخاطفة اكتشاف المصابيح التي تتلألأ في أعماقه فالعين تنجذب بقوّة نحو زرقة الجوهرة والزّرقة ألوان لا تترجم روعتها الكلمات.

لنحاول معا أنا بالإشارة وانت بالمخيّلة وما في جراب الذّاكرة من صور لكلينا.

تشدّك زرقة سهول الماء وهي لون فاتح لربّما تأملته إن ذهبت تستحمّ ذات صباح باكر والبحر كالمرآة هادئ لطيف مرح في لون شبابيك قرانا. هو في هذا مختلف أشدّ الاختلاف عن الأزرق البنفسجي الذي يحيط بكامل قطر الاسم ـ العالم خطّا فاصلا بين سمفونية ألوانه والفضاء الدّاكن السواد.

إنّه لون البراري السائلة عند تسلّل اللّيل لذلك هو متردّد تراه يميل في جزئه الخارجي إلى سواد الفضاء وفي جزئه الدّاخلي إلى حلاوة النّور.

يبهرك وهو داكن ومضيء في نفس الوقت كالذّي تشاهده عندما تلاعب الرياح المرحة الأمواج الكسولة وقد تمدّدت بينها وبين أشعة النّور جبال من السحب السوداء تراه أحيانا يمزج طريقا في عالم الأزرق المضيء لأنّه لون هذه الأنهار السائلة الجبّارة التي تجوب الصحاري السائلة حاملة في أحضانها الدفء والحياة.

يتّضح من هذا العلوّ الشاهق أنّ البحر واحد وأنّ التجزئة والتسمية التي تعوّد عليها الآدميون لم تكن إلاّ آثارا تلك العصور التي شهدتهم ينطلقون زرافات متفرّقة متنافرة من شواطئ متباعدة يتحسّسون امتداده وخطورته كالعميان.

إنّه الواحد الذي تصبّ فيه كلّ الأنهار. أحاول التعرّف على بعض من الذين رأيتهم على الخرائط ثعابين تتلوّى على آلاف الكيلومترات تنطلق من أعالي الجبال المكلّلة بالشيب تبحث عن البحر تعيد له ما أخذته منه. أجيل البصر بين زرقته وهي تملأ تقريبا كلّ الصورة وبين تلك السّحب التي تحجبه عن البصر هنا وهناك وأتذكّر أنّهما شيئ واحد وأتذكّر أن كلّ البحيرات والشلاّلات والأودية والأنهار والمستنقعات حالات من حالاته أنّني أشرب البحر وأن دمي من مائه وأنّ خلاياي مشّبعة بأملاحه وأنّني طفله وخليقته ككلّ حيّ... إنّني جزء من البحر.

تتّسع الحدقتان تحاولان أن تبصرا ظلّ تلك الكائنات الضخمة التي تسكن مخيلة كلّ الأطفال ويقال هذه الأيّام إنّها تصرخ تحت الماء تغنّي للأنثى والرضيع شعرا وإيقاعا ويخيّل إليك لحظة أنّك أبصرتها قوافل وقطعانا جبّارة تخرق المحيطات ناطحات سحاب أفقية حيّة تتدافع من تحت الماء إلى الهواء الطلق في قفزات جبّارة.

مرحة يقودها في ضربها في المحيطات ذات الطول والعرض حوت أبيض خرافي اسمه «موبيديك».

ولا تغفلنّ وانت أمام هذه الأصناف أن تنتبه إلى الأزرق الزمّردي ذلك المائل إلى الخضرة لا بدّ أن تبحث عنه حتى تملأ عينيك من روعته الخاصّة. إنّه يزيّن حواشي جزر المحيطات بفصّل ويوحّد بين الزرقة الزرقاء للسهول السائلة وبنّية الصلب المائل إلى الاحمرار.

ثمّ هناك الأزرق الرمادي وهناك خاصّة البياض.

تتنقل العين منه إلى الزرقة ومن الزرقة إليه رافضة أن تفصل بينهما لأنهما لوني فستان الأمّ.

لا يتميّز البياض بتباين ألوانه وإنّما بتباين أشكال.... منه الكثيف منه الممتّد قطعة واحدة وكأنّه فرو دبّ ملقى على كتفي غانية منه الفتات وألف شكل وشكل.

هو يبدو عندما يمتدّ ويتمطّى ويغطّي ويحجب الخصم اللّجوج والمشاكس المزعج. إنّه الستار الحاجب إلاّ أن التفتّت مصيره تتسلل الزرقة بخبث من بين كلّ الخروق والمنافذ فإذا بها تحيط بقطع المتجبّر تجعله بدوره جزرا يسبح في مداها.

يتمترس البياض على ضفافها في شكل قارات تتّخذ لها من الأشكال ما تجود به قريحة الريح. تتواصل الخصومة وفي إطار اللّعبة يقع تبادل الأدوار. ها هي الزرقة بدورها الجزر والأرخبيلات السّابحة في خضمّ بحر البياض وهكذا بلا نهاية.

فجأة يبلغ التفتّت مداه فإذا بالبياض قطع قطن متناثرة قد شقّتها الزرقة من كلّ ناحية لكنّه انتصار مؤقّت ككلّ انتصار.

تتجمّع قطع القطن والجزر الكبرى والقّارات المخيفة الحجم وقد مالت إلى لون الرماد تديرها الريح بسرعة متصاعدة فإذا بالبياض يتخذ شكلا حلزونيا متموّجا. تتّسع دائرة ذراعه من المركز إلى المدار.

إنّها عاصفة هوجاء فهذا البياض الكسول قادر على الغضب المميت. هو الآن يرغي ويزبد رعدا ويرمي بالبرق الخاطف على البسيطة يستفزّها برمح كهربائي علّها تردّ عليه بانفجار بركان.

تنتهي فجأة معركة السماء والأرض.

وبعد الغضب لا بدّ من الهدوء.

تنفجر القارّات البيضاء وتنقسم وتتفتّت من جديد إلى تلك القطع المتناثرة التي تشبه القطن والثلج. هي تبدو لك أحيانا قطعانا من الخرفان المرحة المتنقلّة شرقا وغربا بحثا عن المراعي في خضم الزرقة المنتصرة وحتى لا يبقى القول الفصل لغريمها فإنّك سترى البياض يلتجئ أين لا يمكن له أن يشق وأن يتفتّت..... إلى قمم الجبال الشامخة.

تبحث العين طويلا عن سيّد الألوان.

ها هي الخضرة أخيرا... محتشمة متواضعة وكأن لعبة الجبّارين قد سدّت عليها كلّ المنافذ.

إنّها قطع متناثرة داكنة تتأرجح بين السواد والزرقة تتعرّف عليها النفس المتعطشة بدون تردّد لأنّها اللّبنة الأولى للحياة.

هي تبدو من هذا العلوّ جزرا معزولة في بحر من الحمرة حمرة الأراضي العائمة على سطح الزرقة وتبحث العينان بنهم عن مزيد منها ولا تقنع بما ترى لأنّها تعلم أنّها تحت الغطاء الكثيف قارات لها من الأشكال والألوان ما للبياض والزرقة من سطوة وجلال.

تبقى الجزر الداكنة المائلة إلى السواد وتارة إلى الحمرة ككلّ الجزر معزولة متناثرة.

تنغلق العينان من شدّة الرفض تنطلق المخيلة من عقالها لتحلم بخضرة غابات «الأمازون» الشاسعة وهي تغطي نصف جنوب أمريكا تشقّها أنهار جبّارة سوداء.

إنّها خضرة خضراء تشبع النهم على حدّته.

فجأة تراها لطخة داكنة تصبغ سهولا ودبانا جبّارة لا يوقف زحفها نحو الشمال إلا بياض الجبال المتكبّرة. هي لا تقف عند أقدام الجبال الشامخة إلاّ لتقفز من فوقها زاحفة نحو سهول أخرى مترامية الأطراف لتطبعها بطابعها المحبّب.

يكمل المكوك دورته الأولى ويشرع في الثانية وتنساب الكاميرات تتابع أرضا في شكل حذاء طويل يسمّونه اليوم بنو سفر «إيطاليا». يتزايد طغيان الحمرة الداكنة على الخضرة المائلة إلى السواد. تبرز الزرقة من جديد تحيط بجزر حمراء كأنّها فتات بعثره مارد جبّار وأتعرّف فجأة على وطن «هومير» و«اوليس» وهما من كبار قصّاصي الرحلات.

أتعرّف على الأشكال ويتأكدّ لي أن الصور التي طالما طالعتها في الكتب والتي قضّت أجيال من الرّحالة جلّ حياتها في رسمها لم تكن من نسيج خيالهم وأن «مدغشقر» ليست كجزيرة واق الواق وأنّها فعلا موجودة.

تستطيل الأمريكيتان من قطب إلى آخر وتمتدّ أفقيّا من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق قارّة اسمها «أوروبا» وتواجهها هي تمتد عموديا من الشمال إلى الجنوب القارّة المنكوبة بالجوع والمرض والحرب التي نسمّيها «افريقيا» وفي مكان قصّي رأيت جزيرة ضخمة بحجم قارّة اسمها «استراليا» يحيط بها غبار من الجزر المتناهية الصغر.

ومن هذا العلوّ الشاهق أجهد عيني لترى الحدود التي تفصل البسيطة فلا أرى شيئا. لا أرى الحدود التي رسمتها للمكان الذي أؤوب إليه كلّ مساء لا يدخله أحد بدون إذن مني ولا أرى الحدود التي رسمتها الكائنات الصغيرة التي تحتلّ الحديقة والمطبخ وبقية غرف بيتي كذلك لا أرى الحدود التي ترسمها حول ما اقتطعت ملايين الكائنات تلك التي تسمّيها اللّغة وتلك التي لا زالت تجهلها.

أحاول أن أتعرّف على حدود الممالك الضخمة التي اقتطعتها هنا وهناك جحافل الآدميين والتي تحرسها بألف سلاح. لا أرى أنهار الدم حولها والحال أنّني أعلم أن ملايين الأجناس وملايين الأفراد من الآدميين تقاتلوا ولا زالوا يتقاتلون في حروب ضروس لا تفتر من أجل توّهم امتلاك ما لا يمكن امتلاكه.

أتابع بعيني الخيال كيف كانت هذه الحدود وكيف ستكون وأتصوّر «أمريكا» وقد تفكّكت إلى ألف دويلة وأرى «إفريقيا» دولة إمبريالية عنصرية ضخمة تحكمها نازية سوداء وأرى «استراليا» إمارات آسيوية تحكمها «شوجونات» يابانية في نزاع مسلّح وأرى إمارة

صينية على سطح القمر ومملكة عربية متمرّدة على سطح المرّيخ و«أوروبا» قلعة تحميها أسوار شاهقة من البلوّر الأزرق تمتدّ من «البرتغال» إلى «اليونان».

أغمض عيني لأتخيّل خريطة للصلب والماء رسمت عليها كلّ الحدود التي ترسمها كلّ الكائنات وتطوّر هذه الخطوط المتراكمة المتقاطعة عبر فترة من الزمان وأفتحهما مسرعا وقد استسلمت المخيلة وأصابني نوع من الدوران.

تنفجر فجأة الصفرة صفرة اللّيمون والرؤوس الشقراء يشقّها خيط رفيع أخضر يتموّج على امتداد لاترى له نهاية.

ولكم تبدو الصفرة محبّبة لقلب ابن الصحراء. هي تخطف الأبصار وتنطبع في الرؤية والذاكرة وكأنّها باب يصفّق ويهالك امتدادها وتضييقها على حواشي الخضرة النادرة الملتصقة بخيط رفيع أسود اسمه «النيل» كأنّها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان. تداهمني صورة «اخناتون» ينتظر جاثيا على ركبتيه طلوع المعبود من الأفق الشرقي.

يعود البياض إلى سؤدده وتنحجب الرؤية بنفس السرعة المذهلة. تتراجع الكاميرات لتظهر نصف الأرض وقد أحاط بها هلال رفيع من نور الشمس لا تصفه الكلمات إنّما شدو الناي.

لقد بزغ القرص الذهبي على مكان ما من المسرح.

يأتي متسارعا الوجه الذي أسدى عليه ظلام اللّيل سدوله ويتملّك الانبهار وانت ترى خارطة القارّات ترسمها ملايين المصابيح الكهربائية وتشدّك بحيرات من نور يسمّيها بنو سفر «امريكا» و«أوروبا» وتبحث عينيك بنهم عن قارة اسمها «إفريقيا» فلا ترى إلاّ خطوطا متقطعة وبقعاً قليلة متفرقة معزولة وسواداً طاغياً.

ترتفع ببطئ شديد على يسار الشاشة وفي مكان منزوكرة في حجم التنّس وبلونها الأبيض الرمادي: بدر الدّجى. تتشبّع العينان بكلّ هذه الروعة والأبّهة والجلال فلا تقوى على مزيد.

يعود النّور إلى القاعة. تختفي إحدى آلاف الصور التي يعطيها الاسم ـ العالم عن نفسه تعود من سفرة لم تسافرها وتنزل من أعالٍ لم تصعد إليها وتجد نفسك بسرعة في طريق من بين آلاف تمشي فيه وحيدا غريبا حيرانا ذاهلا تجاهد للإحاطة بما لا يمكن الإحاطة به وتحضرك صورة من أراد شرب البحر بملعقة.

تحضرني وأنا لازلت تحت وقع صدمة كلّ هذه الصّور الرّائعة ذكريات لاستجواب احد ممّن طلعوا فعلا إلى الأعالي لتداهمهم الأرض بكلّ أبهّتها.

ـ كيف تبدو من هناك.. من فوق.

ـ إنّها لروعة تامة تجعلك تمسك أنفاسك وممّا يزيد الجمال سواد الفضاء من فوق الأرض المضاءة.

ـ ما هو لونها.

أنّها تتّخذ كلّ الألوان. هي زرقاء في معظمها مع اختلافات رائعة في هذه الزرقة لكن هناك أيضا اللون الأحمر خاصة في مستوى «إفريقيا» والصحراء. الواقع أن هناك عدّة اختلافات في الأحمر: الداكن مثلا تراه من بعد آلاف الكيلومترات خاصة حول البحر الأحمر. إنّها تنوعات رائعة عندما نتجه شمالا فوق «الهند» و«التبت» وجبال «الهملايا» نشاهد تلاعبا مذهلا في الألوان.

ـ هل يمكن مشاهدة المدن.

ـ طبعا وبدقّة.

ـ هل رأيت «باريز».

ـ بلى ويمكن حتى مشاهدة برج «ايفل».

ـ من علو ٤٠٠ كيلو متر.

ـ نعم باللّيل طبعا... ويمكنك أن ترى حتى شارع «شان ايليزي» والشوارع الكبرى والمذهل أن البصر يغطي قطرا يصل إلى ٥٠٠٠ كيلومتر في نفس الوقت.

ـ ألا يؤدّي هذا إلى إدخال كثير من النسبية على بعض القيم أليست هاته الأرض هي الأم.

ـ إنّ ما تشعر به هو أن الدّار ليست بالحجم الذي نتصور لأنك تبصر في نفس الوقت «باريز» وشوارعها لكن أيضا «سكندنافيا» و«المانيا» و«اسبانيا» و«إفريقيا الشمالية».

ـ ألم يخطر ببالك واغفر لي هذا التفلسف البدائي أنّ سكّان المنزل الكروي مختلّوا المدارك عندما يتبادلون اللّطمات.

ـ فعلا زد على هذا شعورك بهشاشة الأرض فلو درستها محاولا فهم التطوّر الجيولوجي لا تّضح لك أن وقتها محدود إنّها ستصبح كالمريخ كوكبا ميّتا إنّها تحتضر في بعض الأماكن فمن الفضاء تبدو إفريقيا الوسطى وكأنّها المرّيخ وقد يستعصي عليك أن تفرّق بين صورتين للكوكبين. إنّ هناك جزءا من الأرض قد مات وهذا الجزء يتوسّع. إنّ الأرض بصدد الاحتضار من حسن الحظ لا زال أمامنا الوقت لكن ليس من الضروري أن نعين أمّنا على الموت بسرعة أكبر.

لقد توسّع مجال الرّؤية بكيفيّة لم يكن من الممكن حتى الحلم بها سابقا.

هاقد حملت الرجلين المرتعشتين حواس الرضيع الكهل إلى هذا المكان لينظر إلى المكان

بأسره من خلال من طلعوا إلى فوقه باسمه ومن أجله. يعاودني حتّى في تلك اللّحظة المباركة ضيق لأدري له دفعا ولكنّني أدرك سببه.

وبعد الإفاقة من الصدمة يأتي التفكير.

لقد ضاعت من هذا العلوّ الشاهق كلّ التفاصيل.

أعلم أنّ هناك جبالاً مهيبة وغابات كثيفة وصحاري مرعبة وأعماق بحار لا يصلها شعاع الشمس. أعلم أنّ هناك ألف طريق وطريق وكم من قنطرة رميت على ألف هاوية.

أعلم أنّ المكان يعجّ بالكائنات أنّ الآدميين منهم يتجمّعون في أماكن يسمّونها مدنا وقرى وهي حيطان تجاور حيطان في فوضى رهيبة واتّساع متفاوت وأن وراء كلّ حائط كائن وقصّة. أعلم أنّ أجناسا غير جنسنا تقتطع مكانها حتّى داخل أجسامنا وأنّ هذا المكان المكوّر هو أيضا عالمها مهما غالينا في السيطرة لأجل قد يكون جدّ محدود. لكن شيئا من هذا لايرى ولا مجال لالتقاط ولو جزء ضئيل ممّا تتبادله الكائنات المبهمة من حديث ذي ألف شجون.

تهرب ملامح الموجود وانت تضع أنفك على اتساعه وتضيع في المبهم والضباب إن انت نظرت إليه من أبعد نقطة.

أفهم أنني خلافا لما توّهمت لا أنظر إلى الصّورة العامّة التي طالما حلمت بها... أنّني لا أرى إلاّ صورة عن بعد للجزء الظّاهر من المسرح... أنّ كلّ الممثلين والقصص الذين هم لبّه وسبب وجود الموجود قد اختفوا... أنّني أضفت صورة جميلة حقّا لكنّها مجرّد إضافة.

ثمّ هي وليمة البصر لا غير لأن الحواس الأخرى بقيت معطّلة فالتّقنيات السحرية على غرابتها وقدرتها لا زالت عاجزة عن أن تحمل إلينا في هذه القاعة روائح المحيطات المشبّعة ملحا وأريج الورد والياسمين والأقحوان والصنوبر والعشب الطريّ في الحقول والغابات.... رائحة الأمّ وقد تضوعت طيبا.

تبقى الأرض خرساء.

يخدعك من هذا العلوّ الشامخ صمت الاسم ـ العالم فتحسبه مسكونا بالدّعة وهو لا يكفّ عن الصراخ طوال الوقت: صراخ اللّذة حينا وصراخ الألم أغلب الوقت نحن لا نسمع من هذا العلوّ الشامخ صراخ وضجيج وزعيق وصرير وعويل وغناء وصفير وحشرجة وآهات ونواح وثرثرة الكائنات ونحن خاصّة لا نبصر منها ولا كائنا واحدا.

تبدو لك الأرض في خضم ظلمة الفضاء جنّة فيحاء وهي كذلك وهي محتشد

ومعتقل زنزانة ضخمة تتعذّب فيها كائنات لا عدّ لها ولا حصر كلّها ما بين ذابح ومذبوح وقاتل ومقتول وجارح ومجروح.

يستبدّ بك نفس السؤال إن كان ما أرى الوجه البارز فقط من عالم الرّحلة فأين هي الصّور الأخرى وما السّبيل إليها.

كنت لا أعلم آنذاك أن الجري المحموم وراء الصّور الذي جعلته لزمن طويل هدف الرّحلة قد بدأ يتباطأ للإرهاق الذي بدأ يصيب الجسم وخاصّة لأنّ فكرة مبهمة بدأت تتسلل من الأعماق لتعيد ترتيب الاضطراب المتزايد: أن العالم ليس مكانا أبحث له عن مركز وليس ملفّا أتصفّحه وإنّما لوحة أرسمها وتلوّنني قصّة أرويها وترويني.

* * *

٢ ـ وبخصوص أنّك لا تذهب بعيدا إن لم تسافر في قوافل بني سفر ممتطيا ظهر القصص قال الرّاوي:

تسافر ضرورة محمولا بجسمك الآدمي وبآلات الآدميين تنقل الحواسّ تتفحّص قسمات العالم تبحث عن مظاهره تجاهد لإلقاء نظرة ولو خاطفة على وراء ما تتصوّره أحيانا ستار المسرح.

يتحدّاك اتساع عالم الرّحلة المخيف وامتلاؤه الأخرق وذلك مهما طوّرت من آلات تحمل الحواس إلى الأبعد والأعلى والأعمق. لا يبقى عليك إن عذّبك الفضول والطّموح مثلي إلاّ أن تتحايل عليهما بالسّفر عبر كلّ من ارتحلوا تنظر عبر أعينهم وتتلمّس عبر أيديهم تجرّب بالوكالة ما لم ولن تقدر عليه.

تسافر ضرورة ممتطيا ظهر القصص.

وهكذا لم أطوّف في عالمنا حاملا حواس حادّة نشيطة لاقطة مسجّلة تحملهما الآلات العجيبة إلى أقصى بقاع المكان الممكن وإنّما طوّفت فيه أيضا مستلق على الظّهر شاخص العينين إلى الأعلى أستكشف عبر كلّ من ارتحلوا باسمنا جميعا ما فاتني من عالم صعب المنال وكانت هذه الوسيلة من أهمّ وسائل رحلتي.

وممّا أذكره أنّني لم أكن أدخل مكتبة وأنا طفل إلا وبحثت عن قصّة رحلة تحملني بعيدا.

أذكر أنني كنت قاضيا في «دلهي» مع «ابن بطوطة» وأنني ارتحلت معه لما خرج من «طنجة» ميمّما وجهه نحو الشرق وكم تعذبت مع «ابن جبير» في ذلك المرفأ النتن على ساحل البحر الأحمر انتظر مركبا قاصدا بيت اللّه الحرام.

كذلك ارتحلت مع «ابن عربي الاشبيلي» و«الشريف الادريسي» و«الكناني البلنسي» و«ابن سعيد الأندلسي» و«ابن جزي» و«ابن الخطيب» ومع كلّ مسافري المغرب والأندلس وهم يتلمّسون عبر أهوال البحر وأهوال الصحراء طريقهم نحو الكعبة الشّريفة.

نعم لقد كنت في جرابهم وفي كتبهم وفي حلّهم وترحالهم أكتشف معهم معالم الطريق الذي كان يأتي بالغزاة من المشرق إلى المغرب حاملا قوافل الحجّاج من المغرب إلى المشرق.

وكم كان عجبي كبيرا كعجبهم وأنا أتأمّل المناظر والشعوب تتالى ببطء يمهل ويعطي للفكر والقلب كامل الوقت لأن يعبّ من كلّ ما يرى وكم كنت أحبّ مثلهم أن أتوقّف في جوامع «تلمسان» و«تونس» و«القيروان» و«القاهرة» و«دمشق» أكرع من تلك الثرثرة التي لا تنتهي حول أصل الكلمات وتفسير الأقوال وتضارب الروايات عن ألف رحلة ورحلة وكم كنت أحسّ بالخشوع وأنا أدخل مع «ابن عربي» الديار المقدّسة بعد أهوال وروائع ذلك الطريق الشّاق الطّويل وكم كنت سعيدا تلك اللّحظة وقد تبخّر فجأة الإرهاق الذي ظننته بلا علاج وكم كنت مبهورا وأنا في خضمّ تلك الأمواج البشرية المتدافعة في شوق لا يوصف إلى بيت إله نطق مرّة واحدة ثمّ اغرق في الصّمت.

وأذكر أيضا أنني نقبّت عن مدن اندثرت في اليمن السعيد مع رحّالة من «الدّانمارك» وأنني بحثت عن أسرار المومياء مع مغامرين من بلاد الإنجليز وأنني كنت آخر عشيق لملكة «الأطلنطيد» يوم اكتشفتها بالصّدفة وأنا اصطاد الغزال في أعماق «الهوجار» وهل كنت أفوت أن أتبع «ماركوبولو» فكرا مجرّدا آتيا من أعماق المستقبل أدخل معه «سمرقند» وأخرج معه من «بيكين» لنضرب في عرض وطول إمبراطورية «جنكيز خان» ثم أنني رحلت مع «ياو» بحثا عن صرّة الموجود عن جزر «هو تشيو» الخمس ومع «هوان شن تاي» جريا وراء جزيرة الحقيقة ومع «هوانغ تي» لأصل إلى الجبل الذي يحمل مركز ثقل العالم وكنت وراء «لاوتسو» لمّا سلّم مخطوط «طاو تي كنج» كتابه الذي جعلت منه إنجيلي للحارس المشدوه وعبرت معه إلى ما وراء سور الصين الأعظم مهرولا وراء ذنب بغلته لتبدأ سفرتنا في قصّة لم يروها أحد.

نعم لقد سافرت وارتحلت مع «اوليس» على أمواج البحر الذي ولدت على ضفافه لأدخل عبر بوّابات «هرقل» المحيط المخيف وأبحرت مع «هانون» أتلمس طريقي معه نحو مجاهل إفريقيا.

كذلك أبحرت مع الكابتن «آشاب» أطوف معه محيطات العالم جريا وراء حوت خرافي أبيض اسمه ـ عليه اللّعنة ـ «موبيديك» أصفّي حسابات قديمة معه.

وكنت أحيانا أنا ذلك الحوت الخرافي الأبيض نفسه الهازئ من جنون «آشاب» أجرّه من بياض قطب إلى بياض الآخر وكان يظنني الطريدة والحال انني كنت الصيّاد.

ولمّا رمى بي بحارة «البونتي» المتمرّدون ـ أخزاهم اللّه ـ في زورق صغير في عرض المحيط الهادئ ولما وجهت باتّساعه وأهواله تمسكت برباطة جأشي وقاومت العواصف المخيفة كما قاومت ذلك الاخطبوط الذي هاجمني يوم كنت أقود مع الكابتن «نيمو» غوّاصتي «نوتنيولس».

كان لا بدّ ممّا لا بدّ منه. ألم يكن مكتوبا في القصّة أنني سأصل بعد عشرين يوما من

الملاحة الماهرة إلى المرفأ وأنني سانتقم شرّ انتقام من «كريستيان» وجماعته. كنت تارة أخرى الزّعيم الفعلي للثّوار وكنت أنا الذي رميت بالكابتن «بلاي» ـ لا رحمه اللّه دنيا وآخرة ـ إلى البحر لانتقم لي ولبحّارة البونتي من ظلمه وجبروته.

لقد تقاذفتني أمواج المحيط من جزيرة إلى أخرى أسقط تارة في قبضة عمالقة وأخرى في قبضة بشر لا تتجاوز قامة أطولهم إصبعي ثمّ إنني وصلت جزيرة نائية حيواناتها آدميون يدعون الـ «ياهو» وأسيادها وحكماؤها مطهّم الخيل وكان اسمي في هذه الرّحلات «جلفر».

ثمّ إنّني وجدت نفسي يوما على خشبة طافية على سطح المحيط الهادي وهي كحبّة رمل تائهة تذروها رياح الصحراء وكان أبناء جنسي من «المواوري» يرمقون الأفق بين رعب لا يوصف وانبهار لا حدّ له. كنت أقول لهم غدا سنصل شواطئ «زيلندا الجديدة» وسننعم بخيراتها لأجيال وأجيال قبل أن تصل جحافل الرحّالة البيض. وكنت أنا أيضا ذلك العبد الموثق الأغلال الذي اختطفه النّخاسون مع المئات من بني جلدته يصدّرونه كأيّ حيوان أسير من احراش إفريقيا إلي شواطئ عالم لم يكن له من الجديد إلاّ الاسم.

كنت طبعا ـ وهل كان ممكنا لرحّالة كبير مثلي أن لا يسافر تلك السفرة ـ الرّاكب المخفي في أعماق «البيجل» أراقب «داروين» أحاول فكّ رموز خطّه وهو يكتب ملاحظاته عن حيوانات ونباتات خرافيّة.

ولم يكن ممكنا وأنا الذي لم أترك رحلة إلاّ ودخلتها رغم أنف أصحابها أن لا أكون من بين أولئك الأسبان الذين غادروا سواحل معروفة ميمّمين باتجاه الأفق الغربي يتقاذف المحيط المخيف قواربهم الثلاث كألعوبة بين يدي جبّار. لقد عشت معهم رعب الموج اللاّمتناهي وامتداد الصحاري الخضراء الدّاكنة تواصل نفسها وتكرّرها وكأنه لم يعد من معنى لكلمة نهاية وككلّ بحارة «سانتا ماريا» عانيت من تلك العواصف الرهيبة التي كانت تهبّ على الروح تتقاذفها كما تتقاذف أمواج البحر المحيط القشّة الطّافية فوقها ولما انهار كلّ أمل ومثل الموت كنت أنا الذي صرخ من أعلى سارية أعيد الحياة للمحتضرين: الأرض أنها الأرض وكان علي أن أصرخ إنها «أمريكا» لكن ذلك حدث في قصّة أخرى.

نعم زلّ مني اللّسان لما أبصرت الساحل من فوق أعلى سارية «ألماي فلاور». صرخت في الركّاب المساكين أشجّعهم على آخر جهد: إنها أمريكا إنّها شواطئ «انجلترا الجديدة» وعلى أرضها ستبنون نواة لأمّة عظيمة.

ثمّ إنني أبحرت مع «طور هايّاردال» ورفاقه الخمسة في تلك الرّحلة المجنونة على ظهر جذوع اشجار «البالسا» الجبّارة مربوطة بالحبال نشق أمواج المحيط الهادي على ذلك المركب الغريب «كونتيكي» نقتفي على امتداد ثمانية آلاف كيلومتر آثار بحّارة خرافيّين يقال أنّهم ربطوا بين شواطئ «البيرو» والجزر البولينيزية. وكم من مغارة تحت ألف قدم من

الماء زرتها بغواصتي الصفراء مع «فالكو» و«كوستو» أسلط شعاع النور على المخلوقات العجيبة المحتمية بظلمة الأعماق والمتجمّعة حول تلك المنابع المائية الساخنة واحات حياة حيث استعصت الحياة على كل حيّ.

يمتلئ الملفّ بصور جزر ومحيطات لن أصلها يوما وأتعرّف على كبار الرحّالة الذين ولّو انقرضوا منذ عصور وهم لا يزالون إلى اليوم أدلّة لكل أطفال العالم.

يتصادف إنني عايشت ظهور وتجدّد وسائل الرّحلة وهكذا ركبت بعد البغال والجمال والحمير وشتّى أنواع السّفن الخشبيّة أغرب أصناف الآلات الطائرة والطافية الموجود منها وتلك التي لم تخلق بعد.

هكذا حلّقت إلى الفوق بعد أن تمكّن منّي الحنين إلى الأعالي أقود بحذر «النسر» وهو ينزل بهدوء على سطح القمر وكنت أنا الّذي رقص طربا لأوّل مرّة على سطحه الأغبر والكوكب الأزرق يصعد بكلّ جلاله وجماله من وراء الأفق.

ثم إنني توغّلت إلى ما فوق الفوق إلى مجاهل الفضاء اللاّمتناهي نفسها.

نعم كنت مع «داف بورمان» الشبح المتولد من فكر «ارثور كلارك» يوم استطاع إخماد تمرّد «كارل» الحاسوب المجنون الذي قتل كل ملاّحي «ديسكوفري» ليكون القائد الأوحد ثمّ إنني أعطيت معه الأوامر لتنفتح أبواب السفينة الفضائية المهيبة ثم إنني أخرجت المركبة الصغيرة من إسطبلها وأدرت لجامها نحو ذلك الجسم الأسود الغريب المتمركز أمام «المشتري» والذي اكتشفته مطمورا تحت سطح القمر ثم إنني نزلت على سطحه فإذا به بئر بلا قاع وكان بوابة للنجوم وهكذا دخلت ما وراء ستار اللّيل لأرى ما لم يره آدميّ.

لكم أرعبتني وأبهرتني المجرّات وهي تتدافع بسرعة مهولة نحو اللاّنهائي ولكم روّعتني ملايين الشموس وهي تتولّع وتنطفئ ولكم دوّختني الكواكب وهي تعجّ بأغرب الكائنات وكم أتخمتني قصصها فلم أعد أقوى على مزيد.

كانت رحلات بحقّ ولم تكن وهما.

لقد كنت أعيش ارتعاشات وخلجات نفوس المرتحلين الذين كنت أدخل عالمهم بدون استئذان. كنت واحدا منهم وواحد مثلهم وكانت كلّ المشاعر والأحاسيس المبهمة التي تعصف داخلهم تعصف داخلي وكأنني سكنت أرواح المغامرين أو هم سكنوا روحي.

نعم كنت أقاسمهم رهبتهم وهم تائـهون في البراري المتموجة الخضراء. كنت احسّ ببرودة الوحدة وأنا تائه معهم بين الكواكب وكان الانبهار يغطّي على كلّ رعب وأنا أكتشف مع «بوجانفيل» تلك الجزر التي تشبه الجنّة كما ورد وصفها في قصص تحتلّ رفوفا أخرى من المكتبة وكم تألّمت وأنا أموت مطعونا مع الكابتن «كوك» وهو يرتطم بممثلين آخرين في الملحمة.

كنت أشارك الصيّاد «الإسكيمو» المرهق بكلّ هذا البياض الذي يعمي إرهاقه وعماه وكنت مثله في شوق يغالب الرّهبة إلى «نانوك» الدبّ الخرافي المترصّد بكلينا.

كم كنت أشعر بالاعتزاز يوم وصلت شواطئ «البرتغال» بعد أوّل رحلة طوّفت فيها حول الكرة الأرضيّة وكم كان فخري صامتا وتواضعي مفتعلا وأنا أرفع علم المملكة التي خدمتها وفتحت باسمها القارّات والأرخبيلات والجزر.

ثم إنني تعلّمت فنونا أخرى من الرّحلة داخل الأدمغة هذه المرّة وذلك عبر عالم «فيليب ديك» ذلك اللاواقع الأواقع المجنون الذي يسكنه قرّاء الأفكار وهي تتكوّن داخل الأدمغة والراجمون بالغيب وشتّى أصناف المجانين والمدمنين على المخدّرات التي لم تخلق بعد. كنت أؤوب من هذه الرّحلات وقد اختلطت وتداخلت المعالم والحدود والأشكال والأزمان ولم يعد هناك من معنى للتّفريق بين الحلم واللاّحلم وكانت غالبا سفرات داخل كابوس.

هكذا مرّت السنوات والعقود وأنا أدخل القصّة تلو القصّة فلا أزداد إلاّ جوعا وعطشا. أرتحل إلى هذا القطب أو ذاك مع كل مغامر صنديد أتسلّق هذه القمّة أو تلك من جبال «الهمالايا» مع رجال اتعبوا التعب أتبع ضفاف «النيل» أو «الأمازون» أضيع في صحاري آسيا الوسطى أجد طريقي في سهول «البامبا» مع قوم لاتشحذ هممهم إلاّ الصعوبة والتّحدي أرتطم بجبال «الأندس» وأنا أيمّم وجهي طائرا نحو «الشيلي» مع «مرموز» تتحطّم بي الطائرة مع «سانت اكسبوري» وادخل ألف جزيرة عذراء مع ألف «روبنسون».

إنّني لم أترك رحلة سمعت بها إلاّ ودخلتها واستبطنتها وجعلتها محملي وركابي ويوم تعبت من السفر عبر المكان جعلت الزمان لي سرجا.

أحبّ خاصّة تلك التي تحملني إلى مجاهل المستقبل أتجوّل فيه مراقبا تطور حضارات لم تبنَ وشموس لم تتكوّن وعوالم ما زالت في المهد وزمن غادرته وهو يتموّج ويتلاطم وهو يغلي وهو يرعد ويزبد وهو يتحرّك في كلّ الاتجاهات وكأن لوثة من الجنون أصابته. هكذا رأيت الموجود ينطفئ فجأة كالشمعة أنهت جسمها ثم رأيته ظلاما دامسا... حركة هامدة بطيئة أين كان هيجانا دائما ورأيته فوضى بعثرته يد الأقدار وكان نظاما يغالب الفوضى ويغلبها.

كم من مرّة تابعت عاجزا انهيار واندثار الأجناس والحضارات والكواكب والأكوان. كم من مرّة أضعت الطّريق والصّواب وأنا أبحث عمّا بقي من الآدميين في أعماق الغابات والاحراج التي التهمت حواضر ضخمة شهدت سطوة الإنسان. كم من مرّة حملت عصاي أبحث في مجاهل الكون المترامي الأطراف عن النّاجين من آخر كارثة فلا أجد إلاّ بقيّة من ملامحهم على وجوه كائنات غريبة.

ها قد أصبحت لي حواس تستطيع أن تتلمّس أبعد الشموس وبصر يمكن أن ينقّب داخل الذرّات وأن يتغلغل داخل كلّ الفضاءات المغلقة لكلّ الكواكب ها قد تعلّمت لغة

قادرة على تسمية كلّ موجود أتابع انطلاق الزمان من منبعه إلى مصبّه الهادر.

ثمّ إنني كنت أركب مخيلة قصّاصين آخرين لأبحر في الاتجاه المعاكس أتجسّد فجأة لفلاّحين مرعوبين من أحراش أوروبا وهي تتخبّط في قرونها الوسطى أو أحضر محاكمة «سقراط» شاهد عيان لقصّة بطلها الغباء المتجدّد الأزلي أو أمسح بيد لا تلمس شعر «عيسى» وهو يئنّ على الصليب. كنت لا اتذكّر معركة كبرى إلاّ وحضرتها.. لا أسمع عن ثورة عظمى إلاّ وساهمت فيها وكنت أضحك دوما من روايات المؤرّخين المساكين لها.

كنت أخرج لأصطاد فيل ما قبل التّاريخ الهائلة الضخامة مع صيّادي «سيبيريا» يعضّني البرد بنواجذه الحديدية وكنت أدخل عندما يأتيني الشّوق إلى بداية المغامرة الغابات أتراقص على أغصان شجرة عجفاء. تأتيني فجأة فكرة غريبة لا أجد دفعا لأمرها. إنّها تدفعني لأخرج من العتمة.. لأمشي خببا على قوائمي الأربعة. لسبب أجهله تراني أمسك بعصى معقوفة أمدّد ظهري إلى الفوق أرفع الرأس فوق ظهري المستقيم فإذا بي واقف إذا بي أوّل إنسان يقف على رجليه.

تمتدّ أمامي رحاب الاسم - العالم تنتظر أن أغزوها وأن أملاها صخبا وأن أبذر في أرجائها جماهيرا من ذرّيتي.

ثم أنني كنت أحاول أن أجد لي اتّجاها آخر للزمان فلا أكتشف له بعدا آخر غير القبل والبعد وهكذا كنت أضطرّ مكرها إلى العودة إلى النّقطة المتحرّكة من الزّمان التي تسمّيها اللّغة الحاضر لا أتردّد لحظة في امتطاء ظهر المخيّلة كلّما أمكنني ذلك مدفوعا بقوّة قاهرة قابلا أن الموجود ليس ما نعرف فقط وإنّما هو بصفة لاتقلّ طبيعيّة وشرعيّة ما نعتقد ونتخيّل.

تواصل قصص الرّحلات هيكلة فكر الطّفل. تبلور الصّور التي تتابع في ذهنه تصوّرا عن عالم الرّحلة وقد انمحت الفوارق والحدود بين ما يسمّى واقعا وما يسمى خيالا.

* * *

أفتش في ذاكرتي فلا أجد إلاّ هي وأنت أيضا بنيت منها عالمك الذي تسكن.

أصغ السمع مليّا وطويلا لكلّ هذا الصّخب وستكتشف أن أهمّ مافيه هو مرحلة من مراحل تطوّر القصّة التي ننسج والقصّة التي تنسجنا والقصّة التي نروي والقصّة التي تروينا والقصّة التي نردّد والقصّة التي تردّدنا.

أنت لا تفيق إلى الحياة إلاّ على همسها. تروي لك وأنت تغالب النعاس لا تضيّع منها حرفا. لسبب تجهله ستصرخ وتبكي مطالبا بالمزيد منها. تبقى تجري وراءها تبحث عنها في كلّ مكان تغذّي بها نهما لا يفتر وفضولا لا يشبعه شيء. تتبادل مع رفاق الرحلة وفي كلّ لحظة من لحظات السفرة المقدّسة ما سمعته وما سمعوه من قصص ومنها تبني من أين تدري

ولا تدري قصّة حياتك أنت. تصبح أزيد تعطّشا لها بطوافك المتسارع حول الزمان الواقف.

هكذا ستبحث عنها في سمر اللّيالي وستستخرجها من بطون الكتب وجوف أغرب الآلات. ستنقّب عنها في الإشاعات المهموسة والحكايات المحبوكة والتمثيليات والأساطير والفلسفات والأديان والعلوم والأشعار.

هي تحيط بك وتتغلغل فيك وأنت لها سجين طائع وعبد راض لا تنفصل لا تتباعد لا تخرج منها أو عليها وإلاّ كان ذلك كخروج البطل من الشريط السينمائي إبّان العرض على الحائط ليتجسّد داخل القاعة ناقدا عارفا بشؤون النظارة وأسباب وجودهم داخل القاعة. أنت لا تخرج من القصّة مثلما لا تخرج من الموجود لأنّك لا تدخل الموجود إلاّ عبر قصّة ولا تعبره من باب الدخول إلى باب الخروج إلاّ ساردا حابكا لألف قصّة وقصّة.

تحضرني أيضا أسماء بعض مشاهير الرّواة. أذكر قصّة رائعة عن الأمومة قرأتها لـ «قوركي» عن الأبوّة لـ «بلزاك» عن البنين والبنات لـ «شكسبير» عن الأزواج والزوجات لـ «دستويفسكي» عن النفس وكيف أنّها منزل بطوابق ثلاث لـ «فرويد» وعن الانتصار الحتمي للمستضعفين لرجل إسمه «ماركس» عن الانتصار الضروري للسادة لرجل اسمه «نيتشه».

تحضرني هنا بعض أسماء أبطال قصص يعرفها كثير من رحّالة هذا العصر.

وقد تكون سمعت بقصّة «هرقل» وقصّة «قلقامش» وقصّة «عنترة» وقصّة «روميو» وقصّة «جوليات» وقصّة «الحلاّج» و«ابن المقفّع» و«موزار» و«قاليلي» و«لاو تسو» و«هيراقليط» و«بيثاغور» و«نلسن مانديلا» و«الأسكندر المقدوني» و«الحجاّج» و«باستور» و«شرلوك هولمس» و«رابعة العدوية» و«يوليوس قيصر» و«مارلين مونرو» و«حمورابي» و«ماوتسي تونغ» و«أبوقراط» و«دراكاولا» و«رامبو» و«فرانكنشاين» و«بيكاسّو»... و... و.....

هي تتزاحم على شفاه المتجمّعين حول النّار مذ وجدت النّار. هي تحتلّ رفوف المكتبات وصفحات الجرائد وشاشات الآلات المتزايدة التعقيد التي اخترعها المسافرون ليخلقوا ويحفظوا ويشيعوا أعدادا منها بتطوّر خلايا السرطان.

إنّها قصص أفراد أو مجموعات عمقها كل الزمان أو لحظة من لحظاته مسرحها الكون أو فترة من ذرّاته أبطالها بشر أو آلهة كائنات موجودة وأخرى لم تدخل بعد عالم المحسوسات. إنّ منها ما تتعلّق بولادة الكون ومنها ما تتعلّق بخصومة أطفال. هي تارة بدون قناع أو هي تتقنّع تحيط نفسها بهالة القدسية فتتسمّى دينا تفتعل الجلال فتقول أنها شيء اسمه الفلسفة أو تدّعي أنّ روايتها للعالم علم بحقيقته المكنونة وليس أدبا بأرقام.

إنّ منها ما يعبّر الزمان تتوارثه أجيال متتابعة من المسافرين ومنها ما لا يتخطّى عتبة دار منها من تخلّد ومنها من تموت لحظة الولادة.

إنّها قصص متجدّدة رائعة مبهرة مرعبة حيّة تروي نفسها بنفسها تعايش أحداثها

وتصنعها في آن واحد. إنّها قصص بالمعنى وبدونه لها قصص تتكرّر بثبات مملّ تتغيّر كلّ آونة ولحظة في هذا التفصيل أو ذاك. تكتبها الجحافل وتكتبها الجماعات الصغيرة ويكتبها الأفراد لتروي كلّها ضربها في الاسم ـ العالم وتجربتها فيه.

هي لا تترك موضوعا إلاّ طرقته ولا زمانا إلاّ وتوغّلت فيه ولا مكانا إلاّ جعلت منه مسرحا تحتله دون استئذان. إنها حديث مسترسل متجدّد مع وعن الأشباح.. عن الأحياء عن اللّغز عن المشاريع.. عن الأحلام والأوهام.. عن الحقيقة والغرابة... عن المعقول واللاّمعقول.. عن دعامات المسرح... عن الممثلين والنظارة والممثلين.

ما أكثر القصص عن ظروف وملابسات أيجاد الموجود... عمّن كانوا أو من كان وراء هذا الصنع... عن الهندسة والخطّة التي انبنى عليها وعن مادّة صنع منها اسمها المادّة ومادّة صنع منها اسمها الروح عن بدايات متعدّدة ونهايات مختلفة عن الحقيقة وعن اللّغز عن الرموز عن الخلق وأسبابه عن الحياة عن الموت عن كون انفجر من نقطة لا حجم لها ثم توزعت أشلاؤه على امتداد الفضاء ثم تجمّعت هنا وهناك في كتل ملتهبة وكتل صلبة لتتمخض منها الحياة. أذكر قصّة عن كون ولد من بيضة ومن ثعبان ومن نقطة مبهمة بدون اسم. أذكر أنني سمعت من يقول انّه آلة محكوم بقوانين الميكانيكيا ورواية تقول انّه من صنع صانع له أسماء وصفات مختلفة أذكر حكايات لا حصر لها ولا عدّ عن وجود الموجود لراوي اسمه «الياد» عن ألف إله وإله عن ألف شيطان وشيطان عن أجداد انقرضوا ولم ينقرضوا يعودون ليلا إلى منازل الأحياء ليعاقبوهم على تناسيهم.. عن الذين ماتوا بعيدا عن منازلهم وعن أرواحهم التائهة التي يجب أن يعبّد لها الطريق عبر الغابات أن توضع لها علامات وإشارات وقناطر رمزيّة فوق الأنهار المتدفّقة لكي لا تضلّ طريقها إلى البيت.

أذكر قصّة عن الطوفان وعن مركبة أنقذت الكائنات عن إله خلق الكون في ستّة أيّام واستراح اليوم السابع عن نبي تاه في الصحراء مع قومه عن نبي دخل البيت المقدّس منتصرا ليكسّر الأصنام عن آخر علق على خشبة لأنّه ادعى أنّه ابن الله.

أذكر قصّة عن كهنة يخرجون للبحث عن الطّفل الملك من بين أطفال الشعب ليجعلوا منه حلقة الوصل بين السّماء والأرض وأخرى عن أمير حبسه أبوه في قصره لكي لا يرى فظاعة الموجود واكتشافه لهذه الفظاعة والحرب التي شنّها لتخليص الكائنات من آلامها وكيف أنّه قال لحظة موته: «لن يبقى من تعاليمي إلاّ الطّقوس».

هناك قصص لاتحصى عن «الحقيقة» المحجوبة.

أذكر منها ما روى عن كائن مخفي هائل خلق هذا الموجود ووضع بينه وبين الآدمي سبعة وسبعين ألف حجاب من عتمة ونور لا يتجلّى لمخلوقاته إشفاقا لأن العين لاتبقى سليمة إذا انفتحت على ألف شمس-وشمس.

هناك رواية أحبّها كثيرا عن الكشف ورفع النقاب عن المستور.

يدخل الرحالة نفقا يروم المحجوب. يرفع النقاب تلو النّقاب. لا يزيح واحدا إلاّ ليفاجئ بمن يليه. ينتهي إلى آخرهم. وفي مثل هذا السناريو لا تسطع شمس الحقيقة الحارقة للعينين إنّما يكتشف المغامر بدهشة أنّ وراء آخر نقاب مرآة لا يرى فيها إلاّ وجهه المشدوه.

وأذكر قصّة عن الدينصورات التي اختفت لأنّها رجمت من السماء بحجارة كبيرة وكيف أنّ إخلاءها السّاحة لجنسنا هو الذي سمح لنا باحتلالها. أذكر قصصا عن بزوغ وتوهّج وأفول ممالك وحضارات لراوي اسمه «توبيي» قصصاً عن فتوحات ومغامرات عن إمبراطوريات شيّدت وتهدمت وعن حروب وغزوات وآثام عن فرعون اسمه «أخناتون» كان يعبد الشمس وعن آباء له بنوا لأنفسهم قبورا عملاقة وله روايات كثيرة عن الإمبراطورية الفلانية أو العلانية وبقيت من قراءتي له معلومات مبهمة عن قصّة الثورة في بلد اسمه فرنسا وقصّة الثورة في بلد أسمه روسيا وقصّة الثورة في بلد اسمه الصين وقصّة الثّورة في بلد أسمه أمريكا وقصّة الحرب الأولى وقصّة الحرب الثانية وقصّة الحرب الواحدة بعد الألف وقصّة القمع في ألف مكان... وقصّة متجدّدة عن فاتح دوّخ أعداءه اسمه الإسكندر ـ نابليون ـ جنكيز خان ـ شاكا ـ أشوكا ـ خالد. ثمّ هناك القصص التي تروى الشيء الجميل عن واحات ضليلة يجب أن نصل إليها وفيها ستلتئم كلّ الجراح وتنتعش كلّ الآمال وكم من قصص رائعة أو رهيبة تولّدت عن جري المرتحلين وراء ألف سراب وسراب.

وهناك قصص أكثر تواضعا منها تلك التي تتواصل كلّ يوم تحت بصري. تمتلئ ذاكرتي أيضا بذكريات متفرّقة عن حوادث يقال إنها أقلّ قيمة ولا أقتنع أنّها كذلك.

أذكر قصّة شيّقة عن تلك المرأة التي كانت تربح مهلة من الحياة يوما من أيّام حياتها بفضل قصص لا تنتهي عمدا... عن الطفل الذي وجد مصباحا فيه عفريت مسجون كافأه بتحريره من القمقم بأن أعطاه الحق في ثلاث أمنيات... عن أمير أسير شاعر تناساه قومه فقال كلاما جميلا يعجبني دوما سماعه وترديده.

أذكر ما قرأت عن ملك فتح بطن مائة خادم ليكتشف من سرق له بطيخة وعن أناس سقطت بهم الطائرة على قمّة جبل شاهق فأكلوا الأموات للبقاء على قيد الحياة وعن سفّاح اغتصب وقتل أربعة عشر طفلا وعن جارين اختصما إلى المحاكم عشرين سنة لأن أحدهما استولى على عشرين سنتيمترا من عرض الشارع. أذكر قصصا عن مغامرين نسيت أسماءهم جابوا أصقاع الأرض أو طلعوا إلى أعلى قممها أو نزلوا إلى أبعد نقطة ممكنة تحت سطح البحر أو جابوا الفيافي والأدغال والبحار والمحيطات. أذكر قصصا عن الدلفين الذي أنقذ بحّارة أغرقت العاصفة زورقهم عن القردة التي تخطف صغار الإناث تربيها لتتزوجها فيما بعد عن أسد البحر الذي يمضي جلّ حياته في حماية حريمه من الإناث من خصومه

ليغلب أخيرا.... عن غزالة افتعلت الموت والصراع محتدم حولها بين اللبؤة والثعلب وكيف أنّها وثبت لتنجو منهما وهما في أوج صراعهما... عن حوت ضل طريقه في المحيطات فرمت به الأمواج على الشاطئ وبقي آدمي أياما وأياما يصبّ على جسمه الماء حتى لا يموت إلى أن جاءت الأمواج فأخذته مجدّدا للحياة وعن عودته مرارا إلى تلك الشواطئ كأنّه يبحث عن صديق أنقذه من الموت.

تواجهك القصص بالكثرة والإفراط والمبالغة التي تعرفها في جلّ تمظهرات الموجود وقد تصاب بالإحباط وأنت تقتنع أن أهمها تلك التي لم تر النّور أنّه حكم علينا أن لا نعرف إلاّ أقلّها لأنّ الأحداث تدافعت في مفترقات الطرق يمنة لا يسرة لأنّها تفرّعت فيما بعد يسرة لا يمنة.

يحملني الخيال إلى بعض تقاطعات الطّريق أتصوّر العدد الهائل من القصص التي لم يكن مقدّرا عليها أن لا تحصل.

يتعالى الصراخ في المحضنة. تتراكض الممرّضات. يتدافع الأطباء بالمناكب... عبثا.

ـ أسرعوا ـ أسرعوا لقد رأيت المجرم يفرّ من النافذة.

ـاللّعنة حتّى الرضع لم يعودوا في مأمن... يا إلهي كلّ هذا الدم..

ـ يا للفظاعة يا للفظاعة يا للفظاعة... إنّه ذبح... ذبح.. ذبح.

ـ يا للرضيع المسكين. لم أر أجمل من عينيه الزرقاوين.

ـ الصمت.. الصمت.. يجب إعلام الشرطة حالا وإعلام الأبوين ما اسم هذا الطفل المسكين.

(عويل يصمّ الآذان)

ـ كفى هستيريا أيتها المرأة الغبيّة. من هذا الرّضيع.

ـ هو «أدو» الضحوك يا سيّدي.

ـ أنا أسألك عن أسمه ولقبه.

ـ اسمه أدولف سيّدي... أمّا لقبه فلا أتذكّره.. آه نعم. إنّه مكتوب على ملفه أدولف... هتلر وعنوان أبويه......

فجأة تتقيّا الممرضة «راشيل كوهين» ثمّ يغمى عليها من فرط الرعب والألم. كان «ادو» الضحوك رضيعها المفضّل في كلّ المحضنة.

* * *

هكذا تتداخل في القصّة وفيها وحدها مستويات ماكان وماقد يكون وماكان بإمكانه

أن يكون. يتمازج الماضي والحاضر. يحضر المستقبل عنوة ليبوح بأسرار لم تكتب بعد. تواجه الوفرة والكثرة وقد تصاب بالتخمة والغثيان أو قد تصاب بالإدمان شعارك شعار جهنّم هل من مزيد.

تدخلني القصص بدون انقطاع كما يدخلني الهواء والطّعام ولا أرى لي عيشا أو لذّة بدونها أحيا منها وبها دون أن أتساءل عن وظيفتها ومغزاها إلى أن تجبرني الكتابة على فهم الدّور الذي تلعب في الرّحلة.

ومن وظائفها بداهة تبادل اللّوحات والصور عن عالم لن تكفيك الأبديّة للسياحة فيه. من أين لي ولك الزمن الكافي لننظر إلى الاسم ـ العالم من كلّ زواياه لنتحسّسه من كلّ نتوءاته.

هي تضع «الديكور» فيكتشف الطّفل ألف وجه للعالم يجهله يزوره ويزورّ عنه وهو يتمطّى كسلا فوق فراشه.

اذكّر أنني لم أر عبرها البحار على كواكب مترامية البعد وإنّما رأيت أيضا قمما مكلّلة بناصع البياض ووديانا سحيقة الغور وأنهارا متدفقة جارفة قاتلة بعض الوقت وأغلبه صامتة متماسكة كالحجرّ وفي هذا الاسم ـ العالم ينزل طريق واحد من الفوق إلى التحت. يقف حائرا أمام هذه الوديان الجبّارة. يعبرها طافيا على قربة من جلد الماعز أو متردّدا خائفا وجلا تحمله قنطرة من الجليد قد تخسف به في أيّ لحظة فينتهي الطريق غريقا ثم هو يتواصل إذا نجا من الغرق نزولا إلى حيث تظهر بعض الحيوانات التي لا أعرفها والتي لم تسمع عنّي يوما وحيث تبرز نباتات لم أرها قط ولا هي مهتّمة بوجودي وحيث هناك قبائل من الآدميين المنسيين على قمم تلك الجبال الجبّارة التي يسمّونها «الهمالايا».

تتحرّك هناك شياطين غير التي تربّيت عليها وأصبحت معلما من عالمي. لا علم لهم بـ «ابليس» وهم لا يقيمون الطقوس لـ «اللّه» ولا يشق آذانهم آذان إنّما قرع لطيف لأجراس أو نفخ في الصور.

هي توسّع مجال الرّؤيا إلى أبعد الحدود الممكنة ولا يوجد شيء يمكن أن يضاهيها في القيام بهذه المهمّة ومن موادّها بنيت دعائم عالمي وأعجز عن تصوّر أيّ شكل له قد يتّخذه خارجها.

تواصل القصص بناء هيكل المعبد المقدّس في إطار عمليّة لن تعرف يوما نهاية أو اكتمالا. توسّع حدوده إلى ما لاقبل لأحد بتصوّره تضيف الغريب إلى الغريب والسّحر إلى السّحر.

ها هي تصل بمجال الموجود إلى آفاق لاقبل لي بتصوّرها أو بفهمها عبرما ترويه بعضها عن أماكن اسمها «الآخرة» و«العالم المضادّ» و«الكون».

تروي القصّة «ولادة» هذا الأخير لا كبروز وتطوّر مفاهيم وصور في ذهن الآدميين وإنّما كحدث طبيعي مثل ولادة اللّقلق والفراشة.

يبهرني أنّها دوما أنّها نفس القصّة عن بيضة أولى تفقّس منها كلّ موجود وفي القصّة المعاصرة تكون البيضة المقدّسة نقطة متناهية الصغر تنفجر لسبب ما ترمي بشظاياها إلى أصقاع الفضاء الّامتناهي ومن هذه الشظايا تتكوّن الشموس ومن شظايا أخرى تتكوّن الكواكب ومن لبنات هذا وذاك بنى جسمي وجسمك وهكذا نكون أطفالا للنجوم وهكذا يفهم الكهل أو بالأحرى يجد تبريرا لحنينه المبهم دوما إليها. أليست الرحم الأوّل الذي اعتملت داخله الذرّات التي تدافعت من هنا وهناك لتبنيني وتدخلني الأدوار والقصص.

ها قد أصبح عالمي أمكنة متعدّدة أقتطعها من فضاء الصلب وفضاء الصلب هذا جزيرة عائمة على البحر الواحد والبحر الواحد كوكب أزرق يدور في فلك نجم من بين ملايين الشموس المتناثرة وكلّ هذا موجود داخل «الكون»... هذا الإطار الذي يحتوي كلّ القصص وكلّ الرّحلات.

أكون بهذا قد أبعدت حدود القبّة المشرفة على الصلب إلى مسافات لا يمكن لعقل آدمي أن يحيط بها وأبقى عاجزا عن تصوّر ما الذي يمكن أن يحوي بدوره الكون وهل هناك كرة أضخم تتخبّط داخل فضائها أكوان مكورّة مستديرة.

لم يعد أدنى معنى وقد وصلنا إلى هذا المستوى من الضخامة والاتساع لأيّ أمل أو طموح في استكشاف أو علم. لكنّه لاحدّ لتعقيد القصص وهي تحاول استشراف طبيعة العالم وحدوده.

تتحدّث بعضها الرّائجة في دوائر محدودة عن «عالم مضادّ»!.

«أنا» في هذه القصّة العجيبة واحد ـ اثنان.

يكتب الآن وراء «المرآة» شخص يشبهني في كلّ شيء هذه الحروف وهو سيتصرّف كما أتصرّف ويفكر كما أفكر في كلّ ماسيأتي من زمان كما فعل منذ بداية الرّحلة هو يتوسّط نفس الاسم ـ العالم لا فرق بيني وبينه في أي مقطع من مقاطع القصّة سواء أنه يكتب بيده اليسرى وان ما اسميّ يمينا هو يساره وما يراه يساره هو يميني.

إنّه الآن يخطّ نفس الحروف وينظر إلى وجهه في المرآة الخيالية يحاول أن يبصر توأمه وهو بين استغراب وتضاحك حرج وفيه خشية أن يدخل عليه بغتة أحد فيظنّ أن به مسّا من الجنون.

إن السّؤال الذي تثيره هذه القصّة هو طبعا السؤال الذي يعتمل داخل الأنا ـ الآخر: من الأصل ومن الصورة في المرآة أين توجد المرآة وما هي طبيعتها من الاسم ـ العالم ومن الاسم ـ العالم النسخة طبق الأصل وهل للسؤال من معنى وما تفسير وجودي واحد مدبلجا.

إنّها أسئلة طريفة لقصص ما زالت تبحث لها عن أكثر من قصاص ملهم.

أمّا «الآخرة» وكان عليّ أن أبدأ بها لأنها من أقدم الصور في ذاكرتي فإنّها طرحت للطفل وهو لم يتخطّى أضيق دوائر الاستكشاف أكثر من مشكلة.

تأتيني بعض الصور المبهمة عن هذه الآخرة التي دخلتها مرّتين مع قصّاص أسمه «المعرّي» وآخر أسمه «دانت» وسمعت عنها الكثير من المرأة أمّي.

إنّ هذه الآخرة حسب المصادر المتنوعة المكان الذي يلغى فيه المكان والزمان الذي يموت فيه الزمان. لا أعلم هل هناك بين الجزأين حدود وحرس وبوّابات عبور.

هي منطقة الرّحلة ما بعد الرّحلة أو هي تواصل الرّحلة بوسائل أخرى ولأهداف أخرى. إنّ لأغلب المسافرين صورة ما عن هذه المنطقة ولو أن الإجماع غير تامّ والمسألة على قدر كبير من الأهميّة لأنّ الموضوع المطروح من خلال بناء هذه الصورة هي طبيعة الرّحلة نفسها.

إنّها عالم داخل الاسم - العالم أو عالم خارج الاسم - العالم أو عالم وراء الاسم - العالم أو عالم بعد الاسم - العالم أو عالم قبل الاسم - العالم المهمّ أنّ هناك قصّة تقول التي على موعد مع الأحبّة الذين ذهبوا ومع كلّ الأشباح الذين تعاقبوا على خشبة المسرح وعن هذه الآخرة ياما سمعت من قصص مبهرة مرعبة لعبت أكثر من دور في توجيه دقّة حياتي.

لا غرابة في ذلك لأن أحدا لم يدخل مجاهلها ولم يبحر على بحر غضوب ليصل شواطئها ولم تجهّز أيّ وكالة أسفار كونية صاروخا عملاقا لينزل بجلال على سطحها.

تصف المصادر التي لا مصدر لها الآخرة بأنّها تتشكّل من منطقتين مختلفتين أشدّ الاختلاف فهناك جزء تسميه الجنّة وآخر تسمّيه النّار ويحضرني أنّه قد يكون قلب إحدى هذه النجوم الرهيبة العدد وهكذا أكون قد ربطت بتعسّف المخيّلة عالم المحسوس وعالم الخيال.

أتصوّره عالما حارّا ملتهبا، بحرا من المعدن المغلي الذائب تخترقه تيّارات هوجاء مجنونة. يبقى هذا المكان كما أتصوّره فقيرا لا لون له إلاّ لون واحد حمرة مصفرة لا غير ولا شكل له إلاّ شكل واحد: اللاّشكل لا شعور ولا إحساس فيه إلاّ شعور واحد وإحساس واحد.. أقصى الألم والعنف.

نفتح الملف الثاني لنواجه بصورة الجزء الآخر واسمه الجنّة. إنّ بني قومي يتصوّرنها واحة غنّاء فيها ملذات كلّ الحواس ويتصوّرها الهنود الحمر مساحات مفتوحة لصيد ابدي لا ينعدم فيه ثور «البيفالو» ويتصوّره النسّاك وجه اللّه وأتصوّره المكتبة التي يمكن أن أجلس إليها وقد تركت الزمان في مدخل القاعة مع معطفي وحقيبتي. هي المكتبة التي أستطيع أن أفتح ملّفاتها لأدخل وأمثّل كلّ القصص وألعب كلّ الأدوار... المكتبة التي أجلس إلى أسرارها كما أجلس للكلمات المتقاطعة إلى مصاعبها كما أجلس لمباراة شطرنج مع ابنتي

إلى محتوياتها من أرشيف كلّ الكلّ كمن يتجوّل في مغازة كبرى لينتقي ما يعجبه وما يحتاج إليه.

الثابت أن لا أحد يدخل هذا الجزء من الموجود بحواسّ محمولة بجسم قدّ من لحم ودم يجب أن تترك هذا الجسم وديعة عند الأرض وأن تخرج منه كما تخرج الموسيقى من القيثارة نوبات متموّجة لم يعد يربطها بآلات القرع والنقر والكبس والنفخ إلاّ ماض ولّى وانقضى.

إنّها الآن مطيّتك أو أنت مطيتها لتستكشف جزءا من جزء من القصّة لا يخضع لما تعرف وأنت جسد متجسّد تنقل حواسّك الستّة بفضل رجلين أو آلات.

لكم تصوّرت المسافر كفقاعة من الهواء ينفثها الـ... تتطاير أمامه ملايين الكرات الشفّافة وهي من هوائه ومن صنعه وهي من خياله وهي من ألوانه وهي من أشكاله.

ثمّ رأيت هذه الكرات الشفافة تنفجر ليعود الهواء إلى الصدر الذي خرج منه ليعاد تشكليها في كرة شفافة جديدة بحجم آخر ولون آخر وديناميكية أخرى.

وهكذا إلى ما لا نهاية.

في مثل هذه القصّة تكون الآخرة ذلك الجزء الغريب من الموجود الذي تمزج فيه الأجسام والذكريات لإعادة الصنع وقد تشارك بقاياك في صنع ألف كائن غريب لألف قصّة لا قبل لك بتصوّرها. تذوب في الآخرة كما تذوب قطعة السكر في الماء تنطلق من الآخرة تتبع قطرات الماء هنا وهناك لألف مهمّة جديدة تفقدك الآخرة الشكل لتكتسب أشكالا جديدة.

وفي القصّة الأخرى التي تبقى فيها واحدا كلاّ متماسكا ينذاب الموجود فيك ولا تذوب أنت فيه. تدخل الآخرة كمن يعبر باب المنزل إلى ما وراء الباب ليواصل الاستكشاف ليتّضح له ما كان مخفيّا ليواصل تجربة الرعب إن كان ارتضى لنفسه هذا الخيار لتكتمل عنده تجربة الانبهار إن كان يفضّل هذه الصبغة من الموجود.

تودع في هذه القصّة جسدك باطن الأرض كما في السيناريو الآخر لكنّك تبقى كلّ الموسيقى التّي انبعثت من هذه الآلة. تبقى داخلها واحدا متماسكا. لا تنفلق الكرة الشفافة وإنّما هي على العكس تجد في هذا المكان آخر ضمانة للحفاظ على وحدتها وعلى ما يميّزها.

يقرّر نوع ثالث من المسافرين أنّهم جاءوا من العدم وأنّهم إليه عائدون. تفقد في هذه القصّة الآخرة كلّ ملامحها على فقرها وضعف تكوينها وقلّة المعلومات عنها.

هي في هذه الصورة منطقة من السواد القاتم والصمت القاتم والاّشعور القاتم. انّها منطقة تفككت فيها اللّغة والأسماء والحروف.

أبقى أورّق «البوم» الصّور وأمامي صورة سوداء وصورة ذهبية وصورة خضراء وصورة بريق يخطف الأبصار كألف شمس وصورتي الخاصّة لمكتبة بألف ألف دهليز صفّت على ألواحها كلّ الملفّات وكلّ التسجيلات لكلّ ذاكرة تذكّرت ولكلّ تجربة مبهمة لم تصل إلى مصاف النطق بأيّ لغة.

* * *

لاتكتفي القصّص بوظيفة تبادل الصّور عن الحالات والحدود الممكنة وإنّما هي تملأ الإطار الذي ستغرف منه جلّ التّجارب الضروريّة للرّحلة.

تذكركم من قصّة جعلت منها النموذج الذي تحتذي وكم كان دورها خطيرا في توجيه دفّة حياتك.

هكذا ترانا ندخل التاريخ من باب قصص التاريخ والإيمان من باب قصص الأيمان والحبّ من باب قصص الحبّ. تتغلغل فينا القصّة لتوجّه حياتنا من أين ندري ولا.

ندري. نصبح طرفا في تمثيلية ضاعت ذكرى أوّل مؤلّف لها وأوّل ممثل وأوّل محوّر ومضيف.

ننسج نحن ونضيف ونحوّر ولا يبقى على من حولنا إلاّ الانخراط أو المقاومة وتبقى العمليات منطلقاً وتجدّداً لسلسلة أخرى من القصص.

وعبر القصص نتبادل الخبرات ونحفظ آثارها.

هي تروي دوما وقائع وأحداث الجهد والعنت.

هي تسجيل المعاناة والانتصار وتذكير دائم بآلام وآمال المسافرين وهم يصارعون المجهول الخطير.

إنّها الذاكرة التي تحاول الحفاظ على الأحاسيس والمشاعر البالغة التعقيد البالغة التناقض البالغة الرقّة أو الغلظة. لكن كيف يمكن استرجاع كلّ ذلك الألم.. كلّ تلك النّشوة.. كلّ ذلك الانبهار... كلّ ذلك الخوف..... لكلّ تلك الكائنات.

هي ضرورة الظلّ الباهت للأحداث لا تعرف ممّا حدث إلاّ أقل من القليل. هي لا ترصد ولا تتذكّر إلاّ ما هو مثير للانتباه.. غير مألوف.. خارق للعادة... النماذج الكبرى لا غير. هي تذكر وتتذكّر في أحسن الحالات الجزء البسيط الواضح لما يروى يضيع الباقي إلى غير رجعة. تصبح رواية لأشباح وشبحا لرواية.

تكثّف بالتّالي الحمولة الخيالية لعالم مشبع مثقّل به من البداية ويحقّ لك أن تقول أنها أوهام يجب أن تتقشّع بفعل العقل وأقول أنّك لا ترتحل إلاّ داخل ضبابها وانّه محكوم عليك أن لا تخرج منها أبدا وإنّما أن تهجر صنفا لتقع في براثن صنف آخر.

وبعد رسم الحدود وتوفير جزء كبير من مادّة الموجود لابد من إحلال النّظام بدل الفوضى وهذه أيضا من وظائف القصّة.

تتكاثر القصص وتتلاطم تلاطم أمواج بحر هائج مائج لكثرة الرّواة والرّؤى.

ها أنت تشعر بأمسّ الحاجة ما ينظّم كلّ هذه الفوضى ويستخرج من تنافر وزعيق أصواتها نغما ونسقا. إنّك الآن في مرحلة تعطّش إلى قصّة جديدة مجدّدة تحدّد لك دورا غير واضح وطريقا ضاعت ملامحه وأسبابا للمواصلة وأخرى للتوقّف.

تجمع كلّ هذه الحاجيات داخل مفهوم تسمّيه المعنى.

تأتيك القصّة والقصّة وحدها به. يكون المعنى بتوفر الشرط الأوّل ولنسمّه حاجة العقل وفي مثل هذا الشّرط لا بدّ أن تترابط أجزاء الموجود بكيفية تتماشى مع طبائع الذهن وطرق عمله أن يتتابع البعد والقبل أن يعقب الليل النهار أن يكون المكان ممتدا والزمان دائريا أن يتولّد الشيء عن سبب وأن يكون السبب سابقا للنتيجة أن تكون هناك بداية وان يسبق تطوّر الأحداث النهاية أن يكون هناك فاعل وراء كل فعل ومفعول به يتبعهما ضرورة لأن تلك هي حدود الفكر أي حدود اللّغة.

لا بدّ أن يكون الأبطال من جنس محسوس أن تكون أنت محور الموجود وأن تكون كما الآخرين واحدا متعدّدا ثابتا متغيّرا وأن تكون فاعلا مؤثّرا حرّا متحرّرا أن تكون الأشياء كما تبدو صلبة بالنسبة للصلب منها رخوة بالنسبة للرخو منها أن يكون التغيير فيها خاضعا للعادة والمألوف أن يصعد الطريق الصاعد وأن يكون الأفق دوما في مكانه وأن لا يخرج القمر عن مداره وأن تحافظ الشمس كلّ صباح على شكلها المستدير.

إنّها الضروريّات الأولى إذ لا يمكن لأي قصّة إن تكون بدون الثوابت في الأشياء والمحسوسات بدون تحرّكها وفق منظومة ثابتة في تغيّرها متغيّرة في ثباتها وإلاّ كانت القصّة من نوع أدبي خاصّ دعامته الهوس وجزءا من قصّة لكابوس.

يفتعل الموجود الاستجابة لهذا الطلب لأنّ فيه من المرونة أمام إرادة الإنسان وشهواته بقدر ما فيه من الصّلابة واللاّمبالاة.

ثمّ هناك المطلب الثاني لكي ينيم مؤقّتا فيك مرهم المعنى بعض أصناف الخوف والألم.

تحتاج الرّوح لكي تكون روحا إلى ثوابتها كما تحتاج اللّغة إلى قواعد النحو والصرف كما يحتاج الفكر إلى قواعد المنطق ومن هذه الثوابت أن يكون للأهوال والفظائع التي يقاسيها بنو سفر إبّان الرّحلة وظيفة وجدوى.

لا يجمع الرحّالة الحجّاج على شيء قدر إجماعهم على أن فظاعة الفظاعة ليس أن تكون فظاعة وإنّما أن تكون عبثا صرفا.

ومن ثمّة تركيبة كلّ قصص المعنى وهي على اختلافها الهائل في الشّكل واحدة في طريقة التّخلّص.

يصلب المسيح. يعاني من الآلام ما لا طاقة لبشر بتحمّله. تقرّر القصّة وقد تفرض بالعنف أنّه مات لينقذ كلّ الرحّالين من العذاب والضياع. هكذا تنقذ الموجود من تهمة العبثية متجاهلة أن من إمكانياته في قصص أخرى أن يكون عبثيّا ولا عبثيّا وأنّه لا يبالي ولا يفاضل بين الحالتين.

ترمي المسافرة بنفسها من علوّ أبراج المدينة المحاصرة لتحترق بالنّار هي وأطفالها.. يا لها من قصة رائعة المعنى لأن الانتحار ليس جميلا فحسب وإنّما هو تضحية وقربان ونذير بميلاد قرطاج وتجدّدها.

تجمع كلّ القصص على ضرورة أن تكون للأحداث للأهوال والتجارب التي نمرّ بها عبر تنقلنا في المكان ودوراننا حول عمود الزمان الثابت منفعة ما... مصلحة ما... وظيفة ما.

نحتت ضرورات البقاء في أعمق أعماقنا التعامل المنفعي مع كلّ ما هو موجود فأصبحنا نعتقد أن لكلّ موجود منفعة وبالتّالي أن المنفعة هي التي تجعل الموجود موجودا وتلك بعض من ملامح عالم الآدميين وحدوده ولم يكن من الممكن أن لا تطبع هذه الذهنيّة أغلب القصص التي تروى.

هكذا أصبحت أحلى القصص تلك التي يجد فيها العقل ما يرضيه وتجد الروح فيها ما تستكين إليه وأصبحت القصص التي لا تحكى إلاّ الهوس والعبث مناطق محرّمة ملعونة لا يؤوب إليها إلاّ الضالون والمشرّدون.

نعم لا بدّ في وقت ما من تطوّر الرّحلة من قصّة ـ وعاء قصّة حاوية تطوي بين صفحاتها كلّ القصص تضخّ فيها المعنى كما يضخّ جذع الشجر رحيق الحياة في أغصانها.

لا بدّ من قصّة كبرى القصّة الأولى التي عنها تتفرّع كلّ القصص الثانوية ولا بدّ أن تكون بالطبع منطقية ـ أخلاقية.

إنّها الأسطورة المكوّنة المغذية المربّية التي تصهر المجموعات في بوتقة واحدة وهكذا يتّضح منذ البداية أن الرحّالة لا يجتمعون إلاّ ووجب أن تجمع بينهم قصّة كبرى يسكنونها وتسكنهم يحرّكونها وتحرّكهم يغذّونها ويتغذون منها.

إن أنت أمعنت النظر في كبرى الحكايات التي يرويها أو يفرضها بنو سفر عن الموجود فستكتشف أن ظروف تنزيل قصّتهم قصّة وانّ اكتشافها من طرف عقول ثاقبة لكبار الرحّالة قصّة وإنّ خصائص الأبطال وملامحهم ومآثرهم قصّة إنّ وجود كاتب كلّ

القصص قصّة وأنت ستدخل آنذاك في دوّامة لأنّه لا نهاية لتداخل القصص وكلّ نهاية يريد أن يقف عندها الرحّالة لن تكون إلاّ مرحلة من مراحل تطوّر القصّة.

تظهر القصص المنظّمة للقصص الوظيفة الكبرى للقصّة أيّاً كان حجمها وموضوعها.

هي لا تروي جزافا وأنت لا تبحث عنها بحث اليتيم عن الحبّ لمجرّد أنها تعلّمك ما يجب أن تعلم. إنّ وظيفتها الأولى والأهمّ ترويض الخوف.. خوفك السّرمدي المسترسل من الحياة... من الضياع... من ظروف الرّحلة وشروطها.

تهدف المرعبة منها تعويدك على مواجهة الآفة.. إنها تمارين الرّوح ولا قيمة للقصّة إلاّ بقدر ما ترفع عنا هذا الألم أو تعلّمنا احتماله.

* * *

ليست القصّة إطارا ومحتوى ونظاما فحسب وإنّما هي أساسا مرآة الحياة ومحرّكها.

تعود بنا كلّ قصّة إلى النموذج الذي هو الحياة وتعود بنا الحياة إلى القصة التي هي الصدى.

لنتذكّر أن الرّحلة تتبع نهجا واحدا وان مكوّناتها واحدة.

يرفع الستار. انطلاقة.

محيط. روعة. فظاعة. خطر.

بطل. كومبارس.

عقدة. سعي. غاية - مهمّة. مال. سلطة. اكتشاف. غزو. حقيقة. سرّ. إعادة الخلق. مقاومة. معاناة. ضياع. انتصار. هزيمة. انتصار. هزيمة. أفراح. أتراح الممكن من الأحاسيس. الممكن من المشاعر. الممكن من الأفكار. معنى. عبث.

حصيلة. ملخّص. تقييم.

آثار. اندثار. إسدال السّتار.

أليس هذا بالضبط نسق ما تسمّيه اللّغة قصّة.

أليست الرّحلة دوما قصّة والقصّة رحلة بالضّرورة.

يستبطن بنو سفر نّسق الأحداث. يهيكل منهم الذّات. يضع حدودا للممكن داخل اللّغة. يرسم فيه طرقا داخل طرقاتها. يفتح له آفاقا داخل آفاقها.

تمتلئ الساحة بالمسرحيات والممثلين والنظارة بكتبة كلّ أنواع السيناريو من أردئها إلى أجودها من أطرفها إلى أكثرها ابتذالا والكلّ كاتب وممثّل وذوّاقة والكلّ يلعب دورا في

قصص متداخلة متشابكة متنافرة تتحرّك كما تتحرّك رمال الصحراء عندما تبعثرها وتطوّح بها الرّياح الهوجاء.

تتهيكل إذن الرحلة بصفة وكيفية ووفق مخطّط تسميه اللّغة قصّة. لاغرابة أن يتعامل المسافر مع الحياة كجزء من القصّة ومع القصّة كجزء من الحياة. ينتج عن هذا أنك لا تكون إن لم تكن لك قصّة إن لم تدخل القصص إن لم تتشبّع بها إن لم تكن أنت نفسك القصّة التي كتبتها بالموجود وعن الموجود بعد ما لفظتك العتمة. تعبر وأعبر ونعبر كلّنا الموجود قصّة تتخبّط داخل أخطبوط من القصص والفرق الوحيد الممكن في التفاصيل وجودة وطرافة السّيناريو.

إنّها ضرورة المكوّن الذي بدونه لا تتكوّن لك أيّ رؤيا للموجود ولمكانك ودورك فيه.

لا غرابة أن تكون حاجتك إليها حاجتك إلى الماء والهواء.

تفاجئني يوما الفكرة أن خلقي المتواصل لعالمي هذا يغرف من مصادر متبباينة أنّه يتشكّل من معدن حسّي ومعدن خيالي ومعدن نظري فكري بحث أن المصادر في تنافر علبة مربّعة تحاول إقحامها في مثلث لا تسعه الدائرة التي حاولت أن تحشره فيها من البداية.

وقد تستهويك مثل ما استهوتني طويلا قصص تروي أن هناك عالما مستقلاً عن القصّاصين أنّه ليس مصنوعا من الحواسّ والقصص وأنّه محكوم بقوانين ليست من صنع الفكر وأنّك تدخله كمن يدخل مدينة وجدت قبل دخوله وستوجد بعد رحيله، إن له ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ليس من زمن الآدميّين.

إنّ هذه القصص لا ينقصها الإمتاع والتشويق وهي لا زالت تستحثّ فينا الفضول والتحدّي وهناك من المسافرين من يقضّون العمر في وضع اليد على هذا «الاسم ـ العالم الموضوعي» وكلّهم أمل في الوصول إلى يوم يضعون فيه القلم جانبا وقد انتهى الكشف وقد أزيل عن وجهه آخر قناع.

حذار من الانسياق كليّا وراء هذا السّيناريو لا لأنّه خطأ أواجهه بـ «حقيقتي» ولكن لأنّه يغلق أمامك أبواب وإمكانيات فلا تظفر من رحلتك إلاّ بظفر من يصرّ على الاكتفاء طول حياته بكتاب لا يفارقه والقصص الرّائعة الأخرى تملأ رفوف المكتبة.

القاعدة الأولى: الرّحلة قصّة والقصّة رحلة ونصيبك من الرّحلة نصيبك مما عشت ومما سمعت ومما رويت ومما روي عنك من القصص.

* * *

٣ - وبخصوص أننا نخلق من إبهام الموجود وغموضه عالما آدميا بالتسمية والوصف والتعليق وأننا لا نسكن غير هذا العالم الذي تعزفه وتنحته وترسمه اللّغة قال الراوي:

من ترتّبات التشبيه الذي انطلقنا منه اننا ندخله كما يدخل السائح بلدا مجهولا. نتنقّل بين الربوع. نأخذ هذا الطريق أو ذاك. نستكشف الكائنات والمكان.

تكحّل عينيك بمناظره الخلاّبة يسطو عليك النشّالون تدخل متاحفه الثرية تسمع من أهله قصصا مشوّقة وقد تدوّن مراحل التنقّل والانطباعات الخاطفة تراجع كمّية من الصور تعرضها على الأصدقاء في حلقات السمر. ثمّ تنتهي السّفرة. نخرج بإرادتنا أو ضدّها من باب «الموت» وقد آب كلّ واحد منّا بنصيبه من اللّذة ومن الخيبة.

تفرض علينا ظاهرة أنّنا نتاج القصص ومنتجوها قناعة تقلب رأسا على عقب فهمنا لطبيعة الرّحلة ووظيفتها. تتّضح حدود تشبيهنا لأنّ السائح لا يشارك في خلق المناظر الطبيعية التي يشاهدها لا يساهم في بناء الطرق التي يتحرّك فوقها ولا يعيد تنظيم المجتمعات التي يدخلها بينما نحن على العكس لاننفك نصنع الموجود إبّان «زيارته» وبينما نحن منهمكون في صنعه تراه هو الآخر منهمك في صنعنا.

نحن نرتحل في/ أو ب /أو مع / أو داخل / أو خارج عالم مصنوع من الأحاسيس والمشاعر وخاصّة من القيل والقال.

نحن لانستكشف ولانتعرّف على الموجود بحواسّ خمس فحسب وإنّما بأخرى سادسة لها أعظم الأدوار أسمها اللّغة هي أداة الرّحلة وبدونها تدخل وتبقى حبيس عالم ليس عالمنا.

ها قد أدخلنا من جديد تحويرا جذريّا على تفاعلنا مع الموجود وفهمنا له.

نأتي العالم لا كمن يدخل مكتبة أو متحفا أو حديقة حيوانات أو قصر المعارض ولكن كممثّل يتسرّب داخل مسرحية متواصلة تكتب فصولها وهي بصدد العرض على الركح الممثلون فيها النظّارة والنظّارة الممثّلون كتبة السيناريو والسيناريو هامش على تعليق متواصل منذ بداية التمثيلية.

نأتي عالما لم ترسم عليه الحواجز والفواصل.

هو عند وصولنا كمكتبة ألصقت كلّ كتبها بعضها ببعض ثمّ ألصقت بحيطان المكتبة وألصق فوق كل هذا أعوان المكتبة والقرّاء فلم يعد بالإمكان التفريق بين لون المجلّد ولون سترة عون التنظيف.

يبدو لك الموجود عند انطلاق الرّحلة بلا فواصل بلا حدود.. نصّ أحرفه متداخلة بلا نقط أو فواصل أو فصول... نصّ لا يفهم له بدء ولا تدرك له نهاية.

تمر السنون وأنت كمن يفكّ رموز خطّ غير مفهوم بلغة غير معروفة.. تعيد إلى السطر تضع النقط.. تخمّن أين يبدأ هذا المقطع وأين ينتهي ذاك. تتشنّج لتفهم بعض الأفكار المودعة في باطن هذا النصّ الغريب. تحاول القفز من فوق الصّعوبات والاستحالات بخيال مشذّب وفكر شحذته التجارب تستشفّ بعضا من ملامح الكاتب المجهول.

وقد تضع الفاصلة في غير محلّها وتدغم حرفان والحال أنّه لا مكان للإدغام وقد تخطئ في ترقيم وتسلسل الفصول... فتقرأ ما شاءت الصدف أن تقرأ لا ما أراده كاتب النص وكلّنا ذلك الإنسان.

لا بدّ إذا من التفصيل ولا بدّ من تقديم المتقدّم وتأخير المتأخر لكي يكون هناك عمق وأفق. لا بدّ من فصل الأجزاء عن بعضها البعض. لا بدّ من دروب تتسلّل بينها لكي تكون السياحة والركض والتوقّف. لا بدّ من قوى تحرّك الأجزاء تخلقها أو تختلقها تفسّرها وتقودها.... لا بدّ من طاقة تحرّك الحركة.

والحلّ الوحيد الممكن أن يضع المسافر اسما على كلّ مسمّى تدركه الحواس وتشير إليه. نصنع فيما بعد من رصيدنا من الأسماءومن الحالات التي تشير إليها الموجود والرحلة.

يقول بعض كبار الرحالة أنّه في كلّ بداية لا يوجد إلاّ الاسم.

تدخل الموجود ويدخلك بالاسم وعبر الاسم والمسمّي هو أنت دوما..... الخالق المخلوق.

تقف أمام الشيء حائرا لا تعرف له شكلا أو منفعة.

ما هذا... مّا مّا... أو بّا... بّابا... أ... أنا.

إنّها أولى تمتمات المسافرين والتمتمة هذه جدّ الاسم ومنطلق التسمية.

تتفرّع بعدها التمتمة وتتعقّد إلى درجة تصبح معها إحدى مشاكل الرحلة ومصاعبها.

هاو أنت تردّد منذ لحظة اكتشافك قدرة وضرورة الأصوات التي تخرجها من بين شفتيك على إحداث تغييرا في الموجود.. ما اسم هذا.

لابد من إسم للشيء ولا بدّ من إسم للكائن ولابدّ من إسم للفعل ومن إسم للفاعل ومن إسم للصّفة ومن إسم للحالة. لابدّ من التسمية وإلاّ استحالت كلّ حركة ذي معنى. هناك حالات يعترضك الشيء أو الشّكل المبهم وقد خرج فجأة من العتمة والخيار أن «تصطاده» أن تشدّ وثاقه إلى عالمك الذي أنت بصدد بنائه والارتحال داخله.... أو أن يتبخّر ويندثر ويعود إلى عدم النّسيان.

يمكنّك إسم هذا «الهذا» من انتشاله من الإدغام من وضع الحدود حواليه من إخراجه من السطح الذي كان ملتصقا به. ها هو يطفو أمامك شيئا له وجود مستقلّ عن الكلّ مرتبط به أوثق الارتباط.

تنظر إلى القبّة البلّورية الشفّافة الموضوعة على صحن البسيطة. ترى لها وقد عمّها النّور من كلّ أطرافها لونا بهيجا بلون البحر. تشاهد مساحات بيضاء تتّخذ لها من الأشكال أغربها تبدو كأنّها ألصقت بها التصاقا.

يفصّل الاسم ما بدا ملتصقا. يضع الحدّ بين القبّة البلّورية كشيء وبين هذا الأبيض المتحرّك المتنوّع الحجم والشكل الذي يملؤه ولا يمتزج به.

تبرز من أين لا تدري نقط وضاءة على القبّة البلّورية وقد لبست لون الحداد وكأن يدا خفية بعثرتها على ثوب الظلام. يقرّر الاسم أنّ القبّة هي هي في ارتدائها جلباب اللّيل وفي ارتدائها جبّة البحر وأنّ النقط الوضاءة ليست حالة من حالات الفضاء وإنّما أشياء منفصلة لها مكانها المحدّد بالفوق والتحت والأمام والخلف ومسارها الذي تتّبع...

يستخرج الاسم شيئا فشيئا تلك الأشياء التي تملأ الموجود أداة سحرية تذهب داخل أحشائه تنقّب وتستخرج منه الحالات والأشياء والكائنات.

يبنى الاسم معالمه شيئا فشيئا وهكذا يكون ذلك الحامض الذي لا بدّ منه لتبدو رويدا رويدا ملامح كلّ صورة. يتجلّى الموجود ضرورة بالاسم وعبر الاسم في دلال وتمنّع يزيد من لهفة المسمي وتعطّشه للمزيد لأنّ رحم العالم ملآن فائض لانهاية لما يحتوي ويخفي.

إلاّ أن لهذه القدرة حدود وضريبة.

يقف الآدمي أمام القرص الذهبي الذي يتصدّر الفضاء. يشير إليه. يضع لسانه بين شفتيه في موضع ويحرّكهما في اتّجاه تتقلص عضلات وجهه بكيفية ما ويخرج الهواء بكيفية ما وكذا في النغم. ويقول إنّ اسمه...

ها قد أرغمت هذه الأصوات لتقول اسمه هو المغرّق في بعده وفي صمته وهي بهذا تكون قد فصّلته وحدّدته واكتشفت أنّه واحد متميّز مخالف غير الذي وراءه وتحته وأمامه وغير الذي يسمّيه وغير الذي يحمله أو يسبح في عبابه.

يقوم آدميّ آخر بنفس العملية. يشير إلى نفس الكائن. يتأكّد فيما بعد أنّه يرى فعلا نفس الذي رآه رفيق الرحلة. يخرج صوتا مخالفا ويقول الاسم.. كذا أو كذا.

تدخل عالم الأسماء من باب التضارب لأن للمسافرين وهم من جنس واحد آلاف المقاطع الصوتية للتدليل على كائن واحد.

يتّضح عاجلا أو آجلا لكلّ مسافر لبيب أن التّسمية كإحصاء ذرّات الصحراء. يواجه المسمّي باستحالة تعداد كلّ الكائنات وحصرها وتحديد أجناسها وعلاقاتها. يفهم أن الموجود كجبال الجليد التّائهة على سطح المحيط.. لاترى منها إلاّ أقلّ من القليل.

إنّ الاسم لا يوضع على الكائن كما توضع ملصقة التعريف فحسب وإنّما هو يوضع على خصائص مفترضة فيه وعلى حالات يمرّ بها وعلى أفعال يقوم بها أو تفرض عليه على علاقات تربطه بالكائنات الأخرى.

جرّب الآن أن تنادي الكائنات بما تطلقه عليها من أسماء. إن عددا نادرا منها سيعيرك شيئا من الاهتمام أو يشعرك بأنّه معني بتلك الأصوات التي تحدثها وأنت تضع اللّسان بين الأسنان بكيفية ما.

تبقى أغلب الكائنات طرشاء لندائك وكأنّها لا تتعرّف أو لا تعترف بالاسم ليست إلاّ إذ هو بالنّسبة إليها تمتمة وإسقاط لا يترجم إلاّ مصلحتك وهو في كلّ الحالات لا يصف ولا يستنفد ذاتا ولا يحيط بها أو يبسط مكنوناتها وأسرارها ولا يرمي بينك وبينها قنطرة.

هو مجرّد إشارة إلى الشيء أو الكائن يمرّ مرّ الكرام على ألف خاصية وخاصية.

هو تبسيط ما بعده تبسيط.. إغفال.. تنكّر.. إنقاص من كينونة الكائنات صورة هزيلة غثّة لها.

يبقى انّه على علاّته عصا الأعمى وانّه لاغنى عنه.

فجأة بان لي قابعا مسربلا بغرابته في مكان قصيّ من الغرفة وكنت لا أنظر إليه أبدا.

اكتشفت فجأة أنني لم انتبه إليه منذ ذلك اليوم الذي ساومت ثمنه بائعا إفريقيا ضحوكا كان همّه الوحيد إقناعي بأنني بصدد اقتناء تحفة فنّية لا مثيل لها وعدت به في حقيبتي لا أعلم هل نحتته يد أفريقية أو هل صنع في إحدى معامل «هونغ كونغ».

تستبدّ بي رغبة جامحة لا مجال لرفضها. ها أنا آخذ القناع الخشبي الأسود من فوق الرفّ واضعه على وجهي. تدفعني قدماي إلى المرآة فأرى لي نتوءات ضخمة على مستوى الخدين وجبهة مكوّرة وثقبان مقوّسان إلى الأسفل أنظر من خلالها إلى الموجود وأنف أفطس يحتلّ نصف الوجه. لا تنغلق الشفة العليا إلا على فضاء أجوف.

تستثيرني غرابة القناع. أتخيّل نفسي أجوب شوارع المدينة وهو على وجهي يكشف كما لا يكون الكشف ويحجب كما لا يكون الحجب.

يوضع القناع على الوجه ليختفي الرّحالة ولو لحظة واحدة ليتبخّر ليذهب ويرحل عن العامل ليموت فيه وهو لا يزال ومن لفظة القناع اشتقوا في اليونانية كلمة شخص ولم يكن ذلك مجرّد صدفة. إن ما يقوله القناع وهو محمول على الوجه لعلى غاية العمق والأهمية: ها قد حجبت عنكم ما يسترعي دوما الانتباه لكي تتذكّروا أن هناك شيئا أهمّ وراء ما يستحوذ على أبصاركم.

ذلك هو الاسم ولا قناع يلبسه الموجود غيره.

هناك تشبيه آخر لفهم دور الاسم وأدقّ خصائصه.

كما النور كما الاسم. النّور إسم والاسم نور.

ينبثق النور. يتسلّل. ينتشر يغمر أرجاء الموجود فيكشف. يبرز. يظهر. يوضّح. يفضح يعرّى. ويحدّد ويفرّق وبينما هو يكشف تراه في نفس الوقت يحجب.. يسدل الستار على ألف حالة وحالة.

تتجلّى عبره روعة زرقة القبّة السماوية لتموت من خلاله النّقط الفضّية المتناثرة على ثوب اللّيل ولا بدّ من ذهابه ليتّخذ الموجود هذه الحالة التي بدونها لا يكون مكتملا.

وهكذا الاسم يبرز ويخفي يكشف ويحجب يبسط ويقبض ولا مجال للتحايل عليه ولا ضرورة. إنّ هذه الازدواجية هي التي تجعل الرحلة كما نجرّبها ممكنة.

يتّضح انّك لا يمكن أن تعرف إلاّ إذا جهلت وإنّ جهلك شرط من شروط المعرفة.

يجبر الموجود على أن يمرّ بمصفاة الاسم إن أراد له أن يكون وأن يكون على تلك الحالة بدل تلك.

هذا الذي لاتسمّيه عدما لأنّ العدم إسم ما لا إسم له أمّا الذي تسّميه فلا بدّ من تنظيمه.

لا بدّ من أن تستبدّ به الحركة هو الآخر.

يتشكّل الوجود كحركة مطبوعة بقواعد اللّغة وهي سابقة متقدّمة على كلّ متكلّم وهو ضرورة خاضع لها مسلّم بحكمها. لا أحد يعرف لماذا نتكلّم وابتداءا من أي مرحلة من مراحل تاريخنا بدأنا نشير إلى الأشياء ونسمّيها. لا أحد يعرف أيضا من أين أتت اللّغة ولماذا يجب أن تتابع الكلمات وفق نظام ونسق ولماذا تنقسم وهي واحدة إلى ألف لسان ولسان والحال أن الجنس الآدمي واحد في الأساس.

يتّفق الرحالة على أنّ الرّحلة بدونها مجرّد انطباعات مبهمة وأحاسيس بدون تواصل أن

المغامرة الآدمية تنقلب على ذاتها لتكتفي بالتكرار والرتابة... إنّها لا يمكن أن تتشكّل كقصص متداخلة تتولّد من قصص بلا نهاية.

قد تكون معطى أوّلي مثل حاسّة النظر وحاسّة الشمّ وحاسّة التذوّق وحاسّة اللّمس.

قد تكون من مواصفات صنع الآلة الآدمية تضبط وتحدّد بنية ذهن الآدمي.

هي على كلّ حال جهاز التقاط لحالات الموجود وهي جهاز لا يعمل إلاّ على موجات وذبذبات معيّنة وما عداها خارج القدرة والوظيفة.

إنّها الحاسّة المدمجة التي تنظّم وتضيف وتنقل من الإدغام والتلاصق ما تحمله هذه القنوات من معلومات عن حالة عالم متغيّر متقلّب تمنح بهذا جزءا من الموجود وتمنع أجزاء منه.

ومن متطلّباتها أنّه لا بدّ من صفات تعرّف الاسم وتوضحه. لا بدّ من فعل ومن فاعل ولا بدّ من مفعول به ولا بدّ من قواعد للربط بين الحركات والحالات.

تبعد اللّغة احتمال أن يكون الموجود فعلا بدون فاعل أن يكون فاعلا بدون مفعول به أن يكون هناك أصلا فعل ينجرّ عنه فاعل ومفعول به أن يكون هناك فاعل لا يفعل شيئا أن يكون هناك مفعول به ليس ضحية فاعل أو نتيجة فعل.

يمتلئ الموجود بالأفعال والفاعلين بالأسماء والصفات كما تمتلئ هذه الصفحة البيضاء بالحروف والخطوط والنقط فتنطق نصّا ومعنى. ينسى الآدميون أن ما خطّوه هو فعل وبنات أفكارهم ونتاج حواسّهم وليس خطّ أو بنات أفكار الصفحة التي كتبوا عليها. تصبح الأسماء التي حاول الرّواة استكناه لغز الموجود عبرها مصدر فوضى لا حدّ لها عندما يجعلون منها البديل السحري للمسمّى عندما يصبح وصفهم للعالم وصفا لكلمات الموجود ووصفا لعالم الكلمات وهم غير واعون.

يتكوّن الخطاب البشري كظاهرة جديدة من ظواهر خصوبة الموجود. لقد أولد هذا الأخير كائنا جديدا: الفكريات لتتطوّر كما يتطوّر كلّ ما أوجد وخلق كلّ أصناف الكائنات المخلوقة من المادة.

هي تتطوّر الآن جنبا إلى جنب مع سائر أشكال الموجود ومخلوقاته وتمظهراته.

تظن نفسها الجهاز الحاوي والإطار المجدّد والمرآة الصافية التي تنعكس على صفحتها حالة عالم خارج عن ذاتها والحال أنها مجرّد جنس جديد خلقته الحياة فصيل آخر من مخلوقات الموجود كالنباتات كالثدييات محكوم عليها بالعيش والتطوّر والنضال من أجل البقاء والصراع تغيّره وتتغيّر به تدمّر داخله وتبني به تموت منه وبه مثلما تموت كلّ التمظهرات والمخلوقات.

يختلط الحابل بالنابل فلا تعود تميّز بين الإسقاط والوصف بين الموجود بالملموس والموجود بالخيال وتلك ضريبة تفاعل الذّات المشاهدة والموضوع أمامها الذي تشاهده.

تتساقط الأسماء على شبكة اللّغة وهي بصدد اصطفاء واصطياد عدد متزايد من ظواهر وحالات الموجود. تتفاعل معه إضافة وتلوينا وتوجيها وتشويها. تضيف إلى ما صفّت واصطادت إلى ما طبعها بها الموجود وهيكل. تملؤه بكائنات اسمها الجنّ والحاسوب والوطن والتقدّم والإستراتيجية والروح والنفس والجنس والاستقامة وهلّم جرّا. تجعل اللّغة بقيّة الحواس تعي وتعبّر وبدونها تبقى مجرّد آلات لاقطة لتسجيل انطباعات خاطفة تتالى كومضات البرق لا شيء يربط بينها.

لايصل الموجود مصاف الوعي بذاته إلاّ عبر أسماء يسمّيها إسم لا وجود له إلاّ كإسم من بين الأسماء. هو الجمل العاتي الذي لاخيار له سوى أن يمرّ عبر ثقب إبرة الاسم وإن رفض بقي بلا بداية أو نهاية بلا ممثّلين أو قصص... بقى عدما وإنّما العدم المستودع الغريب لكلّ الأسماء التي لم أو لن تتسمّى.

تصبح الموجودات إذا أسماء وتصبح الأسماء موجودات وهكذا تراك ترى وتلمس وتتذوّق بالاسم وعبر الاسم والفكر المفكر موجود بوجود الاسم الذي يسمّي نفسه به. أنت لن ترى ما ليس موجودا بالإسم وقد تجري وراء السراب لا لشيء إلاّ لأنّك سمّيته وأوجدته بقوّة اللّغة وما اكثر أنواع السراب التي ستجري وراءها إبان طوافك في الموجود فاللّغة لا ترى إلاّ ما تعرف أي ما تتوهّم معرفته ولا تعرف إلاّ ما ترى أي تتوهّم رؤيته.

القاعدة الثاّنية أنّك ترتحل في عالم آدمي بحث بنت اللّغة دعاماته وملامحه وحدوده والطّرق التي تنتهج.

* * *

يحاول الرواة مداوة نواقص الاسم بتسمية الاسم نفسه.

لا يزيدون الطّين إلاّ بلّة.

نأتي من الوصف بالمبالغ في الكثرة في محاولة يائسة لإستنفاذ ما لا يستنفذ. تتراكم الأسماء تراكم الغرقى على الغرقى. يصبح الإشكالية الكبرى للمسافرين التائهين في الضباب.

يتطوّر الحديث عن الموجود وغرائبه وفق خطابين.

أمّا الأوّل ولنسمّه بالذّاتي فهو يعتقد أن إجادة الوصف ستصل به إلى «حقيقة مطلقة» «موضوعيّة» وكأن الأسماء تعبّر عن الأشياء وليس عن الإنسان.

على الوصف في هذه الحالة أن يكون «صحيحا» مطابقا صحّة وتطابق الطائرة التي خرجت من المصنع مع خطط المهندسين.

أما الثاني ولنسمّه بالموضوعي فهو يقرّ استحالة إجبار الموجود على البوح بأسرار ليست فيه وإنّما فينا.

يفهم البديهيات التي يصرّ خطاب الوصف الذّاتي على تجاهلها.. أنّ الإنسان حبيس اللّغة للأبد.. انّها عمل فنّي.. إنّه لا أروع من اللّعب بالكلمات والحروف لينتفي وهم المغزى ليتّضح أن اللّغة قادرة على خلق واختلاق المعنى بعد أن اتضح عجزها عن كشف ما ليس مخفيّاً. يتفجّر اللامعنى أي انعدام اللّغز من تلاق لا معهود بين أسماء الأشياء وأسماء الأوصاف. هو يسخر من السّذاجة التي يبديها الخطاب الأوّل عندما يصف البرتقالة بالزرقاء ويطلق النّار على اللّه من أعلى السطوح ويجعل السماء تبكي.

تتحوّل الإشكالية من اعتصار السرّ من الموجود عبر حالة من حالات اللّغة إلى اعتصار المعنى من اللّغة عبر حالة من حالات الموجود.

يأتي الهوس والهذيان كما يمارسه الشعر والجنون والفنّ ليكسر كلّ طموح لاعتصار الحقيقة ولو من اللّغة نفسها. يرفض أن يكون للمعنى أي معنى.. أن يكون هناك أصلا أي لغز أو أن يكون السرّ محور بحث جدير بأن يبحث. هو يعتبر «الحقيقة» بمفهومها الفجّ عبءا يرمي على قارعة الطريق لأنّه لاحقيقة إلاّ حقيقة الذات... في هوسها وفي رواق مزاجها... في اعتدالها وشططها في وهمها وفي خروجها من وعلى الخطأ الذي كان حقيقتها.

والوصف شرعيّ وضروريّ إذا اعتبرناه أمرا إجرائيا لتسهيل التّعامل بين المرتحلين... للتّحديد للتّوضيح للتنسيق.

يصبح هوسا عندما يدّعي أن تراكم الكلمات على الكلمات كاف للإحاطة بهذا الواضح المستتر البعيد القريب المعقد المتناهي في التعقيد الواحد المتقمّص ألف ألف شكل السّاكن الذي تنهكه الحركة المتحرّك الذي لا يبرح مكانه قيد أنملة.

نحن لا نخرج من الهوس إلاّ إذا تذكّرنا دوما أنّ الوصف وصف لعالم الإنسان للإنسان كما يرى الموجود للعالم كما يبدو للإنسان... أيّا كان اتجاه النّظر أيا كانت المنهجيّة المعتمدة أيا كانت أصناف الحيل أيا كانت طبيعة محاولة القفز من فوق استحالة قاطعة وعصيان أمر لا يعصى.

تصف اللّغة الكون بأنّه مكوّن من ذرّات تتبادل بينها جملة من العلاقات تحت إشراف جملة من القوانين.

ترجم: أن ذهنيّة الآدمي وتعبيرها الأكثر اكتمالا ووضوحا ـ اللّغة ـ تدفعه إلى مثل هذه

الاستنتاجات وهي مظاهر تفاعله ككائن من بين الكائنات من مستواه وبقدراته مع موجود لا يستنفذ.

تصف الموجود بأنّه جميل أو مرعب أي تقول إن الإنسان يجد الموجود جميلا أو مرعبا وأن على الموجود أن يتعلّم اعتبار رأي الإنسان فيه لأنّه أمام طرف وليس أمام جزء صامت من جسمه.

يمر الوصف بشيء من التدرّج إلى التعليق وهو رأي المسافر في الموجود ولقد عرفت منه كلّ الأصناف.

نتتابع زرافات ووحدانا في الزمان والمكان نمشي من باب الحياة إلى باب "الموت ونحن نستكشف أو نعيد اكتشاف الموجود. نوسّع حدود عالمنا الآدميّ بما ننتشل من العتمة وبما نطلق على ما انتشلنا من أسماء. نتجمّع حول النّار أو حول الطّاولة لنتبادل مما رأينا وما لم نر فتكون قصص العلم والشّعر والفلسفة والدّين. نتحرّك من حول النّار وننهض من حول الطّاولة لنواصل الرّحلة بأهوالها وروائعها وضروراتها فيأتي الأدب ليروي تجارب الأفراد ونخلق ونختلق التّاريخ لنروي ونتخيّل تجارب الجماعات.

لا تعليق إلاّ وهو شهادة ذات على حالة الموجود وهو في طور من أطواره وشهادة على حالة هذا الذات وهي تصارع الموجود.

هو ضرب من ضروب الثرثرة المتلوّنة بكلّ مشاعر ردود الفعل التي يقدر عليها الرّاوي وجنسه. تفاعله تعليقه. تعليقه تفاعله.

يكون الكلام الآدمي عن أهوال وأحوال السفرة المقدّمة عن المسالك والمطبات عن تفاعلهم مع الأشياء والكائنات... عن التّجربة.

والثّرثرة هذه ليست إضافة إلى الموجود «الموضوعي» وليست تعليقا على لوحات موجودة بذاتها سابقة متقدّمة عليها. إنّها اللّوحات نفسها.

تنمحي الحدود والفوارق بين الموجود والخطاب ويتّضح أن الموجود خطاب وأن الخطاب هو جلّ الموجود.

هو جزء هامّ وممتع من الرحلة عندما يكون تبادل العوالم الخاصّة والمعلومات والوصفات التي تمتّع المسافرين وتسهّل عليهم التّكون والحركة.

إلاّ أنّه يصبح هذيانا خطيرا يصيب بعض الرحّالة عندما يدّعون أنّه ليس مجرّد رأي مسافر أو مجموعة من المرتحلين في سفرتهم وإنّما الحكم القطعي والإجابة النّهائية عن كلّ الأسئلة.

يكتشف بعض كبار الرّحالة الفخّ والخطر ويطلقون عقيرتهم بالصّراخ للتنبيه.

حذار.. حذار إن شبكة اللّغة لا تستطيع مهما ضاقت فجواتها أن تمسك بـ «الحقيقة» التي وضعت حسب البعض في أغوار عميقة من باطن الموجود.

حذار... حذار.. إن دور التسمية والوصف والتعليق لا يجب أن يتجاوز تسهيل متطلّبات الرّحلة المادّية أمّا الإحاطة بطبيعة الموجود خارج اللّغة فاستحالة مطلقة.

لا بدّ ممّا لا بدّ منه. يجب أن تقبل منه أن لا ترى له إلاّ صورة من بين مليون صورة أن لا ترى هذه الصورة إلاّ عبر نقاب اسمه الاسم... إنّ الموجود المطلق الذي يسمّيه البعض «الحقيقة» لايمكن أن يتبلور إلاّ لعينين مطلقتين ترتبطان بفكر مطلق لكائن مطلق قد لايرانا مطلقا مثلما لانرى نحن كائنات وعوالم لا عدّ لها ولاحصر.

إن الانزلاق نحو الهوس في الاعتقاد أننا يمكن أن نرى بغير عينينا أو أن بوسعنا أن نشارك دماغ النّملة أو «دماغ» كائن مطلق عالمهما وبالتّالي أنّ بإمكانيّة الخطاب الآدمي يوما أن يعرّف الموجود ككل.. أن يصف كلّ الموجود... أن يعلّق عليه في كلّياته وجزئياته.

قدر هذا الموقف قدر القشّة التي تريد الوقوف في وجه التيّار أيّام الفيضان فمآله أن يضيع ويتلاشى في زحمة الضجيج والصراخ والزعيق لأنّه لا يضير الموجود في كلّ الأحوال أن يقال عنه أنّه بمعنى أو بدونه أنه مخلوق أم أزلي أنّه وجه متعدّد الوجوه أنّه نائم يغطّ في سبات الاوعي أو أنه احتداد الوعي في كلّ مخلوقاته وتمظهراته.

* * *

ثمّ إنّني اكتشفت طريقا آخر لتعامل بني سفر مع جريهم المحموم المهموم وراء سراب «الحقيقة المطلقة» ولقد أسميته الصمت الغربي نسبة إلى الآدميين الذين طوّروا هذا النوع من المواجهة مع الموجود وكانوا يقطنون مغرب الأرض في جزئها الشمالي وجزئها الجنوبي.

لقد نصح بهذا الطّريق العديد من روّاد الصمت الغربي من قدّيسين وصوفّيين امضوا حياتهم في مسائلة الموجود عبر طرق مختلفة في الشكل متشابهة في الجوهر.

لقد كان لي أكثر من صديق من هذه الشلّة وكنت كثيرا ما أتأمّل في تأمّلهم إلاّ أنّني لم أقتنع كثيرا.

يقولون بما أن كلّ خطاب عن الموجود ليس إلاّ خطاب اللّغة عن اللّغة فلا بدّ من وقف هذه الثرثرة الدّائرة في أوّل وآخر حلقة مفرغة.

أليست الحجاب الذي يضاف إلى كلّ الستائر الموضوعة الفاصلة بين الفكر والحقيقة بين حيرة المسافر وأسرار الرّحلة.

لابدّ من رفع اللّغة من طريق الفكر الباحث عن الحقيقة كما ترفع الفضلات.

بأحكام الصمت وبالغوص داخل الذّات باستبدال منطق التفسير بمنطق الفهم باعتماد الحبّ بدل العقل. يمكنك آنذاك أن تقترب... أن تحيط بالمعنى.... أن تتمكّن من اللّغز بل وأحيانا أن تصل إلى وسط الدائرة المقدّسة نفسها.

يجلس الصامت في مثل هذه الحالات بين يدي الموجود. يرفع عن عينيه بفعل إرادي كلّفه كثيرا من الجهد والوق ت غشاءها من على عينيه يزيح ستارا خطّت عليه الكلمات المتراكمة والصور المتناقضة عن عالم ممعن في التمنّع.

لا يبقى آنذاك بين الروح التي تنظر وبين الموجود المخفي وراء ستار الإسم المتفجّر إلى ألف شظية شيء. تتجلّى أخيرا «الحقيقة».

يصبح الآدمي بكيفيّة سحريّة وبمجرّد تعليق اللّغة ذلك الفكر المطلق الذي ينظر إلى كلّ حالات الموجود. يخرج الآدمي عن آدميته وهو لا يفعل سوى تمثيل إحد الأدوار التي سمع بها وتعلّمها من اللّغة.

إنّ هذا ليس صمتا وإنّما بكما. هو خطاب صامت وليس صمت الخطاب.. إنّه مجرّد إضراب عن الكلام لأن اللّغة لم تكفّ لحظة في أعماق المتصوّف.

يبقى المشعوذ أوالقدّيس يجري هو الآخر وراء ما لم ولن يوجد.

وفي نفس الإطار هناك صمت سكان أقاصي الأراضي الشرقية والذي أسميته تبسيطا وتجاوزا الصمت الشرقي.

إنّه حقّا صمت وليس إضرابا عن الكلام.

الأمر هنا: لتكفّ ثرثرة الروح ولتتلاش اللّغة وليكن الفراغ.

يفترض الأمر أن الآدمي طلّق بصفة نهائية قصّة المعنى أنّه أدار ظهره نهائيا لحكاية اللّغز أنه وصل إلى قناعة ما بعدها قناعة: أن لا شيء من هذا القبيل يوجد أو أنّه جدير بالوجود.

يبحث الراهب البوذي الجالس المستغرق في صمته عن الإنارة أي عن شيء ما عن الحقيقة. هي الإدراك الأسمى الذي يبدّد كلّ جهل كما تبدّد نور الشّمس ستائر الظلام.

تكتمل الإنارة عندما يتبخر آخر طموح عندما لا تبقى منه ذرّة عندما يكتفي الكائن بكينونته دون عناء دون وصف دون تعريف دون تعليق متجاوزا ثرثرة الروح الصامتة متجاوزا كلّ أمل في كلّ أمل.

يصل هذا الصمت ذروته عندما يجلس الصامت ليجلس.. لمجرّد الجلوس لا لهدف

آخر ولو كان البحث عن «الساتوري».

إن هدف الصمت غربيًا أو شرقيًا طبعا واحد: الإفلات من اللّغة. يواجه الصمت الشرقي نفس الاستحالة. يعتقد وهو في أوج اكتماله أنّه روّض الموجود والحال انّه لم يفعل سوى إضافة تجربة إسمها «السّاتوري» إلى عالم ملآن إلى درجة الغثيان بكلّ أنواع التّجارب والكلمات التي تصفها وتوجد من خلالها.

يتّضح هنا أيضا أنّ الأمر كلّه سيناريو كتبه كاتب باللّغة ونقله ناقل باللّغة وفهمه السّامع باللّغة.

يوصل التّمادي في هذا النّهج إلى وضعيات مضحكة.

يواجه الآدمي الموجود في أعلى درجات الفكر بالأفكر وفي أعلى درجات التصوّف بماثلة الحيوان والتماهي مع النبتة.

أليس الصمت والالتحام والانغماس في الموجود خارج كلّ لغة لا تتجاوز الحاجيات الدنيا خصائص تلك الأجناس الحيّة الأخرى والتي وضعها خطاب التعريف والوصف والتعليق في أسفل السلّم القيمي للكائنات.

ها قد جعل الصمت الشرقي من أين يشعر ولا يشعر الكائنات التي نسمّيها حيوانات مثالا وها هو قد جعل من العودة إلى طرقها وأساليبها في التعامل مع الموجود الحلّ الأمثل والأوحد.

نكون إذا انطلقنا من آدميتنا لنحاكي الآلهة فإذا بنا نحاكي كائنات طالما أمطرناها وابلا من أسماء التّحقير.

أضحكتني فكرة أنّ ديانة أو فلسفة «الزّان» جعلت من أين تدري ولا تدري مثلها الأعلى وقدوتها وأساتذتها.. القطط

تبقى آخر المحاولات تلك التي تسمّيها اللّغة فنّا.

يتقبّل الآدميون بكلّ حواسهم الإشارات المهموسة.. الموشوشة.. المنكرة الزعيق الآتية من مختلف مكوّنات الوجود. يقال أن كثيرا منها تضيع سدى لأنّهم غير مؤهلين أو غير مطالبين بالتقاطها. هكذا تراهم يسمعون ولا يسمعون يرون ولا يرون يشعرون ولا يشعرون.

تلتقط حواسهم كلّ أشكال خطاب الموجود والآدمي الذي يواجههم يفهمون أقلّه ويتجاوزهم أغلبه ثم هم يحاولون الردّ ليبلّغوا أنّهم التقطوا الإشارة أنّهم يقبلون أو يرفضون أنّهم يوافقون أو لا يوافقون. هم يأخذون الكلمة ليعرّفوا بأنفسهم بموضعهم على الخريطة بالطريق الذي يريدون انتهاجه ليسألوا عن أقصر الطرق وأضمنها للوصول

إلى أهدافهم ليقصّوا ما رأوا وما سمعوا عن هذه الطرق الخطرة الآمنة.

يخرج الكلام من أفواههم وأنوفهم. يكتشفون عاجلا أو آجلا أنّه لا يستنفذ المشاعر والأحاسيس والمخاوف والآراء التي تعتمل داخلهم. تتضّح لهم حدود الكلام في نقل خارجهم إلى داخلهم ونقل داخلهم إلى خارجهم. هكذا تراهم يعهدون إلى أنواع أخرى من الكلام.

لقد رأيت منهم من يتكلّم بأيديه باختلاجات تكاد لا تلاحظ في عضلات وجهه. لقد رأيت من يحاول التعبير عن اختلاجات الروح بصوت متموّج يخرج من شفتيه تطرب له أرواح من يستمعون وهم لا يفهمون لماذا يثير فيهم فجأة مثل هذا الصّراخ الشجيّ اضطرابا مفاجئا وبكلّ هذه الحدّة.

لكم استمعت إلى هذه الأصوات التي تخرج فجأة من حناجرهم بكلّ أصناف اللّهجات المفهومة وغير المفهومة. ترتعد مني الفرائص. أصاب بالدهشة وبالذهول تجتاحني أمواج من الرّهبة... أومن الخشوع أومن الحزن أو من اللّذة. تصل الأصوات المولولة إلى طبقات غير محتملة تفتّش بقسوة عن أحاسيس ومشاعر طمرت في أعمق الأعماق. يتّضح عندما يعود الهدوء إلى الرّوح أنّ هذه الأصوات نجحت أينما فشل الكلام في طبقته المسترسلة المعتادة المبتذلة. هي أوصلت ما كان صعب الإيصال وهي حرّكت ما كان صعب التحريك. هي ربطت لفترة وجيزة أعماق المغنى وأعماق السامع ورمت بين الذاتين قنطرة ذكرتهما بأصولهما الواحدة.. بمأساتها الواحدة... بغرابتهما الواحدة... بغربتهما الواحدة.

ولقد رأيت مثلك من يحاول تنطيق الصمت والصامت الذي يشعر به ساكنا داخله بتنظيم الكلام نفسه كأغنية وتعلّمت أن أحبّ هذا الكلام الذي لايريد أن يكون نافعا وإنّما أن يكون جميلا وكذلك عرفت آثار من آلوا على أنفسهم أن ينطقوا الوتر والجرس والطبل والقصبة وكأن الكلام الذي يخرج من أفواههم وأنوفهم حتّى وهو عويل غير كاف وغير قادر.

يتصاعد من هذه الأشياء الميّتة الصلبة المقعرة المثقوبة ضجيج لا عهد لك به.

يضرب الآدمي على الشيء الذي بين يديه أو ينقره بأصابعه أو ينفخ فيه وهو لا يدري لماذا يفعل هذا ويخيّل إليك انّه يضرب أو ينقر أو ينفخ في أماكن من ذاتك أن أنامله تداعب أوتارا مكبوسة فيك فتتصاعد من قيثارة الرّوح أمواج من الأحاسيس والمشاعر العاصفة.

تقول هذه الأصوات كلّ الأشياء ولا تقول شيئا. هكذا تراني أمامها كمستمع لكلام آدمي لا أعرفه ومع ذلك أصاب وأنا أسمعه تارة بالانبهار وأخرى بالرعب وأنفجّر ضاحكا

كأنني التقطت بكلّ جوارحي ظرافة النكتة وعمقها.

إن ما توحي إليّ به ما تسميه لغة الشفتين واللّسان موسيقى هو أنّها لغة ما فوق اللّغة لغة ما وراء اللّغة ولغة ما قبل اللّغة وطالما تخيّلت إنها لغة الآلهة وأنّنا نتمرّن عليها كمن يتمرّن على كلام أجنبيّ ضروري لسفرة مثيرة مقبلة.

لكن الموسيقى ليست إلاّ شكلا من أشكال اللّغة الآدمية... شكل تحرّر من ضروريات الإشارة والتّسمية شكل مختص في ولوج مجاهل الذّات وأعماقها ليستخرج منها أدقّ ما في الإنسان من أحاسيس ومشاعر. هي ليست بديلا للّغة وإنّما امتدادها واكتمالها.

نحاول تصوّر حالة ما وراءَ اللّغة فترتبك المخيّلة. هي إن وجدت منطقة حرام لا يضيئها شعاع لانلجها إلاّ إذا خرجنا من آدميتنا.

هكذا يتساوى القطط والآدميون وربّما الآلهة أمام دلال وتمنّع الموجود وكأن القانون الأول: هذا نصيبك من الرّؤيا فلا تطمع إلى مزيد.

والقاعدة الثالثة: لافرار من العالم الآدمي نحو ايّ مطلق إذ لا تجاوز للّغة بأي حيلة من الحيل.

* * *

إنّ لدخولك الموجود بالآدميين وعبر الآدميين ترتّبات لامهرب منها.

أنت ستتعامل معه بحواس الآدميين لا بغيرها من الحوّاس. أنت ستفصّل أجزاءه وستشير إليها بلغة الآدميين لا بغيرها من اللّغات. أنت ستبحث له عن تنظيم بفكر الآدميين لا بفكر آخر. أنت ستعيد خلقه وتشكيله بمخيّلة آدمية وكوابيس آدمية وإن ملأته بآلهة وشياطين فهي ضرورة آلهة وشياطين آدمية والقاعدة الأولى أنّك لا تصل إلاّ عالما آدميا ولا تستكشف إلاّ عالما آدميا ولا تخرج إلاّ من عالم الآدميين وما عداه حرام مطلق. تفتح لك اللّغة أبواب عالم وتوصد أمام وجهك عوالم لاقبل لك بتصوّرها فما بالك بمعرفتها.

وقد تتنطّع ضدّ هذا القانون تحاول إدراك عالم آخر تصفه بهذه الصفة أو تلك... إنّها مجرّد فكرة آدمية لأن من معالم عالمه أن يكون هناك دوما شيء ما وراء كلّ باب مغلق. تحاول تسلّق جدار الموجود الآدمي بالفكر والمخيلة لتدخل عالما غير عالم الآدميين وكم من مسافرين عادوا من هذه الرّحلات الخيالية محمّلين بصور وذكريات غير واعين أنّهم لم يستكشفوا إلاّ جزءا آخر من عالم الآدميّين.

تفاجئك الكائنات بكثرتها وتعدّدها وكلّها عوالم محكمة الغلق. تجاهد لولوجها... عبثا. تحاول لأنّك آدمي وتفشل لأنّك آدمي وتواصل محاولة الخروج من سجن الموجود

لأنّك آدمي وتبقى تحلم بفتح فقاعة الصابون التي تكوّن عالمك على ألف فقاعة وفقاعة ويبلور هذا الحلم المجنون حدود آدميتك. أنّه لمحكوم علينا أنّ كلّ تعريف سيبقى تعريفا بعالم الإنسان وكلّ وصف وصفا لعالم الإنسان وكلّ تعليق تعليقا على عالم الإنسان أي على جزء ولحظة من الموجود.

هل أضعنا حقّا بهذا شيئا ثمينا لا يعوّض أم هل ربحنا على العكس بهذا البتر القدرة على الارتحال والمتعة أي حاجة لنا بالضياع في متاهات الموجود الأمتناهية واتّساعه المخيـــف وامتلائه الأخرق ونحن نعجز في حياة قصيرة عن اكتشاف جزء ضئيل من الغنى والتنوّع الموجود ضمنيّا في عالمنا المخصّص لنا.

القاعدة الأخيرة: لن تستكشف إلاّ عالما واحدا في كلّ رحلة.

* * *

تتجمّع الأفكار المتفرّقة لتنظّم وفق تشكيلة جديدة أفهم أنها ليست «الحقيقة» التي يبحث عنها الحقيقيّون وإنّما آخر لوحة يرسمها فكري وهو يتأمّل الموجود.

تولّد اللّغة من الإبهام والغموض والعتمة ـ هذه المادّة الخامّ التي تستخرج منها كلّ الكائنات عوالمها الخاصّة ـ عالما للآدميين. ترسم لهم فيه مسالك وطرقات. تبنى لهم فيه دعامات. ترفع عليها أسوارا وبنايات شامخة هي الفكريات تلك الكائنات الغريبة اللاّمنظورة التي تولّد من اللّغة كما ولدت من رحم المحيطات الخلايا الخضراء اللّزجة التي يقال أنّها كانت أولى لبنات الحياة.

نعبر الموجود نشقّ دروبه والعتمة تصاحبنا. هي أمامنا وخلفنا داخلنا وخارجنا على يسارنا ويميننا. هي منطقة تراقص الظلال يحدّد الاسم معالمها وحدودها الباهتة. هي مدخل العدم أومخرجه وفيها توجد كلّ مساحة المغامرة.

والاسم هو المصباح الذي نضيء به العالم. هو حقّا قصير المدى وقد يخلق أحيانا ظلالا مرعبة وهو الغشاء الموضوع على أعيننا. يبقى مع ذلك الدّليل الذي لاغنى عنه.

نوسّع دائرة النور فلا نجد إلاّ لغزا داخل لغز داخل لغز لانهاية للعتمة.

إنّها المادّة الخامّ الحاملة لكلّ الممكن من الأشكال والحالات... الطين والصلصال الذي لا ينتظر من الفكر إلا أن يكتشف فيه هندسة لم توجد بعد يكون هو مهندسها يخلق منها ما تيسّر وما تسمح به عبقريته من لوحات من قصائد من تماثيل من قصص وسمفونيات لا يحدّها حدّ لأنّه لا نهاية للعتمة بامتدادها وعمقها ولا نهاية لما يمكن أن نستخرج منها من أشكال وحالات.

يتكثّف السرّ حوالينا وفينا... ها قد جاء الفضول ومتعة الكشف ولو لا ما أخفي

لما تمتعنا أطفالا كبارا وصغارا بلذّة إعمال المفتاح في الأقفال الممنوعة.

تستشري بيننا فكرة إجبار العتمة على البوح بإسم الصانع وأسرار الصنيعة لمشاركة المهندس الأكبر أفكاره وخططه وإن لم يرضى السّطو عليها.

لكن ما الذي كان يحصل لوعرفنا كلّ الأسماء المخفية أكنا نجلس القرفصاء أمام الكنوز المفتوحة لنتساءل بقلق حادّ وغير مفهوم والآن ماذا سنلعب.

هل كنّا نعمد إلى إخفاء ما اكتشفنا وننسى أننا أخفينا الكنز وننسى داخل النسيان أين وضعناه لكي نواصل اللّعب تقلقنا فكرة مبهمة أننا نغش ولا ندري أين.

ثمّ ما الذي كنّا سنترّكه لمن سيدخلون الموجود بعد أن نرتحل عنه وقد أكملنا الحجّ والسياحة أكانوا يرضون منا بعالم لم يعد فيه ذرّة من لغز وشيء من عتمة أكانوا يقبلون بأن يدخلوا القصّة البوليسية من نهايتها أتصوّر غضبهم وسخطهم على من أفسدوا عليهم متعتهم ولا أتصوّرني غير مشاطرهم الرأي.

لو كان الموجود محجوبا أي غير قابل للتسمية لما كانت الرّحلة إلاّ ضربا في التّيه داخل قعر بئر مظلمة. لوكان الموجود مكشوفا أي لو كانت كل الأسماء كاملة معروفة مفهومة لما كانت هناك أدنى ضرورة لها. توفّر العتمة أكثر من فرصة لمن يشكّل فكّ الألغاز والأسرار والأحاجي هوايته الأولى. أليست الشرط الأوّل لتكون الرّحلة مغامرة وما أكثر فينا من يحبّون المغامرات.

هي لا تستثير الفضول فحسب ولا تستفزّ فينا حاجّة إعمال التفكير ولكنّها تعلّم أيضا الشجاعة. تبلور الصبر. تصقل القوّة. هي تشذّب في الروح أكثر من صفة.

تمكّن العتمة من استكشاف مجاهل الذّات ومواجهة أهوالها وأخطارها عبر استكشاف الموجود. إنّه محكوم علينا أن نتفاعل بحواسنا الستّ مع العتمة لنصنع هذا الموجود وأن نخلق فيه الدروب والطرق وأن نخلق ابتداء من أطياف وأشباح مبهمة كلّ الكائنات التي نعرف وأن نخلق الآلهة التي تخلق العوالم والأكوان وأن نخلق قصص اللّغز وقصص المغامرة وقصص الخلق.

ينغلق الحلم على نفسه ليكون الحالم حلمه والحالمون. تنمحي الحدود والفوارق بين ما تسميه اللّغة واقعا وما تمارسه كفنّ.

تفتح لي هذه الفكرة طريقا واسعا ممتدّا إلى الأفق. تختفي الثنايا الضيّقة المتعرجة داخل أدغال من الشوك. نحن لا ندخل الرّحلة إذن لاستكشاف الأرض والبحر والنهر والجبل والشّمس والقمر وكلّ أقمار وشموس الشيء المسمّى كونا وكلّ ما يحتويه من كائنات وإنّما يرتحل كلّ واحد منّا يرسم عالم حياته وحياة عالمه كفنّان يصارع مع الفرشاة الألوان لبلورة لوحة هو موضوعها.

يأتيني تصوّر جديد للرّحلة وكيف أنّها ليست سياحة ومنفى وامتحان ومحنة وعبث وإنّما هي كلّ هذا وغيره لأنّها خلق الموجود للآدمي ليجرّب كيف يكون الواحد المتعدّد إنسانا.

* * *

الجزء الخامس

خشيتهم من مغادرة الموجود على اهواله
ونسجهم قصصا يواصلون بها رحلة ابدية.

وفي توضيح رأيه انّه ليس للعالم بداية ونهاية أصلا وان الرّحلة ليست إلاّ منعطفا في صيرورة أزلية قال الرّاوي:

أنت لاتحضر دخولك ولاتحضر خروجك لكنّك تستطيع أن تستقبل قادما وان تودّع راحلا وفي مثل هذه الظروف تأتيني عادة لسبب أجهله الأفكار التي أبني بها عالمي.

لا أذكركم من مرّة مشيت خلف المرتحلين يرفعون على أكتافهم ذلك الصندوق الخشبي الذي تختم به الرحلة.

يرفع الجسم ويمدّد فوق الرؤوس والهامات. يبحر على الأكتاف المتمايلة ليودع الملجأ الأخير.

أذكر تفاصيل ذلك اليوم الذي مشيت فيه أودّع في الثرى الجسم الذي ركبته لأدخل العالم.

ها أنا والألم يظلم أمامي الطّريق أقترب من الذين يتناولون الفأس بحزم ويضربون الصلب بقوّة يفتحون فيه أخاديد يوسّعونها شيئا فشيئا لتنفتح تلك الهوّة التي ستحتضن عمّا قريب ما بقي من الرحّالة الهمام... وكم كنت أنظر بانبهار إليها وهي تتّسع وتستقيم لتأخذ شكل الجثّة التي ستوارى فيها. كنت ألمس بعينيّ لون التراب البنّي أشمّ رائحة الثرى المتصاعدة أتحسّس الأرض الرطبة اللّزجة الباردة ثم أنني كنت أتمعّن في الفأس وهو يشقّ طريقه نحو الباطن فأتساءل أهل هي راضية أم مزمجرة مقطّبة عابسة وكانت تأتيني أحيانا فكرة مضحكة والرجال يهيلون التراب جانبا على جانبي القبر أنني سأراهم يعثرون ولو مرّة واحدة على كنز مطمور أو عظام بيضاء بالية أو على نبع من ماء صاف.

تتّسع الحفرة ولا شيء فيها غير مزيد من التراب. تعود بي الذاكرة إلى أحلام بعض المسافرين عن كائنات عمياء بشعة لزجة تتغذّى بالأهداب والمقلتين والحشا تلتهم.

القلب الذي أحبّني وتتلّمظ بالدماغ الذي اكتشف يوما أنه أصغر من أن يحتوي الكون وأسكن من أن يحتوي المتحرّك وأقصر عمرا من أن يتعلّم تجربة الأبديّة.

ثم إنّهم أخذوا الجثّة وقد التحفت بلحاف أبيض رهيف لا هو بدرع يمكن أن يحمي الجفون والمآقي من أنياب الكائنات العاضّة القاضمة ولا هو بغطاء يمكن أن يقي من برد ورطوبة الثرى ولا هو بزيّ يمكن أن يتبختر به المغادر إذ انفتح له في بطن الأرض سرداباً يحمله إلى مغامرات أخرى في عالم صّبي.

ثمّ أنهم أنزلوها بمنتهى الحذر وقد امتدّت الأيادي رهبة وكأنها لا تريد عودة الشيء إلى مأتاه والرضيع إلى أمّه والحبيب إلى حبيبته والنبتة إلى الرحم التي خرجت منه ثمّ أنهم وضعوها بكثير من الرّفق على قاع الحفرة في حركة هادئة رقيقة لا تؤلم الأمّ ولا تؤلم المرأة أمّي ولم أر الجثّة تهتز رعبا ولم أسمع الأمّ تنبس بنت شفة وكأنّ ليس بها فرح لملاقاة وليدها وليس بها ترح لما آلت إليه.

ثمّ إن حافري القبر كانوا يخرجون من الحفرة بعجلة واضحة وكأنّهم لا يودّون إطالة مقام ليس لهم فيه رغبة ولا مصلحة.

يتحلق الرحّالة في مثل هذه الأوقات الحرجة حول الحفرة يتمتمون بصلوات وأدعية مبهمة وأيديهم ممدودة مبسوطة راحتها في اتّجاه القبّة الزرقاء يودّعون الراحل ويدعونه في جوف الصلب وفي قلبك عواصف من الأحاسيس والمشاعر.

ثم هم هالوا آخر حفنة من الثرى ليختفي رويدا رويدا البياض تحت تراكم المحمّر السواد تغيّب رفات المسافر عن الأنظار المشرئبّة.

تمتلئ الحفرة بما أفرغت منها. تهال آخر حفنة من التراب على جسد لم يعد يثير شهوة أو غيرة ولم يعد يعرف فرحا أو ترحا ولن تدفعه إلاّ حركة التفكّك والتجزئة. هكذا تنطوي البسيطة على نفسها وعلى هذا القادم الجديد وإنّ لها دوما مكانا للكلّ على سطحها كما لها مكان للكلّ في جوفها.

ينصرف بنو سفر وعند باب المقبرة يديرون ظهرهم إلى هذا المكان الذي سيرجعهم إليه الطريق طالت مدّة الرحلة أو قصرت.

وفي مثل هذه اللّحظة هي تتفتّح فتخرج منها كلّ البراعم وفي مثل هذه اللّحظة هي تنغلق على كلّ من انتهت حجّته.

ثمّ أنّني نكصت ذلك اليوم على أعقابي بعد انتهاء مراسم معقّدة لآخر وداع لأنظر إلى الحفرة وهي كالجرح الجديد على جسد.

ستوضع على هذا المكان علامة وهم يضعون هذه العلامات هنا كما يضعون الكثير من مثلها لترويض البسيطة أي لترويض خوفهم من الضياع في اتّساعها وامتلائها وفراغها.

تقول هذه: هنا وقف بي الزمن وهنا انتهت رحلتي أنا جوّاب الآفاق.

أغمض عيني أتصوّر مشاهد قبور بني آدم وبني حيوان وبني نبات بأحجامهما وأشكالها وتتابعها المتسارع فإذا بالشواهد تحتل كلّ شبر من الصلب لا يتوسّط قبران إلاّ قبر ثالث.

يهولني أن يكون هذا الطبق العائم على أنهار نارية من المعادن المذابة مقبرة تتجوّل بين النجوم مقبرة لا ترفض جثّة كبرت أو صغرت في الحجم ولا تعلن عن ذروة اكتظاظ وامتلاء ولا تقفل لها بابا أيّام الأحد والعطل.

أحاول وأنا واقف على القبر أن أهشّ على الألم كما أطرد كلبا ثقيل الظلّ يفسد عليّ لحظات هامّة. تحضرني الفكرة أن الكلب الذي يعضّ الرّوح بنواجذه ليس منّي وإنّما من قصّة أخرى سمّمتني ولم أفلح من الشّفاء منها.

* * *

أعود بذاكرتي إلى قصص الألم ويا ما قاسى ويقاسي منها بنو سفر.

هي تجعل الرّحلة «تبدأ» «بالولادة» وتنتهي بمرحلة اسمها «الموت».

انت فيها تنطلق من باب الدّخول إلى باب الخروج وقد لبست حالة أو لبستك اسمها «الحياة».

ويوم دخلت الموجود كان النقاش محتدما بين أهل «العلم» حول خصائصها ومواصفاتها وكان محتدما منذ قديم الزمان بين الجميع حول طبيعة هذه الحالة.

تدخل «الحياة» كتجربة حسّية شعوريّة عبر تلك القنطرة التي تسميها أمّي وتبقى حيّا جاهلا أنّك حيّ لمدّة قصيرة ثم تدخلها مجدّدا في سنّ مبكّرة عبر القصّة تسكنها فكرا وعواطف تنظّم وتتحكّم في كلّ شعور وإحساس فيك وانت جاهل بأنّها قصّة وانّه لا مجال للعيش و«الموت» إلاّ عبرها.

لقد دخلت «الحياة» من باب قصّة المرأة - أمّي وهي تقول إنها هبة وعطاء من خالق قدير نفخ شيئا من طاقته في مخلوقات قدّت من رخيص المادّة ثم هو جعلها وأوجدها لتعرف قدرته وسلطانه لتتعبّد له وتسبّح ثم هو حدّد لها وقتا لكي تقوم بالمهمّة ثمّ هو يدعوها بعد نهاية المدّة المحدّدة للتجربة لتمثل أمامه لعقاب رهيب أو عطاء لاحدود له حسب النجاح الذي حقّقته إبّان امتحان الرّحلة.

وفي هذه القصّة يكون الموجود نفسه من صنع الصانع الأكبر. هو الخزانة المغلقة المعطى الخارج عن ذاتي الفضاء المملوء المكتظّ الذي تصله بأمر وتخرج منه بأمر. تتلقّى الحياة منّة وتؤخذ منك لأن صاحب المنّ لا يريد مزيدا من المنّ وتبقى في هذه القصّة الرهيبة تتلمّس لهيبك لتعرف هل آذن بالانطفاء وانت بين رعب وأمل.

تنقلب عندما تتبادر نهاية الرّحلة شحّاذا يتضرّع لصاحب المنّ ليواصل منّه وانت تعلم

أنّك لن تأخذ منه إلاّ النزر القليل. لا يبقى للقصّة إلاّ أن تنظّم مكانا آخر يتواصل فيه المنّ وتكتمل فيه النعمة ويتواصل إلى الأبد لهيبك وضاءا لا تطفئه ريح ولا ينفذ له حطب.

تمرّ الرّحلة وانت مسكون بهاجس النّهاية المحتومة بنهاية الهبة بضرورة مواجهة القاضي الأكبر ودفاتر الحسابات ملطّخة. تعيش متألّما لضروريّات الرّحلة وتموت متألّما لأنّك لا تريد مفارقة هذا الذي يؤلمك خوفا ممّا ينتظرك من تلاشي أو من شديد العقاب.

طبعت الأولى طفولتي وطبعت الثانية مراهقتي وهي قصّة لأغراب تائهون شديدو التعصّب والثقّة معرفتهم وحدهم للسرّ و«الحقيقة الموضوعية العلميّة». لكم تقاذفتني طويلا بينهما وكأنني كرة مضرب وكم تخاصمتا داخلي وافترقتا ثم تجاورتا وتداخلتا ترفضان أن أكوّن لي قصّة خاصّة لأركبها وتركبني وقد تسهّل لي العيش أكثر ممّا كانتا تسهلان.

وفي القصّة الثانية إنّما حياتك قنطرة بين عدمين أتيتها بدون سبب ترحل عنها أو ترحّل منها بالقوّة ذلك انّك تفجرّت عن الميت وإليه تعود. تولد من الغباء اللاّمحدود للبنات من المادّة جمعتها الصدفة والضرورة وتنطفئ لا يبقى منك مثلما لن يبقى من كلّ حيّ إلاّ حفنة من الرماد.

يواجه ساكن هذه القصص تفتّت الجسم وضياع الرّوح وفوضى الفكر بألم مستديم لا ينفع فيه الكبرياء الفارغ والبطولة الوهميّة. تلده القصّة عبثا تحييه القصّة عبثا تميته القصّة عبثا.

يتجاوز الألم في هذه القصة المخيفة كلّ ما يمكن تحمّله. هي تسمّم الرّحلة على حدّ علمي كما لاتسمّمها قصّة أخرى ممّا يتناقله بنو سفر منذ الأزل.

هكذا خيّرت بيني وبين نفسي أن أرى وأتعامل مع الحياة كهدية من خالق محبّ جعلها تجربة لبيلوني أو عبثاً محضاً من شطحات خيال إله سادي أعمى إسمه الصدفة.

يتّضح لي بعد سنوات من التخبّط داخل القصّتين أنّهما في الأساس وجهي نفس قطعة النّقد وكانت لي أكثر من صعوبة في التعامل معهما.

إنّ أخطر ما طبع ويطبع ذهن كلّ مرتحل يدخل عبر القصص التي ذكرت ليس اسم الخالق أو تفاصيل الخلق أو أسبابه ومراميه وإنّما الإطار نفسه الذي تفرضه كأمر بديهي هكذا ترانا نختصم حول التفاصيل وقد ألهانا الجدل العقيم عن القاسم المشترك الرّئيسي بينها ألا وهو أنّ هناك بداية للرّحلة اسمها «الولادة» ونهاية لها اسمها «الموت».

تجعل القصص التي توارثناها من أجيال سابقة للرحّالة الرّواة البداية بداية مطلقة والنهاية نهاية مطلقة.

تضع حدودا فاصلة لا تخترق بين جزء «حيّ» من الموجود وجزء لا يشعر ولا يفكّر ولا

يتألّم ولا يصاب بهوس الشهوة ولا يعرف ألم المخاض وحلاوة الإرضاع ولا تصيبه الأفكار بوجع الرأس ولا يعرف أنّه يعرف ولا يعرف أنّه لا يعرف.

تضع حدودا وحواجز بين الكائنات الحيّة نفسها. تعهد للأغلبية الساحقة منها بصنف أدنى من الحياة تكون مشاعر مبهمة لا تشذّبها اللّغة ورؤية ضبابية للعالم لا تصقلها الأفكار إشارات بدائية تتوقّف عند الضروري وحيل تحلّ مكان الذكاء وعجز عن إعادة خلق الموجود عبر شتّى أصناف الحلم الخيال.

تتداخل القصص وتتضارب وأجد نفسي مواجها بأكثر من رؤية وتأتيني التّجربة لأغرف من هنا وهناك موادّ لقصّة تخفّف ألمي ولا ابغي من ورائها هدفا آخر.

* * *

ها أنا أصيخ السّمع لمن يقولون إن الحياة سيناريوهات مكتوبة بنفس الأحرف أيّا كانت الكائنات تلك التي تدرك نفسها حيّة وتلك التي تحيا خارج اللّغة إن لكل الكائنات تجاربها الخاصّة وخصوصيّة تجاربها وأن المفاضلة لا تجوز بما أننا لا نعرف ماذا نقارن إن الحدود بين «الحي» و«الميّت» من صنع الفكر لا غير إن الكائنات أسميّت نجوما أو مجرّات أو بحارا أو غابات أو صحاري وعاء «الحياة» ومتطلّباتها وشروطها ولأنها لبناتها ولأنّها مبتدأها ومنتهاها ولأن الشيء لا يتولّد من نقيضه ولأن الحيّ لا يمكن أن يأتي إلاّ من الحي فإنّها هي الأخرى حيّة بمعنى أن لها صيرورة بمعنى أنّها تجعل الموجود حاضرا متحرّكا متماسكا متغيّرا.

أكتشف يوما بعد يوم أن هناك حياة بلا لحم ولا دم ولا شكل ولا أحاسيس. إنّها حياة تلك الكائنات الغريبة التي سمّيتها الفكريات وكم رايتها تولّد وتتوالد تتكاثر ويلقّح بعضها البعض تتواصل عبر الزمان وهي الأخرى ترفض التفكك والاندثار تحاول جاهدة الحفاظ على شكلها ووجودها عبر حروب رهيبة بينها ترمي في أتّونها المدمّر ملايين الكائنات الآدميّة.

هكذا تبلورت رويدا رويدا وبمنتهى الصّعوبة ملامح القصّة التي كانت تهدئ من روعي وتسهّل عليّ أيامي ولياليّ ويا عجبي لمن لا يرضون إلاّ بما يعسّر عليهم رحلتهم.

هذا ما يتبلور في ذهني وأنا في هذه المرحلة من تطوّر الرّحلة.

إنّنا ما نعتقد.

إن «الحقيقة المطلقة» قصّة.

إنّنا لاننفكّ نخلق القصص وتخلقنا.

إن لكل عصر انتاجه الخاصّ والمتميّز من القصص.

إنّه يغرف من حالة علمه وتجربته وهو في ذلك المقطع المحدّد من تاريخه لبلورة الطّريف والجديد منها.

إنّ اختلاف المرتحلين حولها جزء ثابت من الرّحلة يثير دوما صراعات بعضها بالغة الخطورة لشدّة تحمّس البعض لقصصهم.

إنّ خلق القصص لن ينتهي إلاّ بعد نهاية آخر حركة لآخر مسافر.

أنّ علينا أن ننخرط في سياق عمليّة الخلق المتواصل هذه لأنّها مواصلة لبلورة آدميتنا وخاصّة أن علينا أن نخلق منها النّوع الذي يسهّل الرّحلة ويرسم على ثناياها الخطرة علامات تهدّىء من الرّعب وتشيع في أنفسنا المرهقة الأمل والطمأنينة.

وممّا جعل القصّة الخاصّة تستقيم في ذهني ولا تغتصبه ما لاحظته بخصوص الثنائيات مثل موت / حياة مادّة /روح نور /ظلام... الخ.

إنّها لا تصف حالتين متباعدتين متناقضتين يتخذّهما الموجود وإنّما هي وصف لحالتين بارزتين لظاهرة واحدة.

تنتشل اللّغة الحالتين القصويين لضروريات الحركة وتتناسى ما بينهما أو هي تطلق بعض الأسماء على أهمّ مراحل الانتقال والحال أن عليها أن تجد اسما لكلّ اللّحظات بألوانها الرقيقة وأن تنظمّ منها عقدا من الكلمات لتصف تمظهرات الموجود.

تختفي آنذاك الثنائية بفظاظتها وهيلمانها واستئثارها بما ليس لها فلو نثرنا مثل هذه القلادة من الكلمات لاتضح أنّ الحالات تتولّد من بعضها البعض أنّها تمهّد لبعضها البعض أنّه لا معنى لمواجهة حالة منها بحالة ليست نقيضها وإنّما هي مرحلة من مراحل تواصل القلادة وهي واحدة.

هذا يعني أن على اللّغة كما أريدها في قصّتي أن لا تقول أن هناك النهار واللّيل وأن تضعهما الواحد على طرفي نقيض الآخر كما لو كانا أعداء بالطبع والوراثة وإنّما أن تقول: ومن حالات الموجود وتمظهراته أن يكون إشراقا بطيئا وأن يكون فجرا خجولا وأن يكون صباحا لطيفا وأن يكون نهارا وضّاحا أن يدخل شيئا فشيئا عمق العتمة فالظلمة ليصبح ليلة ليلاء تلد عتمة تميل شيئا فشيئا إلى سواد يحمّر بتؤدّة متدرّجا نحو حمرة داكنة يتبعها الإشراق في كلّ مهابته وجلاله.... وهكذا دواليك بلا توقّف أو نهاية.

لقائل أن يقول إن هناك الذكر والأنثى وليس بينهما ألف همزة وصل وننسى أنّهما شكلان مختلفان فقط في بعض التفاصيل لكائن واحد هو الآدمي النموذج إنّهما مترابطان متلاحمان ضروريان لوجودهما وأن بينهما على تباعدهما الشكلي في مستوى الروح ألف همزة وصل.

هكذا أصبحت لا أرى ثنائية إلاّ وترنّ أجراس الإنذار داخل فكري ولا أجد ثنائية إلاّ ورأيت الفخّ وراءها وهكذا قرّرت أن لا أوجد في قصّتي مكانا لـ «الحياة» و«الموت» إلاّ كألفاظ للقصّتين اللتين دخلتهما مجبرا غير مخيّر وان أسكن قصّة أكثر رحمة بالمسافرين.

* * *

يرفض الطفل الكهل الواقف على قبر المرأة ـ أمّه بأقصى ما أوتي من قوّة قصص الألم. يأتيه تصوّر للأحداث حول لقاء راض يسعد به الداخل إلى الرحم والرحم نفسه.

لكم شبعت هذه الأجساد العائدة إلى الثرى ألما ولذّة! لكم هي منهكة! لكم بلغ بها الإرهاق درجات لا توصف! لكم تشبّعت بكلّ ألوان الاسم ـ العالم وتشبّعت بكلّ روائح الاسم ـ العالم ولكم عبّت منه كلّ مسام جلدها وكلّ حواسها الأخرى.

لكم عايشت من عواصف داخلها وخارجها ولكم واجهت من أهوال وروائع لكم هي ملآنة إلى درجة الفيضان!لكم هي شبعانة إلى درجة الغثيان! لكم أتخمها الاسم ـ العالم وأسكرها إلى ما أبعد من كلّ حالات السكر!.

لكم أثقل النوم جفونها! نعم لكم هي مرهقة متعبة! لكم هي بحاجة إلى راحة أبدية لتجتر كلّ هذا الذي رأت وسمعت واستنشقت وذاقت ولمست وعرفت وفكرّت وحلمت وخمّنت واكتشفت وأخطأت!

يهب الراقد جثّته للبسيطة كمن يعيد الشريف إلى صاحب الفضل فضله وإلى صاحب الأمانة أمانته وإلى المعير قرضه لتعجنها لتستخرج منها ما طاب لها من الكائنات.

لقد قضى منها الوطر ولم يعد بحاجة إليها.

هو قد نزل من مطيّته ليرتاح ويريح ليفسح المجال لغيره من الفرسان ليجرّبوا حظّهم مع الاسم ـ العالم.

وفي مثل هذه القصّة ينتفي كلّ خوف من دخول بطن البسيطة.

تتبدّد كلّ تلك المشاعر البغيضة من اشمئزاز لا حدّ له ورعب لا يوصف والمسافر يتصوّر عينيه وقد ملأتهما كائنات لزجة سوداء شرهة تزدرد بياضهما تتلمّظ سوادهما تشرب آخر قطرة من دموعهما تفتح لها انطلاقا منهما أنفاقا وسراديب لتلتهم تلك الخلايا التي كانت تريد أن تسع سرّ الاسم ـ العالم وتلك الأحشاء التي كان يعصرها الخوف والألم وذلك القلب الذي كانت تتسارع دقّاته أمام ابتسامة الفجر.

في مثل هذه القصّة يؤوب المسافر إلى رحم الأرض كما يؤوب الرضيع إلى ذراعي أمّه وكما يدخل المرهق فراش الراحة وكما يخرج السجين من زنزانته إلى الهواء الطلق كما يعود الغريب إلى وطنه.

يتصوّر الطفل ـ الكهل نهاية الجلبة والضوضاء وقد هيلت على المرأة ـ أمّه آخر حفنة من التراب وقد استرجعتها الأمّ واحتضنتها مجدّدا وقد التصقت بها هي الأخرى كالمقرور يبحث عن الدفء.

وفي قصّتي هذه لا يجب أن يعرف يوم الرحيل إلاّ ضرب الدفوف وانطلاق الأهازيج وضحك الأطفال وقد أتوا لوداعي.

أتصوّر بعضا من أهازيج ساذجة مرحة بسيطة كتلك التي لا يحبذّها إلاّ من بقوا أطفالا.

«يا من أحببنا جميعا ذهبت كما جئت أسرارا مطمورة. ذهبت كما جئت عيوبا مستورة ومآثر مذكورة. لقد كانت سفرة ممتعة وحجّة مقبولة وانت يا أمّنا الغامرة المغمورة ضمّيه إليك ضاكحة مسرورة ولتكن أينما ولّيت وجهك مجدّدا رحلة ميسورة ومتعة موفورة».

وفي مثل هذه القصّة تنزل الجثّة الهامدة إلى أحشاء الأمّ لا لكي تلتهم وتفتّت وتؤكل من كلّ الأطراف صيدا طريّا ظفرت به كائنات ما تحت الثرى بعد أن نجا بأعجوبة من كلّ الأنياب والأظافر المعقوفة التي طالما طاردته على سطحها.

هي تنزل وقد انحسر عنها كلّ رعب لأنّها تعلم أنّها مقدمة الآن على راحة أبدية وفي مثل هذه القصّة لا تفلت من الجثّة الهامدة كينونة خيالية اسمها الروح لتضيع في متاهات الضباب أو لتدخل عالما تقتصر الرحلة فيه على تجربة لذّة لا تنتهي ورعب بدون نهاية.

آن الأوان لاستعادة الذكريات لعرض فيلم السفر في إطار حلم بطيء هادئ على شاشة الكون نفسه.

ويحلو لي أن أتصوّر أن المقابر المبعثرة على امتداد البسيطة هي الأماكن التي تتلاقى فيها الرؤى والأحلام للنائمين تحت الثرى.

هاهي تختلط وتتمازج وكأنّني أسمع نقاشا صامتا يحتدم بين الراقدين.

ـ لقد كانت معركة ناجحة.

ـ أتعتقد ذلك.

تتعالى أصوات صامتة من المجهول.

ـ وأين لكم ممّا عشناه نحن ذلك المكان.

ـ وهل كان لكم في ذلك الزمان السحيق ما توفّرنا عليه نحن من لعب جهنّميّة.

ـ طبعا لا ولكننا كنّا نستمدّ اللّذة والنشوة من أجسادنا لا من لعبنا.

تمرّ الصّور والرؤى في خيال هذا وذاك. يعاد اجترار المعارك كلّ المعارك التي شهدتها

البسيطة. تختلط بها هنا وهناك بعض الصور الضبابية التي بنتها كائنات أخرى تتبادل ذاكرتها وتجرّب انتصاراتها واخفاقاتها حول تلك المطاردة التي انتصرت فيها الطريدة الراكضة على الليث البطيء وتلك المجزرة للواثب على القطيع النائم.

وبينما ترفع عن الجثّة الحدود وبينما هي تدخل البسيطة وتدخلها وبينما يكتمل العناق والتلاقي لتذوب هذه في تلك تدخل ذكريات المسافر المستودع السرّي الذي يحتفظ فيه الوجود بكلّ ذاكرته عن هذا الاسم ـ العالم وعن ألف عالم وعالم عن هذا المسافر وعن كلّ من سافروا بعده ومن سيبحرون بعده على أمواج المجهول.

تتصاعد كلّ هذه الأحلام في فضاء لا قبل لي بتصوّره لتلفّ أحلام ورؤى كائنات انقرضت منذ عهود. تتمازج صور الطرائد والصيّادون. وتتبادل القصص الحيّة المطلقة من عنانها العناوين والمقاطع والأبطال غير عابئة بوحدة زمان أو مكان.

يقضّي النائمون تحت التراب جلّ نومهم في استعراض كلّ هذه القصص.

يغمض الراوي عينيه ويتصوّر الكهف الخرافي الذي يحتوي عليها كلّها وعلى كلّ القصّاصين على المستودع السحري الذي يستجمع فيه الموجود كلّ ما عرف وجرّب كلّ ما رأى وفعل كلّ ما قال وقوّل وقيل عنه.

ها هي جحافل الرحّالة من كلّ الأشكال والأصناف من كلّ الأصقاع من كلّ مراحل الزمان تتسارع كالنمل إلى غاره تحمل إلى كنز الكنوز ما آبت به من رحلتها في ذلك القبس من الزمان وتلك الذرّة من المكان التي حكمت لهم به الأقدار.

أبتسم لها كما ابتسمت لي وأنا نائم أغفو وأستيقظ داخلها. ها أنا أقودها هي التي لم تعد بحاجة إلى دليل في سراديب الكهف الذي صنعته لها وصنعته لكلّ الأحياء الذين يفتعلون الموت.

يا لهذا الزخم من القصص والملحمات من اللّوحات من السمفونيات من المذكّرات من المدوّنات من اليوميات من مجلات السيرة الذاتية.

إنّها تجارب كلّ الممثلين الذين لعبوا دور الوجود والذين تقمّصهم الموجود.

يفتح الرحالة عينيه بكلّ نهم أمام كلّ هذه الروائع التي تبدو أمامها روائع عالمه العجوز تمتمة متخلّف ذهني بالقياس إلى الإلياذة. يشعر بالتخمة قبل أن يجلس إلى طاولة الوليمة. هو يعلم أنّه سيدخل كلّ هذه الملّفات من كلّ أبوابها ليشاهد قصّة ولادة النجوم وقصّة موت الكون وقصّة بناء الأهرامات وقصّة صنع بدر الدّجى وقصّة دخول آلهة الاسم - العالم وقصّة خروج الشياطين منه وقصّة من عرف وقصّة من لم يعرف هو سيعايش بزوغ المجرّات وانفجار الشموس ونشأة الخوف وولادة ألف نبي ونبيّ هو سيحضر مأتم المسيح وولادته يوم يبعث حيّا وسيشهد يوم الحشر وسيعبر زائرا جهنّم والجنّة وسيتابع متقمّصا أيّ

دور شاء ولادة امبراطوريات كونية وخسوف ممالك النمل في أحشاء أكمة حقيرة.

تستبدّ به الصورة ويهرب به الخيال بعيدا يستكشف أبعاد المغارة السحرية أين تراكمت ولا تزال تتراكم كلّ القصص.

لا بدّ أنّها مفتوحة على بعضها البعض متداخلة مترابطة لا بدّ أن تكون ككتب مكتبة حيّة لا تتراصف فيها الأشلاء وإنّما تتبادل فيها الكتب صفحاتها وأبطالها تقرأ بعضها البعض تمزج ذكرياتها تتبادل خبراتها وتجاربها.

يخلع عطيل عن نفسه قصّة عطيل ليتنكّر ويلبس هاملت ويخلعه. تضع عبلة على وجهها قناع عنترة ويعجبها أن تصبح يوليوس قيصر ويهرب هذا الأخير من قصص عصره لينزل رحّالة فضاء يعيد ذكرى أوّل رحلة حملت الإنسان من عالمه إلى مجاهل الفضاء.

إذا كانت الرحلة داخل المغارة هي كلّ الرحلات الممكنة وإذا شاب الدهر وهرم وهي لا زالت في بدايتها فأي مغزى تكتسبه الرحلة داخل الاسم ـ العالم.

هل هي الضريبة الإجبارية لدخول الكهف هل يرجى منها أن تكون تحويرا أو إضافة وما الذي تستطيع حبّة رمل أن تضيفه إلى الصحراء وما الذي يستطيع قبس ثانية أن يضيف إلى بعبع الأبدية.

ولأنّني تعلّمت أن البحث عن حقيقة وهمية ليست إلاّ قصة ساذجة لقصّاص مبتدئ ولأنّني تعلّمت أن علي أن أبحث دوما عن قصّة تتماسك وتتزيّن وتعجب السامعين فقد جعلت القصّة كالتّالي وهي تروي هذا المقطع من الرّحلة.

يحتضن أديم الثرى بقايا كلّ المرتحلين وهو الباب الذي ندخل منه نحن الأفّاقين التائهين في هذا الاسم ـ العالم.

تكون الحفرة في البسيطة الثقب الذي تتسلّل منها الكائنات إلى المغارة السحرية أين ستواصل الرحلة داخل كلّ الرحلات بعد زمن معقول من الرّاحة تقرّر وحدك متى تنهيه هذا إذا أردت أن تشدّ الرّحال ثانية.

وبعد الرّاحة يأتي ضرورة اختيار المرحلة القادمة.

تجعل قصّتي من البسيطة آلة لاستعادة ما أعطت وتفكيك ما وحدّت وإعادة القصّ والتركيب.

هي تأخذ من هذا المقطع كلمة ومن تلك الجملة عبارة تعيد تشكيل الخطاب شبيها لما كتبت ومغايرا له في كلّ فاصلة ونقطة.

وفي قصّتي هذه يعلم كلّ مسافر انّه سيدخل كلّ هذه القصص أنّه سيتسلّل عبر كلّ جمل أيّ سيناريو يعجبه أنّه سيختار أن يكون ليثا واثبا على فريسته وتارة صخرة كسولة

تغفو على خرير جدول رقراق. قد يختار أن يكون إلها أو شيطانا ولم لا آدميا. سيغيّر آنذاك الزّي والشكل والزمان والمكان سيعرف كلّ ما حلم بمعرفته سيستعرض كلّ الإمكانيات كلّ القصص المتوفّرة وكلّ الأدوار الممكنة وكلّ الصور التي التقطت للكون وكلّ اللّوحات التي رسمت عنه في مخيّلة جحافل الكائنات التي حلمت بها وحلم من خلالها.

يصاب الرّحالة بالدوران وهو يتصوّر أن أمامه الأبدية ليرتحل داخل كلّ رحلة ليقرّر أنّه شبع واتخم فيصرف عنه الكون كما يغلق اليوم ذلك الجهاز البائس الذي اخترعه رحّالة هذا العصر وكأنّهم يتذكّرون شيئا أو يستبقونه.

يدسّ الكهل ـ الطّفل أنفا خياليا تحت التراب ويفتح عينين مشدوهتين. يتخيّل عبقرية الكاتب وطول نفسه أحيانا ونفاذ صبره وهو يفكّك النصّ إلى جمل والجمل إلى كلمات والكلمات إلى حروف والحروف إلى خطوط متقطّعة. يجهد عقله عبثا ليتصوّر. يواجه مرّة أخرى بصمت الكاتب وبكبريائه الجبّار. يصدمه عمق جهله بهذا الذي يدور بضعة أمتار تحت أقدامه. إنّها مجدّدا ميادين ممنوعة محرّمة لا ينفع فيها علم ولا خيال. إنّها الغرفة المقدّسة الموصدة الأبواب بأحكام لا تفتح لناظر ولا يمكن لزائر أن يضيّع فيها بعض الوقت ولا تنتصب أمامها حوانيت باعة الذكريات.

تصبح الحفرة نقطة ذهاب ونقطة إياب ومنها تنطلق مشاريع أخرى لقصص وتجارب يجب أن تكون.

إنّها المخبر الذي تعتمل داخله بعض من تلك الصور الشاردة وتلك الخواطر العابرة التي تسللّت في غفلة عين إلى السطح.

إنّ البسيطة قشرة دماغ الاسم ـ الموجود بوظيفة القشرة الرمادية لدماغ البشر والحيوان وفي هذه القشرة لعالم حيّ كما هو حيّ الحيوان يحرّك الاسم ـ العالم ذكرياته ويجترّها يخزنها في المغارة السحرية يستورد منها بعض النماذج وبين غدو ورواح وبين صراع على باب الخروج وبين زحمة على باب الدخول تختمر داخلها هذه الأفكار أو تلك. وداخلها تتواصل الأحلام ويتجدّد الخلق إلى ما لا نهاية.

نولد لهذا الموجود ونولد في هذا الموجود ونلد هذا الموجود.

يعني هذا ضرورة أننا متنا في عالم آخر وأننا أمتنا ضرروة عالما آخر ويا ليت للّغة مصطلح لهذه «الولادة الموت» أو لهذه «الموت الولادة».

لنستعمل بما أنّه ليس لنا خيار آخر كلمة قديمة تكون التجدّد.

انطّلق العالم ـ العجوز بقوّة المخيّلة مرّة أخرى.

ـ ماذا عن الرجل ـ أبي الذي وضعته في التراب.

ـ أنّه بصدد التجدّد هو الآخر ولقد خطا خطوات هامّة في هذا الاتجاه.

ـ وهل لي من أمل أن ألاقيه يوما ونحن بالشكل الذي عرفناه عن بعضنا البعض لنفصل آخر نقط الخلاف لنتسامح لنتفارق نهائيا على أحسن حال.

ـ ذلك شأنكما لكنّني أخشى أنّه ككلّ المتجدّدين لم يعد يلتفت إلى الوراء.

لقد اكتملت بالنّسبة إليه مرحلته الآدميّة وهو الآن حائر أمام كلّ الأدوار الممكنة.

إنّ همّه الأوحد الآن ككلّ من هم بصدد التجدّد أي شكل سيتّخذ.

ـ وهل لك فكرة عنه.

ـ لا أنا ولا هو ولا تحاول بدورك. إنّك تعرف حدود المخيلة الآدمية وكيف أنها تمزج أطرافا من الموجود لكنها لا تخلق الجديد حقّا. هي تستعير من هذا ومن ذاك وتخلط الأشكال ولا يبقى عليك إلاّ الفرز لاكتشاف النماذج المخفية. والخلق الفعلي لا يكون إلاّ إذا حضرت المفاجأة.

أخمنّ أنّها ستكون تجربة موجودة خارج هذه اللّغة التي أنت في قفصها والتي أبحرت على متنها كزورق ضالّ فوق أمواج المحيط.

أين وصلت مراسم تجدّده.

ـ هو كالبقية منهمك في استرجاع ما حوته الذاكرة وترتيب كلّ ما رأى وحفظ وهو في ذلك منغمس أغلب الوقت.. بعدها سيدخل مرحلة كتابة النصّ الجديد على ضوء ما سيغرف من المكتبة العامّة. لا أدري ما الذي سينبثق عن كل هذا وهل سيتجسدّ ثانية وعلى أيّ شكل وفي أيّ ظروف وأيّ مكان وزمان.

ـ وماذا عن المتجدّد الآتي إلى بيت ابنتي.

هو الآخر يتأهب أنّها المراحل الأخيرة وقد يصل بين لحظة وأخرى.

ـ وأين تظنه كان ومن أين جمع ما يلزم من شروط كينونته.

ـ إنني أعجب من أولئك الذين يجهدون أنفسهم لتتبّع ما في الجزئيات.

التي تدخل في تكونه. إنّه لعمري لتفكير أخرق وأنّه لعلم شاذّ هذا الذي تطوّر داخل قصّتنا وحتى ولو فرضنا أنّهم أدخلوه حال الوصول إلى غرفة الكشف الكبرى وأنهم ربطوا بين جزئياته التي تكوّن جسده ومصدر معروف وزمن معروف لها فهل يعني هذا أنّه كان في الجزر وكان في الدجاج وكان في التربة وكان في الهواء.

لقد سمعت من هؤلاء التائهين الجدد من يقول وقد وقف كلّ رحلته على تتبّع تاريخ جزء من حامض أميني أن ابنته كانت الشاة التي أكل لحمها وأنّها كانت الزهرة التي أكلتها الشاة وأنّها كانت التربة التي تغذّت بها الزهرة.

ـ وماذا تقول القصّة في هذا.

ـ «أنا» ـ «انت» ـ «نحن» الشكل والقناع الذي تقمّصه الكلّ في تلك اللّحظة وفي ذلك المكان ثم أنّه يتجدّد عندما يتخلّى عن ذلك الشكل ويوزّعه في كلّ الأشكال ويجعل له شكلا جديدا أخذ أفكاره ومواده من المستودع العامّ الذي يغرف منه كلّ ما هو بحاجة إليه.

ـ أيجب أن نفهم من القصّة أننا مجرّد موادّ نوع من قطع الغيار التي لا ينفك عن فكّها وإعادة التركيب.

ـ «إننا» في آن واحد قطع الغيار والمهندس ومشروع كلّ الآلات وبالتّالي فـ «انت» هي تلك الطّاقة الخلاّقة المبدعة تلك الأشكال التي تخلقها وذلك الشكل المحدّد الذي اتخذته في الرواية أنّ التجدّد تجدّد القوّة وتجدّد الشكل وتجدّد الأشكال.

* * *

هكذا جعلت باب عالمي واحدا منه الدخول ومنه الخروج وجعلت الثنائيات مجرّد معالم من معالم طريق متواصل ونقطتين من نقاطها المتابعة وهكذا لم أعد أرى أحياء وأمواتا وإنّما رأيت كائنا أسميته الموجود يدخل اليقظة ويجرّب الإحساس والشعور والفكر وكلّها حالات وأحوال ثمّ هو يغفو بين الحين والآخر ليرتاح من متاعب اليقظة ليستجمع الصور ليرتبّها ليبوبها ليواصل رحلته داخل ذاته ثم هو يأتيه التعب الكبير والإرهاق الذي لا حدود له. يقرّر آنذاك أن عليه أن يجدّد نفسه يدخل في ذلك السباب العميق الذي تسميه القصص التي ذكرت موتا وهناك تقول قصّتي إنّه لا يتفتّت ولا يذوب ولا يصبح عدما أنّه لا يكرّر نفسه ولا يتواصل على شكله الذي كان وإنّما هو يخرج من قناعٍ ليلبس قناعا آخر واحد أزلي لا يتغيّر مهما لبس أو رمى من قناع.

وهكذا تراك مستيقظا صاحيا في ألف حين وحين وهكذا تراك هاجعا منطويا على نفسك تتقاذفك الأحلام وانت «هو» الحالم والحلم وهكذا تراك مغلقا مقفلا حجر مرميّ على قارعة الطريق وصخرة لا تسمع هدير البحر.

لا أنظر إلى كلّ هذه الأقنعة التي يلبسها الموجود إلاّ ورأيتك ورأيتني.

إنّ ما أعجز عن تصوّره هو أنني كنت كلّ ما كان وأنني كلّ ما هو موجود وأنني سأكون كلّ ما يمكن أن يكون أنّك ستمرّ بكلّ الحالات أنّك سترتدي كلّ الأقنعة أننا وجدنا منذ بداية كلّ بداية وأننا سنوجد عند نهاية كلّ نهاية والتي هي ضرورة الاسم الآخر للبداية المطلقة أنّه ليس أمامنا إلاّ الأبدية أننا سنتواصل في تغيّرنا الدائم أننا سننسى أننا كنّا حجرا وبحرا ونجما وزهرة ودودة وفكرة واحتمالا وطريقا أننا سنعود أشباحا وأطيافا

وأحلاما أننا سنجرّب الصمت والصخب الفكرة واللاّفكرة الإحساس وانطفاءه الشكل وانعدام الشكل إننا سنتجسّد وسنرمي الجسد كمن يرمي قميصا اتّسخ أو جاوزه ذوق العصر.

تأخذ «الولادة» و«الموت» في مثل هذه القصّة معنى جديدا.

يكون «الموت» استراحة المحارب.. نقطة التوقّف الكبرى التي يسترجع فيها الملهوث أنفاسه والمكلوم برءه والمتشنج هدوء أعصابه.

هي من وجهة نظر الموجود اللّحظة التي ينقلب فيها الاسم ـ العالم على ذاته مغلقا قنوات الاتصال رافضا المزيد من الكينونة وهو يفعل هذا لأنّه يريد تبويب الصور وترتيب الذكريات واستخراج المعاني والعبر وقد يكون لأنّه انتهى وتناهي وأن لابدّ له من هذه المرحلة إذا أراد بدأ جديدا.

وبين حالة أقصى الانفتاح والحركة وحالة أقصى الانغلاق والسكون هناك حالة وسط تأخذ جزءا من خصائص الأولى والثانية. وهكذا نعبر ثلث الطريق الفاصل بين الباب الواحد ونحن مستلقون على الظهر وقد أقفلنا مؤقّتا وبصفة محدودة كلّ المنافذ والأبواب وإبّان هذه المرحلة يأخذ الاسم ـ العالم شيئا من الراحة تتباطأ فيه الحركة دون أن تلغى كلّيا وإبّان هذه المرحلة يجرّب الاسم ـ العالم رؤى وأقاصيص أخرى تنضاف إلى ما يعرف وهو في حالة اليقظة القصوى.

هكذا تفرض هذه الحالة على الاسم ـ العالم وجودا متقطّعا يصعد ويهبط يكون ولا يكون يتواصل ويتوقّف يتفتّح ويوصد أبوابه إلى أن تأتي خاتمة القصّة فيكتمل الانغلاق وتوصد الأبواب.

أنظر. تأمل بعينيّ الروح كلّ هذه الأشكال التي تبرز فجأة كلّ لحظة كلّ هذه المصابيح التي تنطفئ وكأنّها وثبت من قاع اللاّشيء. جرّب لحظة أن ترى على شاشة داخلية كلّ هذه الحركة. سترى مثلي أنه لا يوجد شيء اسمه ولادة أو موت وأنّه لا مكان في مثل قصّتنا إلاّ لدخول الأشكال وخروجها أنّ الركح مكتظّ والعرض متواصل والقصص تتدافع والنظّارة جحافل وقوافل وأن وراء كلّ هذا وداخل كلّ هذا الواحد الأحد.

هكذا تعوّدت تدريجيا أن أنظر إلى الموجود من خلال هذه القصّة وكان الأمر صعبا لأنني دخلته من باب قصّة أخرى وكانت ملامحه تتراقص ولم يكن من السهل التأكّد من ملامحه وكنت كمن يحمل على عينيه الضعيفتين ثلاث أنواع من النظّارات إلاّ أنني تعلّمت تدريجيا أن لا أنظر إلاّ من خلال نظّاراتي التي صنعتها لنفسي بكثير من الجهد والألم.

هكذا طردت «الموت» من عالمي ولم أفقد بطرده «الحياة» لأنّها لم تكن يوما نقيضا له

إلاّ في تصنع اللّغة وتكلّفها. هكذا لم يعد في عالمي إلاّ قاعة انتظار تؤوب إليها الأجسام المنهكة لترتاح لتجدّد لتخصب رحما بحجم الكون قاعة تؤوب وتخرج منها الكائنات وقد تخلّصت من الذاكرة لتربح متعة الجديد.

هكذا خلقت عالما متواصلا غير مفكّك ومجزأ إلى فعل وفاعل إلى خالق ومخلوق وهكذا جعلت من «الحياة» بداية جملة ومن «الموت» النقطة إلى السطر التي تنتهي وهكذا جعلت الرحلة فصلا في حكاية لا بداية لها ولا نهاية كاتبها بطلها وبطلها موضوعها وراويها سامعها وسامعه راويها ولم يكن عالما أقلّ غرابة أو أقل مصداقية من كلّ العوالم التي كان الرحّالة يتبادلونها وإنّما وجدت فيه ضالّتي المنشودة ووجد هو فيّ من يحمله ويرعاه ويعمّمه بين جحافل الرّواة والمستمعين.

وبعد أن حاولت وصف الدّيكور الفخم الذي ولّد القصص وولّدته وبخصوص المنعطف الجديد الذي اتخذته رحلتنا الأبدية في شكلها الذي نحن عليه الآن يسعني أن أتابع الحديث وان أقول إنها تواصلت بعد الافاقة كالآتي:

* * *

تعليق على نهاية المدخل إلى كتاب الرّحلة.

كان لا يريد أن يتحايل عليه ليستنطقه اسما أو إرادة مدركا بصفة مبهمة أنه قنطرة. هو تعلّم أن يسلم أمره للصّامت المجهول الذي بداخله لا يعصي له أمرا والأمر كان تلك المرّة انّه لابد من مغالبة التردّد وتدوين الرّحلة.

كان الرّاوي تحت سطوة اعتقاد جازم بأن كلّ لحظة يضّيعها في الكتابة عن الحياة ستكون لحظة ضاعت من الحياة أن كلّ لحظة تضيع في التعريف والوصف والتعليق ستفوّت عليه فرصة الإحساس الصّامت والشعور المبهم والفهم الأخرس وكلّها آخر شروط التحايل على الموجود لاحتوائه أو لاندماج فيه.

كانت له علاقة غريبة مع ذلك الذي يسكنه والذي كان يعلم أنه ليس الأنا. يقبل الراوي ما أمر به صمته العميق ولايأتيه ندم وهو يكتشف يوما بعد يوم أن الكتابة إذا تناست هدف وصف الموجود أو التعليق عليه والتحايل على أسراره هي الفرصة الكبرى لاستنفار حدّة النظر وحدّة السمع وحدّة الشم وحدّة اللّمس.. لعودة الوعي... لتعميق الفضول وكلّها من متطلبات الرحلة الناجحة. كان هو الآخر أكثر من مرّة سائحا بليدا لا يغادر حانة النزل إلاّ لماما وأ بّهة الهمالايا وراء ظهره لا يعيرها أدنى اهتمام..

وهكذا أصبح هو المارّ العجول يتوقف عند كلّ منعطف ليصغي لزقزقة عصفور.. لكلمات طائشة لحديث عابري سبيل لالتهاب أفق وبزوغ قمر نسي طويلا أن ينظر إليه.

هكذا أزاح قرار الكتابة عن الموجود غشاءا رقيقا وكانت الألفة وانكماش الأنا على الذات مصدر ذلك الغشاء.

ثمّ إنّه بدأ يجيل البصر حواليه رضيعا يلقي أوّل نظرة على عالم جديد. لقد بقي طويلا أسير صورة شائعة عن العالم أنّه مجرّد فضاء ملآن بالعجائب والغرائب يأتيه الحيّ ليعبره من باب إلى باب في رحلة استكشافية رهيبة ممتعة.

كان يراه مسرحا ومحتشدا وحلبة صراع وفضاء سّباق وسياحة متقدّم الوجود ضرورة على كلّ زائر جديد وكان يتصوّر أنّ عليه لضروريات العرض القصصي أن يركّز اهتمامه عليه بصفته «الوعاء» معتقدا أنّه سيخلص في ما بعد إلى الحديث عمّا يحتويه من كائنات وقصص.

وبينما هو يكتب عن هذا العالم ـالمسرح تداخلت الصور لتحلّ الفوضى أين كان ينتظر النّظام ليتّضح أن محاولة رسم نوع من الطبوغرافيا العامّة للعالم الذي ندخل لا تؤدّي إلاّ إلى بلبلة فهم إنّها لن تكون قابلة للعلاج.

تتجاور الصّور المتفرّقة المبعثرة عن الأماكن التي واجهها بحواسه مع صور من صنع اللغة تصف أماكن لا ترى ولا تلمس أسمها «الكون» و«العالم المضادّ» و«الآخرة» واتّضح له استحالة إيجاد أي شكل أو نسق لكل هذا الشتات.

تتزايد الحيرة وقد إ تّضح له أن ما يسمّيه خارجه مستبطن داخله وان ما اعتقده دوما داخله هو الموجود الخارجي قد لبس قناعا.

يتزامن تزايد حيرته هذه مع تصاعد الوعي بأنه خالق هذا الذي يتخبّط فيه ومعه وانّه ليس كفأر داخل صندوق زجاجي يبحث عن الطّعام يجازى بقطعة جبن إذا نجح اختبارا ويصعق بالكهرباء إذا أخفق وهو لا يعلم من المجرّب المجهول وما هي التّجربة. يفهم الرّاوي أن الإنسان ليس موجودا داخل «علبة» إسمها العالم وإنّما هو مركز ونقطة من نقاط المدار الذي مركزه في كلّ مكان ولا مكان.

ومن ترتّبات كونه مركز الوجود وصرّته أنّ لكلّ مسافر عالمه الخاص أو خصوصية عالمه. أنه إذا اختفى اختفى العالم ومن ترتبات كونه نقطة على المدار أنه إذا اختفى لم ينتبه أحد أو شيء إلى اختفائه.

من الترتّبات أيضا وهو يتوسّطه انّه يختصّ بجزء من الاسم ـ العالم أنّه قادر على أن يتحكّم فيه كما يتحكم سيد ذو سلطة مطلقة في ملكوته ومن ترتّبات وجوده نقطة على المدار أن يتشارك فيه مع كلّ النقط الأخرى وان يجرّب معهم عجز كلّ العاجزين عن إملاء الإرادة.

هو فهم أن لك ضرورة عالما خاصاً تحييه تجدّده تحمله معك عند المغادرة وتطبعه بطابعك

المميّز أنت لا غير ومن ثمّة أنّ العالم ليس معطى تأخذه أو ترفضه. هو ليس بيتا تكتريه أو تشتريه وإنّما بناء تبنيه تزيّنه وتسكنه تهجره وتعود إليه مضيفا إليه جناحا هنا وجناحا هناك مغيّرا أثاثه ومنّا من يعرف عالمه الزلازل والعواصف والبناء والتدمير ومنا من يتوسّط عالما وديعا لا يعضّ ولا ينهش. تأتي نتيجة الرّحلة أي الموجود الذي صنعه الرحّالة تفاعل ما للفنّان المهندس من عبقريّة وما توفّر له من الموادّ.

هكذا استنتج أن الاسم ـ العالم خلق متواصل تواصل العامّ والخاصّ. يأخذ الخاصّ موادّه من العامّ والعامّ تداخل عالم خاصّ بعالم خاصّ.

يمكنّنا الاشتراك في نفس الموجود من رمي الجسور بين الذوات لتقايض الصّور بالصّور والقصص بالقصص لتثري تجربتها ليكون حصادها من الرّحلة وفيرا.

اتضحت للرّاوي أيضا الأهميّة القصوى للّغة في كونها الأداة السّحريّة التي تمكّن من التعامل مع مادّة خام توفّرها الحواس وفي كونها أداة الخلق الأولى وكيف أنّها بالأساس الحاسّة السّادسة وكيف أنّها الفنّ في أصوله ومنطلقاته.

ثمّ هو أدرك بصفة جليّة أنّه لا يرى ما يرى ولا يسمع ما يسمع ولا يدخل في متاهات الوصف والتّعليق إلاّ مسكونا برؤى وقصص رفاق الرّحلة وأنّ عليه أن يطلّق نهائيا صورة عالم قائم الذات. هكذا نجح في التخلّص من تصوّره القديم للعالم كوعاء يحتوي الأشياء والكائنات مقتنعا يوما بعد يوم أن أفضل تصور له أن نراه اللّوحة الفنّية التي يتعامل معها الآدميون ليواصلوا رسمها وتنويعها في الوقت الذي تواصل فيه اللّوحة رسم من يرسمها. كان مسكونا برؤيا عن تجسّد الواحد المتفرقع إنسانا في عالم وعالما في إنسان. وكان هذا الرّأي خلاصة ما سمع وما ارتضى وحوّر من القصص.

هكذا قبل الرّاوي بما أنّه خالق عالمه أن الرّحلة إعادة صياغة وتركيب وتشكيل في حدود مفروضة وحسب قواعد تسمح بالحرّية وتنظّمها إنّها لا تستكشف الموجود بقدرما تحتّمه.. إنّها لا تفضح الأسرار وإنّما تضيف إليها.

هو قبل أيضا أنّ الموجود مصنوع حسّي لغوي تخلقه الكائنات الآدميّة. وحيث ان عالم الرّحلة مكتظّ غنيّ زاخر بالكائنات فانّها تخلق ضرورة عوالمها الغريبة وهي الأخرى كالشّمس والرّيح والقمر من تمظهرات الواحد المتفرقع.

يستعرض الرّاوي أهمّ الكائنات المعروفة الموجودة الموثوق بوجودها والمسجلة في دفاتر الحالة المدنية لعالمه. وممّا عرف وأوّل ما عرف الكائنات الآدمية.

لقد رأى الآلاف منها تقطع طريقه وقطع هو الآخر طريق الآلاف منها لا قبل له ولا وقت للتثبّت والتعرّف على هذه الشوارد العابرة المتسارعة نحو أهدافها المجهولة لقد أدرك أن أغلبها يبقى دوما خارج طريقه وشعر مبكّرا أن الاسم ـ العالم مليء بالغرابة مليء بالغرباء.

تتلاقى الأجسام وهي مدفوعة بقوّتها الذّاتية إلى الأمام وإلى الخلف إلى الفوق وإلى التحت. تتصادم أو تتعانق. تتجاور لحظة ثم تجرفها الحركة فإذا بالطريق المتحرّك يحمل هذا غربا وذاك شرقا.

هو تعلّم ككلّ المسافرين أن من أحكام الرحلة أن تمشي ردحا من الزمان مع بعض الرّفاق في اتّجاه واحد يسلّونك وتسلّيهم إلى أن يأتي ضرورة تقاطع ما.

تلتفت يمنة فإذا بالرفيق قد غاب عن الأنظار التهمه تفرّع الطريق إلى اليسار أو اليمين. تلتفت يسرة فإذا بالرفيق الآخر قد ابتلعه طريق غير مرئي يقال إنّه يتّجه إلى أعلى وقد تتمسّك بقوّة بيد رفيق ترجو خيرا من صحبته فلا يأبه الطريق. يأخذك منه أو يأخذه منك لأن له المسار الذي لا تحكّم فيه.

تبقى مهما حاولت دائما غريبا في هذا الاسم ـ العالم غريبا على أهله وسكّانه غريبا على أحداثه ورواياته غريبا على معالمه وآثاره غريبا على قديمه وحديثه وهذه الغربة لا دواء لها ولا علاج لأنّ الاسم ـ العالم زاخر غني ملآن فيّاض بالكائنات الغريبة وأحداثها الغريبة.

ثمّ هناك كائنات شبيهة بالآدميين يسمّونها «حيوانات» و«نباتات» يقال إنّها قدّت من نفس المواد لها من الألوان والأشكال ما لقبل لأي وصف بالإحاطة بها ولاحتّى بالإشارة إليها.

تبقى قبائلها وجماهيرها وحشودها هي الأخرى تتخبّط في ضباب كثيف.

هناك كائنات أخرى بسيطة لا تتحرّك إلاّ بمقدار ضئيل تسمّيها اللغة «أشياء» ويقال أنّ لها حياة خاصّة لا تقلّ غرابة وتشويقا عن حياة الكائنات المتحرّكة.

ثمّ هناك صنف رابع من الكائنات المحسوسة قدّت من معادن تستخرج من باطن الأرض وهي مخلوقات تسمّى آلات دخلت الاسم ـ العالم مع الآدميين وتطوّرت ردحا من الزمن كجزء منهم ثمّ اكتسبت في هذا المقطع من الرحلة انتشارا هائلا وقوّة عظيمة وتأثيرا بالغ الخطر بل وأصبحت من أهمّ الممثّلين وأصبحت القصص الكبرى تدور بها وحولها ويقال إنّها الجنس الجديد الغازي الذي سيخلف الآدميين ويرث سيطرتهم علىعالمهم ومن الأسلم ان نتصوّر انّه مقدم على صنع عالمه الخاصّ.

تفترق هذه الكائنات في أغلب الخصائص ويجمعها كلّها أنّها كائنات محسوسة تدخلك وتستبطنك من قناة أو أكثر من القنوات الخمس.

هناك كائنات أخرى من صنف آخر لا ترى بالعين ولا تدخلك من أي قناة أخرى لها من التأثير في خلق القصص ما ليس أحيانا للممثلين المحسوسين وهم يتحرّكون ويصرخون على خشبة المسرح يوجّهون حياتك من أين تدري ولا تدري يسرّون في أذنك بمقاطع كاملة من الرواية تقلّدهم وأنت لا تعرف أنّك تقلّد أو من تقلّد تتحرّك لغايات وأهداف قلّما تعرف من ولماذا وفي أي ظروف سطّروها لك...

كما بالنسبة للكائنات المحسوسة كما بالنسبة لهذه الكائنات اللاّمحسوسة.

هي أيضا أصناف وأنواع.

هناك الأشباح ويقال في كثير من القصص إنّها تملأ جزءا غير منظور من الاسم ـ العالم تتكدّس فيه بانتظار فصل من فصول القصّة اسمه المحاكمة الكبرى.

هناك أصناف أخرى تسمّيها اللّغة «الملائكة» و«الشياطين» و«الجنّ».

هناك أخيرا كائنات تختلف اللّغة أشدّ الاختلاف في حصر عددهم وتسميتهم وتحديد وظائفهم ومكانهم ويجمعون عادة في فصل «الآلهة».

ها قد انتابته الرّهبة من جديد. :من أين له أن يتحدّث عن كلّ هذه الكائنات وهي جماهير غفيرة متدافعة متزاحمة بمثل هذا التنوّع والكثافة والحركة الهوجاء.

لكنّه كان واعيا بأنه لابدّ ممّا لابدّ لرواية أهم فصول الرّحلة.

يجد له مخرجا من جديد. يتذكّر أن هدف الكتابة عن الكائنات ليس تسليط الأنوار عليها لإزاحة العتمة وإنّما تسليط النّور على العتمة نفسها لإعادة اكتشاف غربة وغرابة بقيّة تمظهرات المنزّه عن الاسم.

وللحديث عنها بقيّة.

* * *

سوسة في ٢٢ ماي ١٩٩٧

الفهرس

الرحلة....

سيرة ذات... سيرة كلّ ذات.



الدكتور منصف المرزوقي...

طبيب أخصائي في الأمراض العصبية والطب الجماعي. أستاذ الطب الجماعي في جامعة سوسة في تونس.

الرئيس السابق للرابطة التونسية لحقوق الإنسان و أحد مؤسسي الشبكة الإفريقية لحقوق الطفل ورئيس اللجنة العربية لحقوق الإنسان.

حاصل على العديد من الجوائز العربية والدولية في مجالي الطب والدفاع عن الحقوق الإنسانية.

مؤلف العديد من الكتب والأبحاث بالعربية والفرنسية منها بالعربية: الطبيب والموت (١٩٨٢)، المدخل إلى الطب المندمج (١٩٩٤)، سلسلة التثقيف الصحي، سلسلة انتصارات الطب، سلسلة انتصارات الأطفال، لماذا ستطأ الأقدام العربية أرض المريخ (١٩٨٢)، دع وطني يستيقظ (١٩٨٨)، في سجن العقل (١٩٩٠)، الإنسان الحرام (١٩٩٦)، الاستقلال الثاني: من أجل الدولة العربية الديمقراطية الحديثة (١٩٩٦).

السعر ١٧٥ ل.س